مختارات

من

أدب العرب

(قسم النثر)

للأستاذ أبي الحسن علي الحسني الندوي

الجزء الأول

تعليق

أبي الفضل عبد الحفيظ البلياوى
أستاذ الأدب فى دارالعلوم ندوة العلماء

ملتزم الطبع والنشر

مكتبة دار العلوم ندوة العلماء لكهنؤ

مختارات

من

أدب العرب

(قسم النثر)

مجموعة تمثل الأدب العربى الاسلامى فى جميع مظاهره و مناحيه الأدبية والتاريخية والتهذيبية من العصر الاسلامى الأول إلى القرن الرابع العشر الهجرى

للاستاذ أبي الحسن علي الحسني الندوي

الجزء الأول

تعليق

أبي الفضل عبد الحفيظ البلياوي

أستاذ الأدب فى دارالعلوم ندوة العلماء

ملتزم الطبع والنشر

مكتبة دار العلوم ندوة العلماء لكهنؤ

« مختارات »

كما يراهـا أديب عربى كبير

و هو الأستاذ على الطنطاوى الذى يعتبر فى طليعة أدباء العربية اليوم و من أقدر كتابها و صاحب طريقة و أسلوب فيها و قد اشتغل بالتدريس فى جامعتى بغداد ودمشق و شغل منصب القضاء مدة من الزمن و له عشرات من المؤلفات أكثرها فى الادب و النقد و التاريخ .

إذا كان الدليل على ذوق الأديب اختياره ، فحسب القراء أن يعلموا أننا عرضنا من أمد قريب كتب المختارات الأدبية لنتخير واحداً منها نضعه بين أيدى تلاميذ الثانويات الشرعية فى الشام ، و ذهب كل واحـــد من أعضاء اللجنة — و كلهم من الأدباء — يبحث ويفتش ، فعدنا جميعاً و قد وجدنا أن أجود كتب المختارات المدرسية ، وأجمعها لفنون القول وألوان البيان ، مختارات أبى الحسن .

و لقد كنت أتمنى من قديم أن نخرج بتلاميذنا من هذا السجن الضيق المظلم الذى حشرناهم فيه ، إلى فضاء الحرية ، وإلى ضياء النهار ، فلا نقتصر فى الاختيار ، على « وصف الكتاب » للجاحظ ، و هو جمل مترادفة ، لا تؤلف بينها فكرة جامعة ، و لا يمدها روح ، و لا تخـــالطها حياة ، وعلى ألاعيب ابن العميد ، وغلاظات الصاحب وهندسات القاضى الفاضل ، فننفر التلاميذ من الأدب ، و نكرهه إليهم ، و كنا نقول لهم إن البيان الحق عند غير هؤلاء ، و إن أبا حيان التوحيدى أكتب من الجـاحظ ، و إن كان الجاحظ أوسع رواية و أكثر علما ، و أشد تصرفا فى فنون القول ، و أكبر أستاذية ، و إن الحسن البصرى أبلغ منهما ، و إن ابن

السماك أبلغ من الحسن البصرى (١) .

و إن النظر فيما كتب الغزالى فى الاحياء ، و ابن خلدون فى المقدمة ، وابن الجوزى فى الصيد ، و ابن هشام فى السيرة ، بل والشافعى فى الأم ، و السرخسى فى المبسوط ، أجدى على التلميذ و أنفع له فى التأدب ، من قراءة حماقات الصاحب ، و مخرقات الحريرى و ابن الأثير .

وكتبت فى ذلك مراراً ، فما التفت إلى ذلك أحد ، فيئست منه ، حتى وجـدت كتاب أبي الحسن ، فاذا هو قد نفض كتب الأدب و التاريخ نفضاً ، و حرثها حرثاً ، فاستخرج جواهرها ، فأودعها كتابه (٢) .

---

١ ــ و قد تبدو هذه الأحكام غريبة على من ألف التقليد فى الأدب و عكف عليه ، و لكنها حق ، كما أن من الحق أن أبا تمام أشعر من المتنبي و أعظم .

٢ ــ الأستاذ على الطنطاوى فى مقدمته لكتاب « المسلمون فى الهند» طبع دار الفتح دمشق .

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الكتاب

الحمد لله رب العالمين ، و الصلاة والسلام على سيدنا و مولانا محمد وآله و صحبه أجمعين ، و من تبعهم باحسان إلى يوم الدين .

أما بعد ! فان الأدب العربي قد أصيب بمحنة أصيب بها أدب كل أمة ، و هي محنة تكاد تكون طبيعية ومطردة للآداب و اللغات إلا أن آجالها تختلف ، فقد يطول أجل هذه المحنة في أدب قوم ويقصر في أدب قوم آخرين ، و ذلك يرجع إلى الأحوال الاجتماعية والعوامل السياسية وحركات الاصلاح والتجديد ، و البعث الجديد ، فاذا توفرت في أمة قصر أجل هذه المحنة ، و إذا فقدت أو ضعفت طال أمد هذه المحنة و طال شقاء الأدب و الأمة بها .

إن هذه المحنة هو تسلط أصحاب الصناعة والتكلف على هذا الأدب الذين يتخذونه حرفة و صناعة و يحتكرونه احتكاراً و يتنافسون في تنميقه و تحبيره ليثبتوا به براعتهم و تفوقهم ويصلوا به إلى أغراضهم ، ويستمر ذلك ويستفحل حتى يصبح الأدب مقصوراً عليهم مختصاً بهم ، و يأتي على الناس زمان لايفهم من كلمة « الأدب » إلا ماأثر عن هذه الطبقة من كلام مصنوع وأدب تقليدي لا قوة فيه ولا روح ، ولا جدة فيه ولا طراقة ، ولا متعة فيه ولا لذة .

و يطغى هذا الأدب الصناعي التقليدي على كل ما يؤثر عن هذه الأمة ، و تحتوي عليه مكتبتها الغنية الزاخرة من أدب طبعي و كلام مرسل ، و تعبير

بليغ يحرك النفوس و يثير الاعجاب ، ويوسع آفاق الفكر ، و يغرى بالتقليد ، ويبعث فى النفس الثقة ، ولا عيب فيه إلا أنه صدر عن رجال لم ينقطعوا إلى الأدب و الانشاء و لم يتخذوه حرفة ومكسبا ، و لم يشتهروا بالصناعة الأدبية ، و لم يكن لهذا النتاج الأدبي الجميل الرائع عنوان أدبي ، ولم يكن فى سياق أدبى ، و إنما جاء فى بحث دينى ، أو كتاب علمى ، أو موضوع فلسفى أو اجتماعى ، فبقى مغموراً مطموراً فى الأدب الدينى ، أو الكتب العلمية ، و لم يشأ الأدب الصناعى — بكبريائه — أن يفسح له فى مجلسه و لم ينتبه له مؤرخو الأدب — بضيق تفكيرهم و قصور نظرهم — فينوهوا به ويعطوه مكانه اللائق به .

إن هذا الأدب الطبيعى الجميل القوى كثير وقديم فى المكتبة العربية ، بل هو أكبر سناً و أسبق زمناً من الأدب الصناعى ، فقد دون هـذا الأدب فى كتب الحديث و السيرة قبل أن يدون الأدب الصناعى فى كتب الرسائل و المقامات ، ولكنه لم يحظ من دراسة الأدباء و الباحثين و عنايتهم ما حظى به الأدب الصناعى ، مع أنه هو الأدب الذى تجلت فيه عبقرية اللغة العربية و أسرارها و براعة أهل اللغة و لباقتهم ، وهو مدرسةالأدب الأصيلة الأولى .

و نأخذ كتب الحديث و السيرة — كمثال لهذا الأدب الطبعى — أولا فنقول : إنها اشتملت على معجزات بيانية وقطع أدبية ساحرة ، تخلو منها مكتبة الأدب العربى — على سعتها وغناها — وهو دليل على صحة هذه اللغة ومرونتها ، واقتدارها على التعبير الدقيق عن خواطر ومشاعر و وجدانات و كيفيات نفسية عميقة دقيقة ، ووصف بليغ مصور للحوادث الصغيرة ، وهى الكتب التى حفظت لنا مناهج كلام العرب الأولين و أساليب بيانهم ، و لئن صح ما قاله الرقاشى : « إن ما تكلمت به العرب من جيد المنثور ، أكثر مما تكلمت به من جيد

المنظوم ، فلم يحفظ من المنثور عشره ، ولا ضاع من الموزون عشره ، فكتب الحديث النبوى تسد هذا الفراغ الواقع فى تاريخ الأدب العربى تنقل إلينا هذا الذخر الأدبى الذى اعتقد أنه قد ضاع ، و تمتاز أنها قد اتصل سندها و صحت روايتها فهى أوثق مصدر للغة العربية البليغة التى كانت سائدة فى عهدها الذهبى الأول و الأدب العربى الذى كان منتشراً فى جزيرة العرب .

إن هذه الكتب تشتمل على روايات قصيرة و طويلة وكلها أمثلة جميلة للغة العرب العرباء التى كانوا يتكلمون بها ويعبرون فيها عن ضمائرهم وخواطرهم ، ويجد دارس الأدب العربى فيها من البلاغة العربية ، والقدرة البيانية ، والوصف الدقيق ، و التعبير الرقيق ، و من عدم التكلف و الصناعة ما يقف أمامه خاشعاً معترفا للرواة بالبلاغة و التحرى فى صحة النقل و الرواية ، و للغة العربية بالسعة و الجمال .

أما الروايات الطويلة فهى ثروة أدبية ذات قيمة فنية عظيمة و هى التى تجلت فيها بلاغة الراوى العربى و اقتداره على الوصف و التعبير و التصوير ، و هى التى يطول فيها نفسه فيحكى حكاية يعبر فيها عن معان كثيرة وأحاسيس دقيقة ، و مناظر متنوعة ، فلا يخذله اللسان و لا يخونه البيان و لا يتخلف عنه عنه مدد اللغة ، و كأنها لوحة فنية منسجمة متناسقة قد أبدع فيها الفنان ، أو صورة متناسبة قد أحسن فيها المصور كل الاحسان .

إقرأ معى حديث كعب بن مالك عن تخلفه عن غزوة تبوك وهو موضوع دقيق محرج ، يطلب منه الصراحة والاعتراف بالتقصير ، والشهادة على النفس ، ويطلب منه تصوير ذلك الجو القاتم العابس الذى عاش فيه خمسين ليلة ، ويطلب منه تصوير الخواطر التى كانت تجيش فى صدره و تساور نفسه و هو يعيش فى

جفاء و عتاب ممن يحبهم و تربطه بهم العقيدة و العاطفة ، لايجد لذة فى فراقهم و لا يرى فى الدنيا عوضاً عنهم ، و تصوير تلك الصلة الروحية و الحب العميق الذى يربطه بالنبى ﷺ ربطاً وثيقاً محكما ، لا يحله العتاب والعقاب ، ولايضعفه إقبال الملوك عليه و توددهم إليه ، و تصوير ذلك السرور الذى غمره على إثر قبول توبته ، ما أصعب هذا الموضوع ، و ما أكثره تعقداً و دقة ، و لكنه ببلاغته العربية يتغلب على هذه المشاكل النفسية و الأدبية ، و يترك لنا ثروة نعتز بها .

إقرأ معى هذه القطعة الصغيرة التى أقتبسها من حديثه الطويل ، و هو يحكى ما أحاط بهذه الغزوة العظيمة من ظروف وأجواء ، و يصور تلك الحالة النفسية التى تخلف فيها عن هذه الغزوة وما انتابه من التردد ، ولم يكن التخلف عن الغزوات من سيرته وعادته ، وتمتع بما احتوت عليه هذه القطعة من القوة و الجمال ، و صدق التصوير و براعة التعبير .

« وغزا رسول الله ﷺ تلك الغزوة حين طابت الثمار والظلال ، وتجهز رسول الله ﷺ و المسلمون معه ، فطفقت أغدو لكى أتجهز معهم فأرجع و لم أقض شيئاً ، فأقول فى نفسى وأنا قادر عليه فلم يزل يتمادى بى حتى اشتد الجد . فأصبح رسول الله ﷺ والمسلمون معه ولم أقض من جهازى شيئاً ، فقلت أتجهز بعده بيوم أو يومين ثم ألحقهم ، فغدوت بعد أن فصلوا لأتجهز فرجعت و لم أقض شيئاً ، ثم غدوت فرجعت و لم أقض شيئاً ، فلم يزل بى حتى أسرعوا و تفارط الغزو ، وهممت أن أرتحل فأدركهم ، و ليتنى فعلت ! فلم يقدر لى ذلك . فكنت إذا خرجت فى الناس بعد خروج رسول الله ﷺ فطفت فيهم أحزننى أنى لا أرى إلا رجلا مغموصاً عليه النفاق أو رجلا ممن عذره الله من

الضعفاء » .

ثم انظر كيف يصور حالته و قد هجره المسلمون و نهوا عن كلامه ، و كيف يعبر عن حالة المحب الذى هجره الحبيب — عقوبة و تأديباً — و هو يطمع فى وده ويتسلى بنظراته و الذى لم يزده هذا العتاب إلا رسوخا فى المحبة و لوعة و جوى ، دعه يقص قصته بلسانه البليغ :

« و نهى رسول الله ﷺ المسلمين عن كلامنا أيها الثلاثة من بين من تخلف عنه ، فاجتنبنا الناس و تغيروا لنا حتى تنكرت فى نفسى الأرض فما هى التى أعرف ، فلبثنا على ذلك خمسين ليلة ، فأما صاحباى فاستكانا و قعدا فى بيوتهما يبكيان ، و أما أنا فكنت أشب القوم و أجلدهم فكنت أخرج و أشهد الصلاة مع المسلمين و أطوف فى الأسواق ، ولا يكلمنى أحد ، و آتى رسول الله ﷺ فأسلم عليه وهو فى مجلسه بعد الصلاة فأقول فى نفسى هل حرك شفتيه برد السلام أم لا ؟ ثم أصلى قريباً منه فأسارقه النظر فاذا أقبلت على صلاتى أقبل إلى ، وإذا التفت نحوه أعرض عنى ، حتى إذا طال على ذلك من جفوة الناس مشيت حتى تسورت جدار حائط أبى قتادة و هو ابن عمى وأحب الناس إلى ، فسلمت عليه فوالله ما رد على السلام ، فقلت يا أبا قتادة ! أنشدك بالله ! هل تعلمنى أحب الله ورسوله ؟ فسكت ، فعدت له فنشدته فسكت ، فعدت له فنشدته فقال : الله و رسوله أعلم ، ففاضت عيناى ، وتوليت حتى تسورت الجدار » .

و اقرأ معى كذلك حديث الافك الذى ظهرت فيه براعة السيدة عائشة أم المؤمنين رضى الله عنها الأدبية و قوتها البيانية ، و حسن تصويرها ووصفها للعواطف و المشاعر النسوية اللطيفة الدقيقة ، و قد تجلت فى هذه القطعة رقة عاطفة المرأة المحبة لزوجها، مع إباء الحرة الواثقة بعفافها وطهارتها ، المؤمنة بربها،

و قد أضفى هذا المزيج الغريب من الرقة والشدة ، و العاطفة و العقل . زد إلى ذلك بيان عائشة التى تقلبت فى أعطاف البلاغة العربية وانتقلت فيها من بيت إلى بيت ، قد أضفى كل ذلك على هذه الرواية من الجمال الفنى ما يجعلها من القطع الأدبية الخالدة فى الأدب .

انظر كيف تصف ما تقوله الناس و تحدثوا به و ما شعرت به من تغير فى وجه الرسول ﷺ ، تذكر كل ذلك فى حياء المرأة و أدبها من غير إبهام أو عى :

« قالت عائشة : فقدمنا المدينة فاشتكيت حين قدمت شهراً والناس يفيضون فى أصحاب الافك لا أشعر بشئ من ذلك ، وهو يريبنى فى وجعى أنى لا أعرف من رسول الله ﷺ اللطف الذى كنت أرى منه حين أشتكى . إنما يدخل على رسول الله ﷺ فيسلم ثم يقول كيف تيكم ؟ ثم ينصرف فذلك يريبنى ، و لا أشعر بالشر » .

و تذكر توجعها من الخبر المشاع فتقول : « فبكيت يومى ذلك كله ، لا يرقأ لى دمع و لا أكتحل بنوم ، قالت : و أصبح أبواى عندى ، و قدبكيت ليلتين و يوما لا أكتحل بنوم و لا يرقأ لى دمع حتى إنى لأظن أن البكاء فالق كبدى » .

و تتقدم فى الحكاية و تذكر كيف يسألها رسول الله ﷺ عما قيل عنها ويعزم عليها الصدق ، فلا تلبث أن تعتريها حمية المرأة العفيفة الفاضلة ، ويقلص دمعها حتى لا تحس منها بقطرة ، و ترجو أباها و أمها أن يجيبا عنها رسول الله ﷺ فيمتنعان و يفضلان السكوت حياءاً من رسول الله ﷺ و استحياءاً من الدفاع عن قضية بنتهما و هو الدفاع عن النفس ، فتنبرى للكلام القوى

الصريح المبين — و هى البليغة الأدبية — وتتمثل بقول سيدنا يعقوب وتفوض أمرها إلى الله ، وتنزل براءتها من السماء فتطلب منها أمها أن تشكر رسول الله ﷺ و تقوم إليه فتأبى — فى دلال العفائف وأنفة المؤمن — أن تحمد إلا الله الذى أنزل براءتها من فوق سبع سماوات ، و خلد طهارتها إلى آخر يوم يقرأ فيه القرآن و يؤمن به .

واقرأ كذلك حكايتها للهجرة النبوية و ذكرها لتفاصيلها و ما وقع لرسول الله ﷺ و صاحبه رضى الله عنه فى الطريق ، و وصولهما إلى المدينة ، وكيف تلقاهما الأنصار ، وفرحوا بقدوم رسول الله ﷺ وكل ذلك مثال رائع للوصف الدقيق البليغ ، و البيان القادر الوصاف .

و هنالك روايات أخرى طويلة النفس ، ضافية البيان ، تشتمل على غرر الكلام و بدائعه الحسان و منـــاهج العرب الأولين فى كلامهم ، كحديث صلح الحديبية و حديث الايلاء وغير ذلك ، كانت تستحق أن تكون فى المكانة الأولى فى دراساتنا الأدبية ، ولكنها أفلتت من نظر المؤلفين والناقدين ، لأنها لم تدخل فى دواوين الأدب ، و لأن تصورهم للادب كان تصوراً محدوداً جامداً لايعدو الصناعة .

ويلى الحديث كتب السيرة ، فقد حفظت لنا جزءاً كبيراً من كلام العرب الأقحاح ، ومثلت تلك اللغة البليغة التى كانت فى عصور العربية الأولى و هذبها الاسلام ورققها ، واشتملت على قطع أدبية لايوجد لها نظير فى المكتبة العربية المتأخرة .

اقرأ فى سيرة ابن هشام حديث حليمة ابنة أبى ذويب السعدية عن رضاعة رسول الله ﷺ واقرأ فيها قصص الاضطهاد والتعذيب، واقرأ فيها مغازى رسول

الله ﷺ و حروبه ، و اقرأ فى كتب الحديث و الشمائل ، وفى كتب التاريخ والسير أحاديث الوصف و الحلية تجد من القدرة الفائقة على الوصف و التعبير والبيان الساحر لدقائق الحياة وخوالج النفس وتر من اللغة النقية الصافية واللفظ الخفيف و التعبير الدقيق الرقيق ما يطربك و يملؤك سروراً ولذة وثقة و إيماناً بعبقرية هذه اللغة ، و رغبة فى دراستها و التوسع فيها .

و هكذا صان الله هذه اللغة الكريمة الأمينة للقرآن من الضياع و انتقلت ثروتها من جيل إلى جيل و من كتاب إلى كتـاب ، حتى جاء دور التأليف و التـاريخ فى القرن الثالث و الرابع ، و حفظ لنا المؤرخون أمثـال الطبرى والمسعودى ، والأدباء ، أمثال الجاحظ و ابن قتيبة وأبى الفرج الأصبهانى ثروة زاخرة من الأدب فى كتبهم وحفظوا لنا تلك اللغة العذبة البليغة التى كان العرب الصرحاء يتكلمون بها فى بيوتهم و على موائدهم و فى مجالس انبساطهم ، و جاء منها الشئ الكثير فى كتاب البخلاء للجاحظ و كتاب الامامة و السياسة لابن قتيبة وكتاب الأغانى لأبى الفرج الأصبهانى (على ضآلة قيمة الكتابين الأخيرين التاريخية) و هذه كتب التاريخ و الأدب التى تمثل لنا العربية فى جمالها الأول و نقائها الأصيل و سعتها النادرة .

ثم جاء دور المكلفين المقلدين للعجم ، ونبغ فى العواصم العربية أمثال أبى إسحاق الصابى وأبى الفضل ابن العميد والصاحب بن عباد ، وأبى بكر الخوارزمى ، و بديع الزمان الهمدانى وأبى العلاء المعرى ، واخترعوا أسلوباً للكتابة و الانشاء هو بالصناعة اليدوية و الوشى و التطريز أشبه منه بالبيان العربى السلسال و كلام العرب الأولين المرسل الجارى مع الطبع ، وغلب عليهم السجع والبديع و غلوا فى ذلك غلواً أذهب بهاء اللغة و رواءها وقيد الأدب بسلاسل و أغلال أفقدت

حريته و انطلاقه و خفة روحه وجماله .

وتزعم هؤلاء الأدب العربي واحتكروه وخضع لهم العالم العربي الاسلامى لنفوذهم و علو مكانتهم تارة ، و للانحطاط الفكرى والاجتماعى الذى كان يسود على العالم الاسلامى أخرى . و أصبح أسلوبهم للكتابة هو الأسلوب الوحيد الذى يحتذى و يقلد فى العالم الاسلامى .

و جاء الحريرى فألف المقامات ـ وهو أسلوب الكتابة المسجعة المختمر ـ و قد تهيأت لقبولها العقول فعكف عليها العالم الاسلامى دراسة و شرحا وتقليداً و حفظاً ، و تغلغلت فى مدارس الفكر و الأدب ، وبقيت مسيطرة على العقول و الأقلام أطول مدة تمتع بها كتاب أدبى ، و ما ذاك لفضل الكتاب بل لأنه قد وافق هوى فى النفوس و صادف عصر الجمود و العقم الأدبى فى العالم الاسلامى .

ثم جاء القاضى الفاضل ـ مجدد أسلوب الحريرى و بالأصح مقلده ـ و هو وزير أعظم دولة إسلامية فى عصرها ، و كاتب سر أحب سلطان فى عهده صلاح الدين الأيوبى قاهر الصليبيين و معيد مجد المسلمين ـ فانتشر أسلوبه فى العالم الاسلامى و حرص على تقليده الكتاب و المنشؤن فى أنحاء المملكة الاسلامية (١) .

وهكذا بقى أسلوب وحيد يتحكم فى العالم الاسلامى ويسيطر على الأوساط الأدبية و أصبح ما خلفه هؤلاء الكتاب المتصنعون من تراث أدبى هو المعنى بالأدب العربى ، و جاء المؤرخون للأدب فاعتبروهم أئمة البلاغة و أمراء البيان وأصحاب الأساليب وقدموا ما كتبوه وعرضوه للدارسين والباحثين وقلد بعضهم بعضاً

---

١ ـ ظهرت نماذجهم فى الكتاب لقيمتها الفنية و لأنها تمثل دوراً خاصاً من تاريخ الأدب العربى ،

و تناقلوه ، وأصبحت كتب التاريخ و الأدب نسخة واحدة و أصبحت الكتابة صورة واحدة من القرن التاسع إلى القرن الثالث عشر ، لا يستثنى منهما إلا عبقريان اثنان ، أولهما ابن خلدون ، و ثانيهما الامام أحمد بن عبد الرحيم الدهلوي (١) (م ١١٦٧هـ) .

و تناسى هؤلاء ما كتب غيرهم وانصرف الناس — حتى الباحثين منهم — عن ذخائر الأدب العربي الثمينة ، و لم يفكر أحد في أن يبحث في كتب التاريخ و السير و التراجم و في مؤلفات العلماء عن قطع أدبية رائعة تفوق — في قوتها و حيويتها ، و سلاستها و سلامتها و في بلاغتها و جمال لغتها — على دواوين أدبية و مجاميع و رسائل أكب عليها الناس و افتتنوا بها .

هذا وقد بقيت طائفة من العلماء — حتى في عصور الانحطاط الأدبي — غير خاضعين لأسلوب تقليدي في عصرهم ، متحررين من السجع والبديع والصنائع و المحسنات اللفظية يكتبون و يؤلفون في لغة عربية نقية و في أسلوب مطبوع يتدفق بالحياة ، إذا قرأه الانسان ملكه الاعجاب وآمن بفكرتهم وخضع لعقيدتهم ولما يقررونه، وهذه القطع التي طويت في أثناء كتب علمية أودينية جهلها الأدباء وزهد فيها تلاميذ الأدب هي من بقايا الأدب العربي الأصيل، وهي التي عاشت بها العربية هذه السنين الطوال و هي التي يفزع إليها المتأدب المتذوق و هي رياض خضراء في صحراء العربية القاحلة التي تمتد من عصر ابن العميد إلى عصر القاضي الفاضل إلى أن جاء ابن خلدون .

إن ما كتب هؤلاء العلماء غير معتقدين أنهم يكتبون للأدب ولا زاعمين

---

١ — اقرأ كتابه الفريد «حجة الله البالغة» ، و اقرأ ترجمة مؤلفه في «نزهة الخواطر» الجزء السادس طبع دائرة المعارف العثمانية بحيدر آباد (الهند).

أنهم فى مكانة عالية من الانشاء هو الذى يسعد العربية ويشرفها أكثر مما يسعدها و يشرفها كتابات الأدباء و رسائلهم و موضوعاتهم الأدبية ، وأخاف لو أنهم قصدوا الأدب و تكلفوا الانشاء لفسدت كتابتهم و فقدت ذلك الرونق و تلك العذوبة التى تمتاز بها كتابتهم و خسرنا هذه القطع الجميلة المليئة بالحياة ، فقد التصقت بالأدب شروط وصفات وتقاليد هى المفسدة له ، الطامسة لنوره، فلابد فيه من السجع و الصناعة و لابد فيه من البديع والمحسنات اللفظية و لابد من تقايد من يعد فى الطبقة الأولى من الأدباء ، أما الكتابات العلمية التاريخية أو الدينية فليست فيها هذه التزامات و هذه الشروط القاسية فتأتى أبلغ و أجمل .

و نرى الكاتب الواحد إذا تناول موضوعا أدبياً و تكلف الانشاء تدلى و أسف و تعسف و تكلف و لم يأت بخير ، وإذا استرسل فى الكلام وكتب فى موضوع علمى أو دينى أحسن و أجاد ، هكذا نرى الزمخشرى متكلفاً مقلداً فى « أطواق الذهب » وكاتباً موفقاً بليغاً فى مقدمة «المفصل» و فى مواضع من تفسيره «الكشاف» ، و نجد ابن الجوزى غير موفق فى كتابه «المدهش» وكاتباً مترسلا بليغاً فى كتابه «صيد الخاطر» ، وظنى أنهما كانا يعتبران أثريهما الأدبيين « أطواق الذهب » و «المدهش» من أفضل كتاباتهما الأدبية التى يعتمدان عليها و يفتخران بها ولعل عصرهما صفق لهذين الكتابين الأطواق و المدهش أكثر مما صفق لكتاباتهم العلمية و الأدبية و الدينية ، و لكن قاضى الزمان وحاكم الذوق قد حكما بالعدل وليس اليوم للكتابين الأولين قيمة كبيرة أما صيد الخاطر و تلبيس إبليس و المفصل و الكشاف فهى جديرة بالبقاء جديرة بكل اعتناء .

ليس السر فى فضل هذه الكتابات العلمية و الدينية و تأثيرها و قوتها و جمالها هو التحرر من السجع و البديع و ترسلها فحسب بل السبب الأكبر

هو أن هذه الكتابات قد كتبت عن عقيدة و عاطفة و عن فكرة و اقتناع و عن حماسة و عزم . أما الكتابات الأدبية فقد كان غالبها يكتب بالاقتراح من ملك أو وزير أو صديق أو لارضاء شهوة الأدب أو تحقيق رغبة المجتمع أو حباً للظهور و التفوق ، و هذه كلها دوافع سطحية لا تمنح الكتابة القوة و الروح و لا تسبغ عليها لباس البقاء و الخلود و لا تعطيها التأثير فى النفوس و القلوب ، و الفرق بينها و بين الكتابات المنبعثة من القلب و العقيدة كالفرق بين الصورة و الانسان و كالفرق بين النائحة و الثكلى .

و يذكرنى هذا قصة رويناها فى الصبا و هو أن كلباً قال لغزال : مالى لا ألحقك و أنا من تعرف فى العدو و القوة ، قال : لأنك تعدو لسيدك و أنا أعدو لنفسى .

و قد كان هؤلاء الكتاب المؤمنون الذين ملكتهم فكرة أو عقيدة أو يكتبون لأنفسهم يكتبون إجابة لنداء ضميرهم و عقيدتهم مندفعين منبعثين فتشتعل مواهبهم ويفيض خاطرهم ويتحرق قلبهم فتنثال عليهم المعانى و تطاوعهم الألفاظ و تؤثر كتابتهم فى نفوس قرائها لأنها خرجت من قلب فلا تستقر إلافى قلب .

أما هؤلاء المتصنعون فانهم فى كتاباتهم الأدبية أشبه بالممثلين قد يمثلون الملوك فيتصنعون أبهة الملك ومظاهره ، و قد يمثلون الصعلوك فيتظاهرون بالفقر و قد يمثلون السعيد و قد يمثلون الشقى من غير أن يذوقوا لذة السعادة أو يكتووا بنار الشقاء ، وقد يعزون من غير أن يشاركوا المفجوع فى أحزانه وقد يهنئون من غير أن يشاركوا السعيد فى أفراحه .

بالعكس من ذلك إقرا كتابات الغزالى فى « الاحياء » و فى « المنقذ من الضلال » ، و اقرأ خطب عبد القادر الجيلى (رضى الله عنه) ماصح منها ،

واقرأ ما كتبه القاضى ابن شداد عن صلاح الدين ، واقرأ ما كتبه شيخ الاسلام ابن تيمية وتلميذه الحافظ ابن قيم الجوزية فى كتبهما تر مثالا رائعاً للكتابة الأدبية العالية يتدفق قوة و حياة و تأثيراً ، وذلك هو الأدب الحى الخليق بالبقاء و لا سبب لذلك إلا أنه كتب عن عقيدة و عاطفة .

و هنالك شئ آخر و هو أن الايمان و صفاء النفس و الاشتغال بالله و العزوف عن الشهوات يمنح صاحبه صفاء حس و لطافة نفس وعذوبة روح و نفوذاً إلى المعانى الدقيقة و اقتداراً على التعبير البليغ فتأتى كتابته كأنها قطعة من نفس صاحبها وصورة لروحه خفيفة على النفس مشرقة الديباجة لطيفة السبك بارعة فى التصوير لذلك كان من الأدب الصوفى و فى كلام الصالحين العارفين قطع أدبية خالدة لم تفقد جمالها و قوتها على مر العصور و الأجيال . و ترى من ذلك نماذج فى كلام السادة الحسن البصرى و ابن السماك و الفضيل بن عياض وابن عربى الطائى تعد من محاسن العربية ، واقرأ — على سبيل المثال — الحوار الذى دار بين ابن عربى ونفسه وسجله فى كتابه « رسالة روح القدس » .

إن هذه القطع الأدبية الدافقة بالحياة والقوة والجمال كثيرة غير قليلة فى المكتبة العربية إذا جمعت تكونت منها مكتبة لكنها منثورة مبعثرة فى هذه المكتبة مطوية مغمورة فى أوراق كتب ومؤلفات لا تجدها فى ركن الأدب و الانشاء فى مكتباتنا العربية ولا يذكرها المؤرخون للأدب فى كتبهم ، هذه القطع أصدق تمثيلا للغة العربية و أدبها الرفيع ومحاسنه من كثير من الكتب المختصة بالأدب و من كثير من المجاميع و الرسائل و المقامات و المقالات الأدبية التى تعتبر أساس الأدب و زهو العربية و محصول العقول .

و هذه القطع هى التى تخدم اللغة و الأدب أكثر مما تخدمها كتب اللغة

و الأدب ، و هى التى تفتق القريحة و تنشط الذهن وتقوى الذوق السليم وتعلم الكتابة الحقيقية .

إن هذه القطع و النصوص منثورة كما قلت فى كتب الحديث و السيرة و التاريخ و كتب الطبقات و التراجم و الرحلات و فى الكتب التى ألفت فى الاصلاح و الدين و الأخلاق و الاجتماع ، و فى بحوث علمية و دينية ، و فى كتب الوعظ و التصوف وفى الكتب التى سجل فيها المؤلفون خواطرهم وتجارب حياتهم ، و ملاحظاتهم و انطباعاتهم ، و رووا فيها قصة حياتهم .

هذه ثروة أدبية زاخرة تكاد تكون ضائعة ، و قد جنى هذا الاهمال على اللغة و الأدب وعلى الكتابة والانشاء وعلى التأليف و التصنيف و على التفكير ، فقد حرمه مادة غزيرة من التعبير و باعثاً قوياً للتفكير .

مخطئ من يظن أن المكتبة العربية قد استنفدت و عصرت إلى آخر قطراتها، إنها لا تزال مجهولة تحتاج إلى اكتشافات و مغامرات ، إنها لا تزال بكراً جديدة تعطى الجديد و تفجأ بالغريب المجهول ، إنها لاتزال فيها ثروة دفينة تنتظر من يحفرها و يثيرها .

إن مكتبة الأدب العربى فى حاجة شديدة إلى استعراض جديد و إلى دراسة جديدة و إلى عرض جديد .

و لكن هذه الدراسة و هذا الاستعراض يحتاجان إلى شئ كبير من الشجاعة و إلى شئ كبير من الصبر و الاحتمال و إلى شئ كبير من رحابة الصدر و سعة النظر فالذى يخوض فيها ليخرج على العالم بتحف أدبية جديدة و ذخائر عربية جديدة ، ينبغى ألا يكون ضيق التفكير ، جامداً متعصباً فى فهمه للأدب متعصباً لبلد أو لطبقة أو لعصر ، تهوله ضخامة العمل ، واتساع المكتبة

العربية ، أو يوحشه عنوان دينى أو يمنعه — من الاختيار و الدراسة — اسم قديم لا صلة له بالأدب والأدباء ، يجب أن يكون حر التفكير ، واسع الأفق بعيد النظر متطلعاً إلى الدراسة و التجربة واسع الاطلاع على الكنوز القديمة يفهم الأدب فى أوسع معانيه و يعتقد أنه تعبير عن الحياة و عن الشعور و الوجدان فى أسلوب مفهم مؤثر لا غير .

إنى لا أزدرى كتب الأدب القديمة — من رسائل ومقامات وغيرها — و لا أقلل قيمتها اللغوية و الفنية و أعتقد أنها مرحلة طبعية فى حياة اللغات و الآداب ، و لكننى أعتقد أنها ليست الأدب كله و أنها لا تحسن تمثيل أدبنا العالى الذى هو من أجمل آداب العالم وأوسعها، وأنها جنت على القرائح والملكات الكتابية ، والمواهب والطاقات و على صلاحية اللغة العربية ومنعت من التوسع و الانطلاق فى آفاق الفكر و التعبير و التحليق فى أجواء الحقيقة و الخيال ، و تخلفت بهذه الأمة العظيمة ذات اللغة العبقرية و الأدب الغنى فترة غير قصيرة نخير لنا أن نعطيها حظها من العناية و الدراسة و نضعها فى مكانها الطبعى فى تاريخ الأدب و طبقات الأدباء ، و أن تنقب فى المكتبة العربية من جديد و نعرض على ناشئتنا و على الجيل الجديد نماذج جديدة من الكتب القديمة للأدب العربى حتى يتذوق جمال هذه اللغة و ينشأ على الابانة والتعبير البليغ ، و يتعرف بهذه المكتبة الواسعة و يستطيع أن يفيد منها .

على هذا الأساس ، وعلى هذه الفكرة ألفنا كتابنا « مختارات من أدب العرب » وها هو الجزء الأول من هذا الكتاب يجمع بين الطبعى و الفنى — و لكل قيمة أدبية — ويجمع بين القديم والحديث ، نرجو أن يقع من الأدباء و المعلمين موقع الاستحسان و القبول .

و شكرى و اعترافى لأستاذنا العلامــة السيد سليمان الندوى (١) معتمد دارالعلوم ندوة العلماء والدكتور السيد عبد العلى الحسنى (٢) مدير ندوة العلماء و الأستاذ محمد عمران خان الندوى الأزهرى عميد دار العلوم سابقاً الذين كان لتشجيعهم و إتاحتهم للفرص فضل كبير فى تأليف هذا الكتاب ، عام ١٣٥٩ﻫ، وتقريره للدراسة فى دار العلوم ندوة العلماء ، كما كان لحضرات الأساتذة الشيخ محمد حليم عطا (٣) مدرس الحديث الشريف فى دارالعلوم ، و الأستاذ الكبير السيد طلحة الحسنى (٤) معلم الكلية الشرقية فى لاهور سابقاً ، و الأستاذ محمد ناظم الندوى أستاذ آداب اللغة العربية فى دارالعلوم سابقاً ، والأستاذ عبد السلام القدوائى الندوى أستاذ التاريخ والسياسة فى دار العلوم سابقاً ، توجيهات و آراء سديدة ، ومساعدات غالية ، وشكرى و تقديرى للأستاذ عبد الحفيظ البلياوى ، الذى ساعد المؤلف و تناول الكتاب بالشرح و الايضاح .

والحمد لله أولا و آخراً ، و صلى الله على خير خلقه وخاتم رسله سيدنا و مولانا محمد و آله و صحبه .

أبو الحسن على الحسنى الندوى

ندوة العلماء لكهنؤ (الهند) لعشر خلون من ربيع الأول١٣٩١ ﻫ

٦ مايو ١٩٧١ م

---

١ — توفى إلى رحمةالله تعالى لثلاث عشرة خلون منربيعالأول عام١٣٧٣ﻫ الموافق ٢٢ نوفمبر سنة ١٩٥٣ م .

٢ — توفى إلى رحمة الله فى ٢٢ ذى القعدة ١٣٨٠ﻫ الموافق ٧ مايو ١٩٦١م.

٣ — كانت وفاته يوم ٧ أكتوبر عام ١٩٥٥ م .

٤ — المتوفى ٢٢ رجب ١٣٩٠ﻫ الموافق ٢٥ سبتمبر ١٩٧٠ م .

الجزء الأول

بسم الله الرحمن الرحيم

(١) عباد الرحمن

تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجاً وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجاً وَقَمَراً مُنِيراً[١] . وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيلَ وَالنَّهَارَ خِلفَةً[٢] لِمَن أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَو أَرَادَ شُكُوراً . وَعِبَادُ الرَّحمَنِ الَّذِينَ يَمشُونَ عَلَى الأَرضِ هَوناً[٣] وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الجَاهِلُونَ قَالُوا سَلاماً . وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِم سُجَّداً وَقِيَاماً . وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصرِف عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَاماً[٤] . إِنَّهَا سَاءَت مُستَقَرّاً وَمُقَاماً . وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَم يُسرِفُوا وَلَم يَقتُرُوا[٥] وَكَانَ بَينَ ذَلِكَ قَوَاماً[٦] . وَالَّذِينَ لا يَدعُونَ مَعَ اللهِ

---

(١) مضيئا (٢) اى هذا خلفا من هذا يقال « هن يمشين خِلفَة » اى تذهب هذه وتجيء هذه (٣) أي بسكينة ووقار (٤) ما ينوب الانسان من شدة ومصيبة (٥) لم يضيقوا (٦) وسطا

إلهاً آخرَ ولاَ يقتُلُونَ النَّفسَ الَّتي حرَّمَ اللهُ إلاَّ بالحقِّ ولا يزْنُونَ ومَن يفعَل ذَلِك يَلْقَ أثاماً[1] . يُضاعَفْ لَهُ العذَابُ يومَ القيامةِ ويَخْلُدْ فيهِ مُهاناً[2] . إلاَّ مَن تابَ وآمَنَ وعَمِلَ عمَلاً صالِحاً فأولَئِكَ يُبَدِّلُ اللهُ سيِّئاتِهِم حسَناتٍ وكانَ اللهُ غفُوراً رَّحِيماً . ومَن تابَ وعَمِلَ صالِحاً فإنَّهُ يتُوبُ إلىَ اللهِ مَتاباً . والَّذِينَ لا يَشهدُونَ الزُّورَ[3] وإذَا مرُّوا باللَّغوِ مرُّوا كِراماً . والَّذِينَ إذَا ذُكِّرُوا بآياتِ ربِّهِم لم يَخِرُّوا علَيهَا صُمّاً وعُمياناً . والَّذِينَ يقُولُونَ ربَّنَا هَبْ لنَا مِن أزواجِنَا وذُرِّيَّاتِنا قُرَّةَ أعيُنٍ واجْعَلنَا لِلمُتَّقِينَ إماماً[4] . أُولَئِكَ يُجزَونَ الغُرفَةَ بِمَا صبَرُوا ويُلَقَّونَ فِيها تحيَّةً وسَلاماً . خالِدِينَ فِيهَا حسُنَتْ مُستَقَرّاً ومُقَاماً . قُل مَا يَعبَؤُ بكُم[5] ربِّي لَولا دُعَاؤُكُمْ فقَد كذَّبتُم فسَوفَ يَكُونُ لِزَاماً[6] .

(سورة الفرقان)

---

(١) عذابا وعقوبة (٢) ذليلا حقيرا (٣) الباطل والشرك بالله (٤) من يؤتم: أى يقتدى به ج أيمة وائمة (٥) لا يبالى بكم (٦) ملازما

سيدنا موسى

على نبينا وعليه الصلاة والسلام

طسم . تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ . نَتْلُوا عَلَيْكَ
مِنْ نَبَإِ (١) مُوسَى وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ
إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا (٢) فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا
شِيَعًا (٣) يَسْتَضْعِفُ (٤) طَائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ
وَيَسْتَحْيِي (٥) نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ . وَنُرِيدُ أَنْ
نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً
وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ . وَنُمَكِّنَ (٦) لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ
فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ (٧) .
وَأَوْحَيْنَا (٨) إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ
فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ (٩) وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ
إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ . فَالْتَقَطَهُ (١١) آلُ

---

(١) الخبر ج أنباء (٢) تجبر وتكبّر (٣) جمع شيعة وهي الفرقة (٤) أى يجعل ضعيفا (٥) يستبقى (٦) أى نجعل لهم سلطانا وقدرة (٧) يتحرزون (٨) الهمنا (٩) البحر (١٠) لقطه أى اخذه بلا تعب

فِرعَونَ لِيَكُونَ لَهُم عَدُوّاً وَحَزَناً إنَّ فِرعَونَ وَهامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ . وَقَالَتِ امرأةُ فِرعَونَ قُرَّةُ عَينٍ لِيّ وَلَكَ لاَ تَقتُلُوهُ عَسَى أن يَنفَعَنَا أو نَتَّخِذهُ وَلَداً وَهُم لاَ يَشعُرُونَ . وَأصبَحَ فُؤَادُ أُمّ مُوسَى فَارِغاً[1] إن كَادَت لَتُبدِي بِهِ لَولاَ أن رَبَطنَا[2] عَلَى قَلبِهَا لِتَكُونَ مِنَ المُؤمِنِينَ . وَقَالَت لِاُختِهِ قُصّيهِ[3] فَبَصُرَت بِهِ عَن جُنُبٍ[4] وَهُم لاَ يَشعُرُونَ . وَحَرَّمنا عَلَيهِ المَرَاضِعَ مِن قَبلُ فَقَالَت هَل أدُلُّكُم عَلَى أهلِ بَيتٍ يَكفُلُونَه لَكُم وَهُم لَهُ نَاصِحُونَ . فَرَدَدنَاهُ إلَى أُمّهِ كَي تَقَرّ عَينُهَا وَلا تَحزَنَ وَلِتَعلَمَ أنَّ وَعدَ اللهَ حَقّ وَلَكِنَّ أكثَرَهُم لاَ يَعلَمُونَ . وَلَمَّا بَلَغَ[5] أشُدَّهُ وَاستَوَى[6] ءاتَينَاهُ حُكماً وَعِلماً

---

(١) اى خاليا من كل شيء سوى موسى (كما روى ابن عباس) أو خاليا من الحزن (٢) قوينا يقال ربط الله على قلبه : قواه وصبَّره (٣) اتبعى اثره (٤) البعيد (٥) يقال بلغ فلان اشده اى قوته وفى القرآن حتى اذا بلغ اشده وبلغ أربعين سنة والاَشد بفتح الهمزة وضم الشين (كما فى القرآن) والاَشد بضمهما القوة وهو جمع لا واحد له او واحد جاء على بناء الجمع (٦) يقال: استوى الرجل اى انتهى شبابه وبلغ اشده

وَكَذلِكَ نجْزِي المُحسِنينَ . وَدَخَلَ المَدِينَةَ عَلى حِيْنِ غَفلَةٍ مِّنْ أهلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقتَتِلانِ هَذَا مِنْ شِيعَتِهِ وَهَذا مِن عَدُوِّه . فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِى مِن شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِن عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ[1] مُوسَى فقَضَى عَلَيهِ قَالَ هَذَا مِن عَمَلِ الشَّيطَانِ إنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ . قَالَ رَبِّ إنِي ظَلَمْتُ نَفسِى فَاغفِر لِي فَغَفَرَ لَهُ إنَّهُ هو الغَفُورُ الرَّحِيمُ . قَالَ رَبِّ بِمَا أنعَمتَ عَلَيَّ فَلَن أكُونَ ظَهِيراً[2] لِلمُجرِمِينَ . فَأصبَحَ فِي المدينة خَائفاً يَتَرَقَّبُ[3] فَإذَا الَّذِي استَنصَرَهُ بِالأمسِ يَستَصرِخُهُ[4] قَالَ لَهُ مُوسَى إنَّكَ لَغَوِيٌّ[5] مُبِينٌ . فَلَمَّا أن أرَادَ أن يَبطِشَ[6] بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لهُمَا قَالَ يَا مُوسَى أتُرِيدُ أن تَقتُلَنِي كَمَا قَتَلتَ نَفساً بِالأمسِ إن تُرِيدُ إلا أن تَكُونَ جَبَّاراً فِي الأرضِ وَمَا تُرِيدُ أن تَكُونَ مِنَ المُصلِحِينَ . وَجَاءَ رَجُلٌ مِن أقصَا المَدِينَةِ يَسعَى قَالَ يَا مُوسَى إنَّ المَلأَ[7] يَأتَمِرُونَ[8] بِكَ لِيَقتُلُوكَ فَاخرُج إنِي لَكَ مِنَ النَاصِحِينَ . فَخَرَجَ مِنهَا خَائفاً

---

(١) بابه ضرب ، ضربه بجمع الكف (٢) المعين (٣) ينتظر (٤) يستغيثه
(٥) الضال والمنقاد للهوى (٦) يطش به فتك (٧) اشراف القوم
(٨) ائتمروا وتآمروا تشاوروا

يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ . وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ[1] مَدْيَنَ قَالَ عَسَى رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ . وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ[2] قَالَ مَا خَطْبُكُمَا[3] قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ[4] الرِّعَاءُ[5] وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ . فَسَقَى لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ . فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ . قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ . قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنْكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ[6] فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ . قَالَ ذَلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ وَاللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ .

(سورة القصص)

---

(١) يقال جلس تلقاءه اي تجاهه (٢) تدفعان وتطردان غنمها عن الماء (٣) شأنكما
(٤) يرجع ماخوذ من الصدور وهو الرجوع عن الماء ويقابله الورود وهو الاتيان الى الماء
(٥) جمع راع (٦) جمع حجة اي السنة

جوامع الكلم (١)

لسيدنا ومولانا محمد (٢) رسول الله صلى الله عليه وسلم

اما بعد (٣) فان أصدق الحديث كتاب الله، واوثق (٤) العرى كلمة التقوى، وخير الملل (٥) ملة ابراهيم، وخير السنن (٦) سنة محمد صلى الله عليه وسلم، واشرف الحديث ذكر الله، واحسن القصص هذا القرآن، وخير الامور عوازمها (٧) وشر الامور محدثاتها (٨)، واحسن الهدى (٩) هدى الانبياء، واشرف الموت قتل الشهداء، واعمى العمى الضلالة بعد الهدى، وخير العلم ما نفع، وخير الهدى ما اتبع، وشر العمى عمى القلب، واليد العليا خير من اليد السفلى، وما قلَّ وكفى خير مما كثر وألهى (١٠) وشر المعذرة حين يحضر الموت وشر الندامة يوم القيامة، ومن الناس من لا يأتي الصلاة الا دبرا، ومنهم من لا يذكر الله الا هجرا (١١)، واعظم الخطايا اللسان

---

(١) من اضافة الصفة الى الموصوف اى الكلمات الجامعة (٢) سيدنا محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم افصح العالمين لسانا، وابلغهم بيانا اجتمع له من صفات البليغ وخلال البيان من سليقة وبيئة وخلق وذوق وصفاء حس وتمكن لسان وميراث أدب وموهبة حكمة ما لم يجتمع لأحد قبله ولا يجتمع لأحد بعده، زد على ذلك ان لسانه مجرى الوحي فكان مرتعا بعد السيل وحدث عن خضرته ونباته، كان مطاع اللفظ، مثقف اللسان، فياض الخاطر، جميل المذهب، سهل اللفظ اماما مجتهدا صاحب معجزات وآيات فى اللسان العربى

(٣) مبنى على الضم لقطعه عن الاضافة (٤) المحكم والعرى جمع عروة وهى من الابريق ونحوه مقبضه والعروة ما يوثق به وما يعول عليه (٥) جمع ملة وهى الشريعة (٦) جمع سنة وهى الطريقة (٧) جمع عازمة وامر عازم اى معزوم عليه (٨) جمع محدث وهو ما لم يكن معروفا فى كتاب ولا سنة ولا اجماع (٩) السيرة (١٠) شغل (١١) بالفتح ترك مايلزمك تعهده، وبالضم الكلام القبيح

الكذوب (1) ، وخير الغنى غنى النفس ، وخير الزاد التقوى ورأس الحكمة مخافة الله ، وخير ما وقر (2) في القلوب اليقين ، والارتياب (3) من الكفر ، والنياحة من عمل الجاهلية ، والغلول (4) من جثاء (5) جهنم ، والكنز كي (6) من النار ، والشعر من مزامير (7) ابليس ، والخمر جِمّاع (8) الاثم ، والنساء حبالة الشيطان ، والشباب شعبة من الجنون ، وشـر المكاسب كسب الربا ، وشر المآكل مال اليتيم ، والسعيد من وُعِظ بغيره ، والشقى من شقِي فى بطن أمّه ، وانما يصير أحدكم الى موضع اربع اذرع ، والامر بآخرته ، وملاك (9) العمل خواتمه (10) ، وشر الروايا (11) روايا الكذب ، وكل ماهو آت قريب ، وسباب المؤمن فسوق وقتال المؤمن كفر ، وأكل لحمه من معصية الله ، وحرمة ماله كحرمة دمه ، ومن يتألّ (12) على الله يُكذّبه ، ومن يغفر يغفر الله له ومن يعف يعف الله عنه ، ومن يكظم الغَيظ يأجره الله ، ومن يصبر على الرَزِيّة يعوضه الله ، ومن يتبع السمعة يسمع الله به ، ومن يصبر يضعف الله له ومن يعص الله يعذبه الله ، اللهم اغفر لى ولأمتى اللهم اغفر لى ولأمتى اللهم اغفر لى ولأمتى استغفر الله لى ولكم (13)

---

(1) الكثـير الكذب والمراد بـه ههنا الكـاذب (2) ثبت بابـه ضرب (3) ارتاب من الشيء اى شك فيه (4) السرقة من مال الغنيمة (5) جمع جثوة وهو الشيء المجموع وما جمـع من نحو تراب فاستعير للجماعـة (6) احراق الجلد بحديدة محماة او نحوها (7) جمع مزمار وهو الذى يزمر فيه (8) ككتـاب بالكسر والتخفيف وبالضـم والتشـديـد مجتمع أصل كل شيء (9) بفتح الميم وكسرها قوام الأمر (10) جمع خاتم وهو عاقبة كل شيء (11) جمع رويّة وهو ما يروى الانسـان فى نفسه من القول والفعل وقيل جمع راوية للرجل الكثير الرواية وقيل جمع رواية اى الذين يروون الكذب (12) يحلف (13) البيهقى فى الدلائل وابن عسـاكر عن عقبة بن عامر الجهنى

الخطابة المعجزة

عن ابى سعيد الخدري قال لما اعطى رسول الله صلى الله عليه وسلم ما اعطى من تلك العطايا الكبار فى قريش وفى قبائل العرب ولم يكن فى الانصار منها شيء وجد (١) هذا الحى (٢) من الانصار فى أنفسهم حتى كثرت فيهم القالة (٣) حتى قال قائلهم لقى والله رسول الله صلى الله عليه وسلم قومه ، فدخل عليه سعد بن عبادة فقال يارسول الله ان هذا الحى من الأنصار قد وجدوا عليك فى انفسهم لما صنعت فى هذا الفيء (٤) الذى اصبت قسمت فى قومك واعطيت عطايا عظاما (٥) فى قبائل العرب ولم يكن فى هذا الحى من الانصار منها شيء ، قال فأين انت من ذلك ياسعد ؟ قال يارسول الله ما انا الا من قومي ! قال فاجمع لى قومك فى هذه الحظيرة(٦) قال فجاء رجال من المهاجرين فتركهم فدخلوا وجاء آخرون فردّهم فلما اجتمعوا أتى سعد فقال قد اجتمع لك هذا الحى من الانصار فأتاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله ثم قال :

« يامعشر الانصار ماقالة بلغتنى عنكم وجِدَة (٧) وجدتموها فى انفسكم ؟ ألم آتكم ضلالا فهداكم الله بى ، وعالة(٨) فأغناكم الله بى ، وأعداء فألف الله بين قلوبكم ؟ قالوا الله ورسوله امنّ وافضل ! ثم قال الا تجيبوني يامعشر الانصار ؟! قالوا بماذا نجيبك يارسول الله ، لله ولرسوله المن والفضل ! قال أما والله لو شئتم لقلتم فلصدقتم ولصدّقتكم اتيتنا مكذّبا فصدقناك، ومخذولا (٩) فنصرناك، وطريدا فآويناك ، وعائلا فواسيناك(١٠)،

---

(١) وَجَد يجِد وجدا وجِدة وموجدة ووجدانا عليه اى غضب (٢) البطن من بطون العرب ج احياء (٣) القول الفاشى فى الناس خيرا كان او شرا (٤) الغنيمة ج أفياء وفيوء (٥) جمع عظيم (٦) الموضع الذى يحاط عليه لتأوى اليه الماشية فيقيها البرد والريح ج حظائر (٧) السخط والغضب (٨) جمع عائل اى الفقير (٩) الذى ترك نصرته واعانته ج مخاذيل بابه نصر (١٠) اسى مواساة الرجل في ماله اى جعله اسوته فيه

اوجدتم عليَّ يامعشر الانصار فى انفسكم فى لعاعة (١) من الدنيا تألفت بها قوما ليسلموا ووكلتكم الى اسلامكم الا ترضون يامعشر الانصار ان يذهب الناس بالشاء (٢) والبعير وترجعون برسول الله الى رحالكم فوالذى نفس محمد بيده لما تنقلبون به خير مما ينقلبون به ولولا الهجرة لكنت امرأ من الانصار ولو سلك الناس شِعبا (٣) ووديا وسلكت الانصار شِعبا وواديا لسلكت شِعب الانصار وواديها

الأنصار شعار (٤) والناس دثار (٥) اللهم ارحم الأنصار وأبناء الأنصار وأبناء أبناء الأنصار قال فبكى القوم حتى أخضَلوا (٦) لحاهم (٧) وقالوا رضينا برسول الله صلى الله عليه وسلم قَسماً وحظّاً (٨)

في بني سعد

كانت حليمة بنت ابى ذؤيب السعدية ام رسول الله صلى الله عليه وسلم التى ارضعته تحدّث انها خرجت من بلدها مع زوجها وابن لها صغير (٩) ترضعه فى نسوة من بنى سعد بن بكر تلتمس الرضعاء (١٠) قالت وذلك فى سنة شهباء (١١) لم تبق لنا شيئا، قالت فخرجت على اتان لى قمراء (١٢) معنا شارف (١٣) لنا والله ماتبضُّ (١٤) بقطرة وما ننام ليلنا اجمع من صبينا الذى

---

(١) نبت ناعم فى اول ما يبدؤ ومنه انما الدنيا لعاعة اى انها كالنبات الاخضر لا بقاء لها (٢) جمع شاة (٣) بالكسر الطريق فى الجبل ومسيل الماء فى بطن ارض وما انفرج بين الجبلين ج شِعاب (٤) بالفتح والكسر وهو اللباس الذى يلى شعر الجسد وهو كناية عن البطانة من الناس والخاصة ج أشعِرة وشُعُر (٥) بالكسر الثوب الذي يستدفأ به من فوق الشعار (٦) خضَل وأخضل الشي ندّاه وبلّه (٧) جمع لحيته أى شعر الخدين والذقن (٨) زاد المعاد (٩) يقال ان اسمه عبد الله بن الحارث (١٠) جمع رضيع وهو الراضع (١١) أى سنة مجدبة لا خضرة فيها ولا مطر (١٢) وهى ما لونها البياض الى الخضرة يقال حمار أقمر واتان قمراء (١٣) المسنة الهرمة من النوق (١٤) تسيل قليلا قليلا

معنا من بكائه من الجوع ، مافى ثديى ما يغنيه ومافى شارفنا مايغذيه (قال ابن هشام) ويقال يغذيه ، ولكنا كنا نرجو الغيث والفرج فخرجت على أتانى تلك فلقد أدَمت[1] بالركب حتى شق ذلك عليهم ضعفا وعَجَفا[2] حتى قدمنا مكة نلتمس الرضعاء ، فما منّا امرأة الا وقد عُرِض عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم فتأباه اذا قيل لها انه يتيم ، وذلك انا انما كنا نرجو المعروف من ابى الصبى فكنا نقول يتيم وما عسى ان تصنع أمه وجدّه ، فكنا نكرهه لذلك ، فما بقيت امرأة قدمت معي الا اخذت رضيعا غيرى ، فلما اجمعنا الانطلاق قلت لصاحبى والله انى لاكره ان أرجع من بين صواحبى ولم آخذ رضيعا ، والله لأذهبن الى ذلك اليتيم فلآخذنه ، قال لا عليك ان تفعلى عسى الله ان يجعل لنا فيه بركة ، قالت فذهبت اليه فأخذته وما حملنى على أخذه الا انى لم أجد غيره ، قالت فلما أخذته رجعت به الى رحلى فلما وضعته فى حجرى [3] أقبل عليه ثدياى بما شاء من لبن فشرب حتى رَوِى وشرب معه اخوه حتى روى ، ثم ناما وما كنا ننام معه قبل ذلك ، وقام زوجى الى شارفنا تلك فاذا انها لحافل [4] فحلب منها ما شرب وشربت معه حتى انتهينا رِيا وشبعا فبتنا بخير ليلة ، قالت يقول صاحبى حين اصبحنا تعلمى والله يا حليمة ؟ لقد اخذت نسمة مباركة ، قالت فقلت والله انى لارجو ذلك ، قالت ثم خرجنا ولركبت اتانى وحملته عليها معى فوالله لقطعت بالركب ما يقدر عليها شيء من حمرهم حتى ان صواحبى ليقلن لى يا ابنة ابى ذؤيب ! ويحك اربَعى [5] علينا أليست هذه أتانك التي كنت خرجت عليها ؟ فأقول لهن بلى

---

(١) أى أطلت عليهم المسافة تمهلهم عليها مأخوذ من الشيء الدائم وفى سائر الاصول « اذمت » واذمت الركاب أعيت وتخلفت عن جماعة الابل ولم تلحق بها يريد انها تأخرت بالركب اى تأخر الركب بسببها (٢) هزالا (٣) حضن الانسان ج حجور (٤) أى ممتلئة (٥) اربعى بنا وهوّنى علينا

والله انها لهي هي ، فيقلن والله ان لها لشأنا ، قالت ثم قدمنا منازلنا من بلاد بني سعد وما اعلم ارضا من ارض الله اجدب منها فكانت غنمي تروح عليّ حين قدمنا به معنا شباعا لبّنا فنحلب ونشرب ، وما يحلب انسان قطرة لبن ولا يجدها في ضَرع حتى كان الحاضرون من قومنا يقولون لرعيانهم(١) ويلكم اسرحوا حيث يسرح راعي بنت ابي ذؤيب فتروح اغنامهم جياعا ما تبض بقطرة لبن وتروح غنمي شباعا لبّنا فلم نزل نتعرف من الله الزيادة والخير حتى مضت سنتاه وفصلتّه ، وكان يشب شبابا لا يشبّه الغلمان، فلم يبلغ سنتيه حتى كان غلاما جَفرا (٢) قالت فقدمنا به على امه ونحن احرص شيء على مكثه فينا ، لما كنا نرى من بركته ، فكلّمنا امه وقلت لها لو تركت بُنيّ عندي حتى يغلظ فاني اخشى عليه وباء مكة ، قالت فلم نزل بها حتى ردته معنا ، قالت فرجعنا به فوالله انه بعد مقدمنا به بأشهر مع أخيه لفي بَهم (٣) لنا خلف بيوتنا اذ أتانا أخوه يشتد فقال لي ولابيه ، ذاك اخي القرشي قد اخذه رجلان عليهما ثياب بيض فاضجعاه فشقا بطنه فهما يسوطانه

قالت فخرجت أنا وأبوه نحوه فوجدناه قائما منتقعا (٤) وجهه . قالت فالتزمته والتزمه ابوه ، فقلنا له مالك يابني ؟! قال جاءني رجلان عليهما ثياب بيض فاضجعاني وشقا بطني فالتمسا فيه شيئا لا ادرى ما هو . قالت فرجعنا به الى خبائنا ، قالت وقال لي ابوه يا حليمة لقد خشيت ان يكون هذا الغلام قد اصيب فألحقيه باهله قبل ان يظهر ذلك به . قالت فاحتملناه فقدمنا به على امه فقالت ما أقدمك به ياظئر ؟ وقد كنت حريصة عليه وعلى مكثه عندك . قالت فقلت قد بلغ الله بابني وقضيت الذى علي وتخوفت الأحداث عليه فأديته عليك كما تحبين . قالت ماهذا شأنك فاصدقيني خبرك . قالت فلم تدعني(٥) حتى أخبرتها قالت أفتخوفت(٦)

---

(١) جمع راعٍ (٢) غليظا شديدا (٣) الصغار من الغنم واحدتها بهمة (٤) أي متغيرا وجهه لأمر اصابه (٥) فلم تتركني (٦) أي خفت

عليه الشيطان • قالت قلت نعم قالت كلا والله ما للشيطان عليه من سبيل وان لبُنَيَّ لشأنا افلا اخبرك خبره • قالت قلت بلى • قالت رأيت حين حملت به انه خرج منى نور اضاء لى قصور بصرى من ارض الشام ثم حملت به فوالله مارأيت من حَمْل قط كان اخف علىَّ ولا أيسر منه ووقع حين ولدته وانه لواضع يديه بالارض رافع رأسه الى السماء دعيه عنك وانطلقى راشدة (١)

كيف هاجر النبي صلى الله عليه وسلم

ان عائشة (٢) زوج النبى صلى الله عليه وسلم قالت لم اعقل ابوىَّ قط الا وهما يدينان الدين ، ولم يمر علينا يوم الا يأتينا فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم طرفى النهار بكرة وعشية • فلما ابتلى المسلمون خرج ابو بكر مهاجرا نحو أرض الحبشة حتى اذا بلغَ برك (٣) الغماد لقيه ابن الدُغُنَّة ــ وهو سيد القارة (٤) ــ فقال اين تريد يا ابابكر؟ فقال ابوبكر اخرجنى قومى فأريد أن أسيح فى الأرض وأعبد ربى • قال ابن الدغُنَّة فان مثلك يا أبا بكر لا يخرُج ولا يُخرج انك تكسب المُعدم (٥) وتصل الرَّحم وتحمل الكلَّ (٦) وتقرى (٧) الضَّيف وتعين على نوائب (٨) الحق، فأنا لك جار ارجع واعبد ربك ببلدك ، فرجع وارتحل معه ابن الدُغُنَّة فطاف

---

(١) سيرة ابن هشام

(٢) حبيبة رسول الله صلى الله عليه وسلم وبنت خليفته أبى بكر الصديق رضى الله عنه من اكبر فقهاء الصحابة ، عاشت خمسا وستين وأقامت فى صحبته صلى الله عليه وسلم ثمانية أعوام وخمسة اشهر ، توفيت فى سنة ٥٧ وقيل فى سنة ٥٨ (٣) موضع على خمس ليال من مكة الى جهة اليمن (٤) قبيلة مشهورة من بنى الهون بن خزيمة (٥) الفقير (٦) الثقل وهو من الكلال الذى هو الاعياء أى تعين الضعيف المنقطع (٧) قرى كضرب قِرى وقراء الضيف اضافه (٨) جمع نائبة اى المصيبة

ابن الدغنة عشية فى اشراف قريش فقال لهم ان ابا بكر لايخرج مثله ولا يخرج ، اتخرجون رجلا يكسب المعدم ويصل الرحم ويحمل الكل ويقري الضيف ويعين على نوائب الحق ؟ فلم تكذّب(١) قريش بجوار ابن الدغنّة وقالوا لابن الدّغنّة مر ابا بكر فليعبد ربه فى داره فليصل فيها وليقرأ ما شاء ، ولا يؤذينا بذلك ولا يستعلن به فانا نخشى ان يفتن نساءنا وأبناءنا فقال ذلك ابن الدغنة لأبي بكر فلبث أبو بكر بذلك يعبد ربّه فى داره ولا يستعلن بصلاته ولا يقرأ فى غير داره

ثم بدا لأبى بكر فابتنى (٢) مسجدا بفناء داره وكان يصلى فيه ويقرأ القرآن فيتقذّف (٣) عليه نساء المشركين وأبناءهم وهم يعجبون منه وينظرون اليه . وكان أبو بكر رجلا بكّاء لايملك(٤) عينيه اذا قرء القرآن وأفزع ذلك أشراف قريش من المشركين فأرسلوا الى ابن الدّغنّة فقدم عليهم فقالوا انا كنا أجرنا أبا بكر بجوارك على أن يعبد ربه فى داره فقد جاوز ذلك فابتنى مسجدا بفناء داره فأعلن بالصلاة والقراءة فيه وانا قد خشينا أن يفتن نساءنا وأبناءنا فانهه ، فان أحب أن يقتصر على أن يعبد ربه فى داره فعل وان أبى الا أن يعلن بذلك فسله أن يرد اليك ذمتك فانا قد كرهنا أن نخفرك (٥) ولسنا مقرين لأبى بكر الاستعلان

قالت عائشة فأتى ابن الدّغنّة الى أبى بكر فقال قد علمت الذى عاقدت لك عليه فاما أن تقتصر على ذلك واما أن ترجع اليّ ذمتى ، فاني لا أحب أن تسمع العرب أنى أخفِرت فى رجل عقدت له . فقال أبو بكر فاني أرد اليك جوارك وأرضى بجوار الله

والنبى صلى الله عليه وسلم يومئذ بمكة فقال النبى صلى الله عليه

---

(١) اى فلم تستطع ان تخالف (٢) اى بنى لنفسه (٣) اى يردحمون عليه حتى يسقط بعضهم على بعض فيكاد ينكسر (٤) اى لا يستطيع امساكهما عن البكاء (٥) الاخفار هو نقض العهد

وسلم للمسلمين اني أريت دار هجرتكم ذات نخل بين لابتين (١) وهما الحرّتان فهاجر من هاجر قِبَل المدينة ورجع عامة من كان هاجر بأرض الحبشة الى المدينة وتجهّز (٢) أبو بكر قِبَل المدينة

فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم على رِسلك (٣) فاني أرجو أن يؤذن لى ، فقال أبو بكر وهل ترجو ذلك بأبى أنت ؟ قال نعم فحبس أبو بكر نفسه على رسول الله صلى الله عليه وسلم ليصحبه وعلف (٤) راحلتين كانتا عنده ورق السمر — وهو الخَبَط (٥) أربعة أشهر

قال ابن شهاب قال عروة قالت عائشة فبينما نحن يوما جلوس فى بيت أبى بكر فى نحر الظهيرة (٦) قال قائل لأبى بكر هذا رسول الله صلى الله عليه وسلم متقنعا (٧) فى ساعة لم يكن يأتينا فيها، فقال أبو بكر فداء له أبى وأمى والله ما جاء به فى هذه الساعة الا أمر ، قالت فجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم فاستأذن فأذِن له فدخل فقال النبى صلى الله عليه وسلم لأبى بكر أخرج من عندك ، فقال أبو بكر انما هم أهلك بأبى أنت يارسول الله قال فانى قد أُذن لى فى الخروج ، فقال أبو بكر الصحابةَ (٨) بأبى أنت يارسول الله ! قال رسول صلى الله عليه وسلم نعم ! قال أبو بكر فخذ بأبى أنت يارسول الله احدى راحلتيَّ هاتين قال رسول الله صلى الله عليه وسلم بالثَّمن ،

قالت عائشة فجهزنا أحث (٩) الجهاز وضعنا لهما سفرة (١٠) فى جِراب (١١)

---

(١) أى حرَّتين والحرة هى أرض ذات حجارة سود (٢) تجهز للسفر اتخذ لوازمه وتجهز للأمر تهيأ (٣) الرِسل والرسلة التمهل والتؤدة والرفق يقال على رسلك يارجل أى على مهلك وتأنَّ (٤) علف الدابة اطعمها (٥) ما يخبط بالعصا فيسقط من ورق الشجر (٦) حد انتصاف النهار ج ظهائر ونحر الظهيرة أول الزوال (٧) المغطى راسه (٨) اى اريد المصاحبة واطلبها (٩) اى أسرعه (١٠) طعام المسافر (١١) بالكسر وعاء من جلد ج اجرِبة وجُرُب وجُرْب

فقطعت أسماء بنت أبي بكر قطعة من نطاقها (١) فربطت به على فم الجراب فبذلك سميت ذات النطاق ، قالت ثم لحق رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر بغار في جبل ثور فكمنا فيه ثلاث ليال يبيت عندهما عبد الله بن أبي بكر وهو غلام شاب ثقف (٢) لقن (٣) فيدلج (٤) من عندهما بسحر فيصبح مع قريش بمكة كبائت (٥) فلا يسمع أمرا يكتادان (٦) به الا وعاه (٧) حتى يأتيهما بخبر ذلك حين يختلط الظلام فيرعى عليهما عامر بن فهيرة مولى أبي بكر منحة (٨) من غنم فيريحها عليهما حين تذهب ساعة من العشاء فيبيتان في رسل (٩) وهو لبن منحتهما ورضيفهما (١٠) حتى ينعق (١١) بها عامر بن فهيرة بغلس (١٢) يفعل ذلك في كل ليلة من تلك الليالي الثلاث

واستأجر رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر رجلا من بني الدئل — وهو من بني عبد بن عدي — هاديا خريتاً (١٣) — والخريت الماهر بالهداية — قد غمس (١٤) حلفا في آل العاص بن وائل السهمي وهو على دين كفار قريش فأمناه فدفعا اليه راحلتيهما وواعداه غار ثور بعد

---

(١) شقة تلبسها المراة وتشد وسطها فترسل الأعلى على الأسفل والأسفل ينجر على الأرض ج نطق (٢) الحاذق الفطن (٣) السريع الفهم (٤) أدلج الرجل اذا سار الليل في أوله وقيل في كله وادلج بالتشديد اذا سار في آخره (٥) كمن بات بمكة يظهر ذلك للكفار (٦) اكتاده اكتيادا احتال عليه ومكر به (٧) وعى كضرب وعيا الحديث اي تدبره وحفظه (٨) شاة تحلب أناء بالغداة وأناء بالعشي (٩) اللبن الطرى (١٠) الرضيف والرضيفة اللبن الذي يغلى بالرضفة أي الذي طرحت فيه الحجارة المحماة (١١) نعق كفتح نعقا ونعيقا ونعاقا ونعقانا الراعي بغنمه صاح بها وزجرها (١٢) ظلمة آخر الليل ج اغلاس (١٣) الدليل الحاذق الذي يهتدي الى اخرات المفاوز وهي مضايقها وطرقها الخفية ج خراريت وخرارات (١٤) غمس كضرب غمساً ادخل ، يريد انه كان حليفا لهم واخذ بنصيب من عقدهم وكانوا اذا تحالفوا غمسوا ايمانهم في دم او خلوق او نحوهما من شيء فيه تلوين فيكون ذلك تاكيداً للحلف

ثلاث ليال براحلتيهما صبح ثلاث وانطلق معهما عامر بن فهَيرة والدليل فأخذ بهم على طريق السواحل •

قال ابن شهاب وأخبرني عبد الرحمن بن مالك المدلجي وهو ابن أخي سُراقة بن مالك بن جُعشُم أن أباه أخبره أنه سمع سراقة بن جعشم يقول جاءنا رسل كفار قريش يجعلون في رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبي بكر دية كل واحد منهما لمن قتله أو أسره ، فبينما أنا جالس في مجلس من مجالس قومي بني مدلج أقبل رجل منهم حتى قام علينا ونحن جلوس فقال ياسراقة اني قد رأيت آنفا (١) أسودة (٢) بالساحل أُراها محمدا أو أصحابه قال سراقة فعرفت أنهم هم فقلت له أنهم ليسوا بهم ، ولكنك رأيت فلانا وفلانا انطلقوا بأعيننا (٣) ثم لبثت في المجلس ساعة ثم قمت فدخلت فأمرت جاريتي أن تخرج بفرسي وهي من وراء أكمة (٤) فتحبسها عليّ وأخذت رمحي فخرجت به من ظهر البيت فخططت بزُجّه (٥) الارض وخفضت عاليه حتى أتيت فرسي فركبتها فرفعتها تقرّب (٦) بي حتى دنوت منهم فعثرت بي فرسي فخررت عنها فقمت فأهويت (٧) يدي الى كنانتي (٨) فاستخرجت منها الأزلام (٩) فاستقسمت بها أضرُّهم أم لا ؟ فخرج الذي أكره فركبت فرسي وعصيت الأزلام تقرّب بي حتى اذا سمعت قراءة رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو لا يلتفت وأبو بكر يكثر الالتفات ساخت (١٠) يدا فرسي في الأرض حتى بلغت الركبتين فخررت عنها ثم زجرتها فنهضت فلم تكد تخرج يديها فلما استوت قائمة اذا لأثر يديها غبار ساطع (١١) في السماء مثل الدخان ، فاستقسمت

(١) أي من وقت قريب (٢) جمع سواد أي الشخص جج اساود (٣) اي في نظرنا معاينة (٤) قطعة أرفع قليلا مما حولها ج أكَم وأكمات جج آكام وأُكُم واكام (٥) الحديد في أسفل الرمح (٦) التقريب سير دون العدو (٧) اي مددت يدي (٨) جعبة من جلد أو خشب تجعل فيها السهام ج كنائن وكنانات (٩) جمع زلم سهم لا ريش عليه وكان العرب في الجاهلية يستقسمون بها (١٠) ساخ يسوخ سوخا في الطين غاص فيه وغاب (١١) سطع كفتح سطعة وسطوعا وسطيعا الغبار أو الرائحة او النور ارتفع وانتشر

بالأزلام فخرج الذى أكره فناديتهم بالأمان فوقفوا فركبت فرسى حتى جئتهم ووقع فى نفسى — حين لقيت مالقيت من الحبس عنهم — أن سيظهر أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت له ان قومك قد جعلوا فيك الدية واخبرتهم أخبار ما يريد الناس بهم وعرضت عليهم الزاد والمتاع فلم يرزآنى (١) ولم يسألانى الا ان قال أخف عنا فسألته أن يكتب لى كتاب أمن فأمر عامر بن فُهَيْرة فكتب لى فى رقعة من أدَم (٢) ثم مضى رسول الله صلى الله عليه وسلم ٠

قال ابن شهاب فأخبرنى عروة بن الزبير ان رسول الله صلى الله عليه وسلم لقى الزبير فى ركب من المسلمين كانوا تجّارا قافلين (٣) من الشام ، فكسا (٤) الزبير رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبا بكر ثياب بياض وسمع المسلمون بالمدينة بمخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم من مكة فكانوا يغدون كل غداة الى الحرّة (٥) فينتظرونه حتى يردهم حر الظهيرة فانقلبوا يوما بعدما أطالوا انتظارهم فلما آووا الى بيوتهم أوفى (٦) رجل من يهود على أُطم (٧) من آطامهم لأمر ينظر اليه فبصر برسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه مبيّضين (٨) يزول بهم السراب (٩) فلم يملك اليهودى أن قال بأعلى صوته يا معاشر العرب ! هذا جَدّكم (١٠) الذى تنتظرون ، فثار المسلمون الى السلاح فتلقّوا رسول الله صلى الله عليه وسلم بظهر الحرة فعدل بهم ذات اليمين حتى نزل بهم فى بنى عمرو (١١) بن عوف وذلك يوم

---

(١) رزأ كفتح رَزْأ ورُزْءا ومرزئة الرجل ماله أصاب منه شيئا مهما كان اى نقصه (٢) جمع أديم وهو الجلد المدبوغ ج أدَم وادم وآدِمة وآدام (٣) قفل كضرب ونصر قفلا قفولا رجع من السفر خاصة والقافلة الرفقة الراجعة من السفر او المبتدئة به تفاؤلا بالرجوع ج قوافل (٤) كسا يكسو كَسْوًا الثوب فلانا ألبسه (٥) أرض ذات حجارة سود (٦) أشرف وطلع (٧) القصر وكل حصن مبنى بحجارة ج آطام (٨) اللابسين ثيابا بيضا (٩) أى يزول السراب عن النظر بسبب عروضهم له وقيل أى ظهر حركتهم فيه للعين (١٠) حظكم وصاحب دولتكم (١١) اى بقباء وكان نزوله صلى الله عليه وسلم على كلثوم بن الهدم

الاثنين من شهر ربيع الأول فقام أبو بكر للناس وجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم صامتا فطفق من جاء من الأنصار ممن لم ير رسول الله صلى الله عليه وسلم يجيء أبا بكر حتى أصابت الشمس رسول الله صلى الله عليه وسلم فأقبل أبو بكر حتى ظلّل عليه بردائه فعرف الناس رسول الله صلى الله عليه وسلم عند ذلك فلبث رسول الله صلى الله عليه وسلم في بني عمرو بن عوف بضع(١) عشرة ليلة وأسّس(٢) المسجد الذى أسّس على التقوى وصلى فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم • ثم ركب راحلته فسار يمشي معه الناس حتى بركت (٣) عند مسجد الرسول صلى الله عليه وسلم بالمدينة وهو يصلى فيه يومئذ رجال من المسلمين وكان مِربَدا (٤) للتمر لسُهيل وسَهل غلامين يتيمين في حِجر أسعد بن زُرارة فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم حين بركت به راحلته هذا ــ ان شاء الله ــ المنزل •

ثم دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم الغلامين فساومهما (٥) بالمربد ليتخذه مسجدا فقالا بل نهبه لك يارسول الله فأبى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يقبله منهما هبة حتى ابتاعه منهما ثم بناه مسجدا وطفق رسول الله صلى الله عليه وسلم ينقل معهم اللَّبِن (٦) في بنيانه ويقول ــ وهو ينقل اللَّبِن ــ هذا الحمال (٧) لا حمال خيبر • هذا ابر ربنا وأطهر ، ويقول

---

(١) بالكسر والفتح مابين الثلاث الى التسع يقال بضع سنين وبضع عشرة من النساء وبضع وعشرون امراة ومع المذكر بضعة عشر من الرجال وبضعة وعشرون رجلا ويجب تقديم بضع فلا يقال عشرون وبضع (٢) جعل أساسا (٣) برك كنصر بروكا وتبراكا البعير استنناخ وهو ان يلصق صدره بالارض (٤) الموضع الذى يجفف فيه التمر (٥) ساوم سواما ومساومة بالسلعة غالى بها اى عرضها بثمن دفع المشترى اقل منه وهكذا الى ان يتفقا على الثمن (٦) جمع لبنة اى المضروب من الطين مربعا للبناء (٧) الحمال والحمل بمعنى أى ليس كحمل خيبر من التمر والثمر وربنا بالنصب منادى

اللهم ان الأجر أجر الآخرة • فارحم الأنصار والمهاجرة — فتمثل (١) بشعر رجل من المسلمين لم يُسَمَّ لى

قال ابن شهاب ولم يبلغنا فى الأحاديث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم تمثل ببيت شعر تام غير هذه الأبيات (٢)

---

(١) اى انشد بيتا (٢) الجامع الصحيح للبخارى الجزء الاول باب هجرة النبى صلى الله عليه وسلم واصحابه الى المدينة المنورة

حديث الافك

قالت عائشة : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا أراد سفراً أقرع (١) بين أزواجه وأيتهن خرج سهمها خرج بها رسول الله صلى الله عليه وسلم معه • قالت عائشة : فأقرع بيننا فى غزوة غزاها فخرج فيها سهمى فخرجت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بعدما أُنزل الحجاب • فكنت أُحمل فى هودج وأنزل فيه ، فسرنا حتى اذا فرغ رسول الله صلى الله عليه وسلم من غزوته تلك وقفل دنونا من المدينة قافلين ، آذن ليلة بالرحيل فقمت حين آذنوا بالرحيل فمشيت حتى جاوزت الجيش فلما قضيت شأنى أقبلت الى رحلى فلمست صدرى فاذا عِقد لى من جَزع (٢) ظِفار.(٣) قد انقطع فرجعت فالتمست عقدي فحبسني ابتغاؤه

قالت : وأقبل الرهط الذين يرحّلون بى فاحتملوا هودجي فرحّلوه على بعيري الذى كنت أركب عليه وهم يحسبون انى فيه وكان النساء اذ ذاك خِفافا لم يهبّلن (٤) ولم يغشهن اللحم ، انما يأكلن العُلقة(٥) من الطعام، فلم يستنكر القوم خفة الهودج حين رفعوه وحملوه وكنت جارية حديثة السن فبعثوا الجمل فساروا

ووجدت عقدى بعدما استمر الجيش فجئت منازلهم وليس بها منهم داع ولا مجيب (٦) • فتيممت منزلى الذى كنت به وظننت انهم سيفقدونى فيرجعون الىّ • فبينا أنا جالسة فى منزلى غلبتنى عينى فنمت • وكان صفوان بن المعطّل السُلَمى ثم الذكوانى من وراء الجيش فأصبح عند منزلى • فرأى سواد انسان نائم فعرفنى حين رآنى وكان رآنى قبل

---

(١) ضرب القرعة (٢) بالفتح خرز فيه سواد وبياض واحدته جزعة (٣) مدينة باليمن (٤) لم يثقلن بكثرة اللحم والشحم (٥) القليل من الشىء ج عُلَق (٦) اى ليس بها أحد

الحجاب، فاستيقظت باسترجاعه(1) حين عرفني، فخمّرت(2) وجهي بجلباب(3) ووالله ما تكلمنا بكلمة ولا سمعت منه كلمة غير استرجاعه وهوى حتى أناخ (4) راحلته فوطىء على يدها فقمت اليها فركبتها فانطلق يقود بى الراحلة حتى أتينا الجيش موغرين (5) فى نحر الظهيرة وهم نزول •

قالت فهلك من هلك وكان الذى تولى كِبر الافك عبد الله بن أُبَىّ بن سلول • قال عروة أخبرت انه كان يشاع ويتحدث به عنده فيقرّه ويستمعه ويستوشيه (6) • وقال عروة أيضا لم يسم من أهل الافك أيضا الا حسان بن ثابت ومِسطَح بن أُثاثة وحَمنة بنت جَحش فى ناس آخرين لا علم لى بهم غير أنهم عصبة كما قال الله تعالى وان كُبر ذلك يقال له عبدُ الله بن أُبىٍّ بن سَلول • قال عروة كانت عائشة تكره ان يُسَبُّ عندها حسّان وتقول أنه الذى قال : ـــ

فانَّ أبى ووالده وعِرضى ، لعِرض محمد منكم وِقاء (7)

قالت عائشة فقدمنا المدينة ، فاشتكيت (8) حين قدمت شهرا والناس يُفيضون(9) فى أصحاب الأفك لا اشعر بشىء من ذلك وهو يريبنى (10) فى وجعى انى لا أعرف من رسول الله صلى الله عليه وسلم اللطف الذى كنت أرى منه حين أشتكى انما يدخل علىّ رسول الله صلى الله عليه وسلم فيسلّم ثم يقول كيف تيكم ؟ ثم ينصرف • فذلك الذى يريبنى ولا اشعر بالشر حتى خرجت حين نقَهت(11) فخرجت معى أم مِسطَح قِبَل المناصع (12) وكان متبرزنا وكنا لانخرج الا ليلا الى ليل وذلك قبل

---

(1) بقوله انا لله وانا اليه راجعون (2) سترت (3) القميص أو الثوب الواسع ج جلابيب (4) ابرك (5) اى داخلين (6) يستخرجه بالبحث (7) بالكسر والفتح ما وقيت به الشىء (8) مرضت (9) أى اندفعوا فيه وأسرعوا (10) اى يوقعنى فى الريب

(11) نقه كفتح نقوها وكفرح نقَهًا فلان من مرضه صحّ وفيه ضعف فهو ناقه ج نقَه (12) المواضع يتخلى فيها للبول أو قضاء الحاجة والواحد منصع

ان تتخذ الكنف (١) قريبا من بيوتنا وأمرنا أمر العرب الأول فى البرية قبل الغائط وكنا نتأذى بالكنف أن نتخذها عند بيوتنا

قالت فانطلقت أنا وأم مسطح وهى ابنة أبى رهم بن المطلب بن عبد مناف وأمها بنت صخر بن عامر خالة أبى بكر الصديق وابنها مسطح بن أثاثة بن عباد بن المطلب . فأقبلت أنا وأم مسطح قِبَل بيتى حين فرغنا من شأننا فعثرت أم مسطح فى مِرطها (٢) فقالت تعس (٣) مسطح فقلت لها بئس ما قلت.أتسبين رجلا شهد بدرا ؟ فقالت أى هنتاه (٤) أولم تسمعى ما قال ؟ قالت وقلت ما قال ؟ فأخبرتنى بقول أهل الافك ، فازددت مرضا على مرضى ، فلما رجعت الى بيتى دخل عليَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم قال كيف تيكم ؟ فقلت له أتأذن لى أن آتى أبوىَّ ؟ قالت وأريد أن أستيقن الخبر من قِبَلهما قالت فأذن لى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت لأمى يا امتاه ! ماذا يتحدث الناس ؟ قالت يابنية ! هوِّنى عليك فوالله لقلَّ ما كانت امرأة قط وضيئة (٥) عند رجل يحبها لها ضرائر (٦) الا كثرن عليها قالت فقلت سبحان الله أولقد تحدث الناس بهذا؟

قالت فبكيت تلك الليلة حتى أصبحت لا يرقأ (٧) لى دمع ولا أكتحل بنوم ثم أصبحت أبكى . قالت ودعا رسول الله صلى الله عليه وسلم عليَّ ابن أبى طالب وأسامة بن زيد حين استلبث (٨) الوحى ليسألهما وليستشيرهما فى فراق أهله قالت فأما أسامة فأشار على رسول الله صلى الله عليه وسلم بالذى يعلم من براءة أهله وبالذى يعلم لهم فى نفسه . فقال أسامة اهلك

---

(١) بضم الاول وسكون الثانى وبضمتين جمع كنيف وهو المستراح
(٢) كل ثوب غير مخيط ، كساء من صوف أو نحوه يؤتزر به ج مروط
(٣) تعس كفتح وفرح تَعْسا وتَعَسا هلك (٤) اي يا بلهاء كأنها نسبتها الى قلة معرفة بمكائد الناس وشرورهم (٥) الحسنة الحظيَّة (٦) جمع ضرَّة اى امراة الزوج (٧) رقا كفتح رَقْأ ورقوءا الدمع أو الدم جف وانقطع (٨) استبطأ

ولا نعلم الا خيرا . وأمّا عليّ فقال يارسولَ الله ! لم يضيّق الله عليك والنساء سواها كثير وسل الجارية تصدقك . قالت فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم بَرِيرة فقال أي بريرة ! هل رأيت من شيء يريبك ؟ قالت له بريرة والذى بعثك بالحق مارأيت عليها أمرا قط اغمصه (١) غير انها جارية حديثة السن تنام عن عجين (٢) أهلها فتأتي الداجن (٣) فتأكله . قالت فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم من يومه فاستعذر (٤) من عبد الله بن اُبيّ وهو على المنبر فقال يامعشر المسلمين من يَعذُرنى من رجل قد بلغنى عنه أذاه فى أهلى ؟ والله ما علمت على أهلى الا خيرا ، ولقد ذكروا رجلا ما علمت عليه الا خيرا ، وما يدخل على أهلى الا معى . قالت فقام سعد أخو بني عبدالأشهل فقال أنا يارسول الله ! اعذرك فان كان من الأوس ضربت عنقه وان كان من اخواننا من الخزرَج أمرتنا ففعلنا أمرك . قالت وقام رجل من الخزرج وكانت أم حسان بنت عمه من فَخِذه وهو سعد ابن عُبادة وهو سيّد الخزرج قالت وكان قبل ذلك رجلا صالحا ولكن احتملته الحمية فقال لسعد كذبت لَعَمرُ الله (٥) لاتقتله ولاتقدر على قتله ، ولو كان من رهطك ما أحببت أن يقتل . فقام اُسيد بن حضير وهو ابن عم سعد فقال لسعد بن عبادة كذبت لَعَمرُ الله لنقتلنه فانك منافق تجادل عن المنافقين . قالت فثار الحيان الأوس والخزرج حتى همّوا أن يقتتلوا ورسول الله صلى الله عليه وسلم قائم على المنبر

قالت فلم يزل رسول الله صلى الله عليه وسلم يخفضهم حتى سكتوا وسكت . قالت فبكيت يومى ذلك كله لا يرقأ لى دمع ولا أكتحل بنوم . قالت وأصبح أبواى عندى وقد بكيت ليلتين ويوماً لا أكتحل بنوم ولا

---

(١) اطعن به عليها (٢) الدقيق المعجون بالماء ج عُجُن (٣) دجن الحمام وغيره ألف البيوت واستأنس فهو داجن والمراد هنا الشاة (٤) اى قال من يقوم بعذرى ان كافأته على قبح أفعاله ولا يلمنى وقيل معناه من ينصرنى (٥) العَمر الحياة وفى القسم يقال لعَمرى ، ولعمر الله يعنى والله

يرقأ لي دمع حتى انى لأظن أن البكاء فالق (١) كبدى • فبينا أبواى جالسان عندى وأنا أبكى فاستأذنت علىّ امرأة من الأنصار فأذنت لها فجلست تبكى معى •

قالت فبينا نحن على ذلك دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم علينا فسلّم ثم جلس قالت ولم يجلس عندى منذ قيل ما قيل قبلها • وقد لبث شهرا لايوحى اليه فى شأنى بشىء قالت فتشهّد رسول الله صلى الله عليه وسلم حين جلس ثم قال : ــ

أما بعد : ــ يا عائشة ! انه بلغنى عنك كذا وكذا فان كنت بريئة فسيبرئك الله وان كنت ألممت (٢) بذنب فاستغفرى الله وتوبى اليه فان العبد اذا اعترف ثم تاب ، تاب الله عليه

قالت فلما قضى رسول الله صلى الله عليه وسلم مقالته قلص (٣) دمعى حتى ما أحس منه قطرة ، فقلت لأبى أجب رسول الله صلى الله عليه وسلم عنى فيما قال • فقال أبى والله ما أدرى ما أقول لرسول الله صلى الله عليه وسلم • فقلت لأمى أجيبى رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما قال • قالت أمى والله ما أدرى ما أقول لرسول الله صلى الله عليه وسلم •

فقلت أنا جارية حديثة السن لا أقرأ من القرآن كثيرا ، انى والله لقد علمت لقد سمعتم هذا الحديث حتى استقرّ فى أنفسكم وصدقتم به فلئن قلت لكم انى بريئة لا تصدقونى وان اعترفت لكم بأمر ــ والله يعلم انى منه بريئة ــ لتصدّقُنّى • فوالله لا اجد لى ولكم مثلا الا أبا يوسف حين قال : فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللهُ المُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ • ثم تحوّلت واضطجعت على فراشى

---

(١) فلق كضرب فلقا الشىء اى شقه (٢) ألمّ باشر اللمم اى صغار الذنوب (٣) اى كف وانقطع

والله يعلم انى حينئذ بريئة وأن الله مبرئى ببراءتى ولكن والله ماكنت أظن أن الله منزل فى شأنى وحياً يتلى ، لشأنى فى نفسى كان أحقر من أن يتكلم الله فىّ بأمر ولكن كنت أرجو أن يرى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى النّوم رؤيا يبرّئنى الله بها

فوالله ما رام (١) رسول الله صلى الله عليه وسلم مجلسه ولا خرج أحد من أهل البيت حتى أنزل عليه . فأخذه ماكان يأخذه من البُرَحاء(٢)حتى أنه ليتحدّر (٣) منه من العَرق مثل الجمان (٤) وهو فى يوم شات من ثقل القول الذى أنزل عليه

قالت فسُرى(٥)عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يضحك فكانت أول كلمة تكلم بها أن قال يا عائشة ! أمّا الله فقد برّأك . قالت فقالت لى أمّى قومى اليه فقلت والله لا أقوم اليه فانى لا أحمد الا الله

قالت وأنزل الله تعالى إن الّذِينَ جَاءُوا بِالإِفك (٦) العشر الآيات ثم انزل الله هذا فى براءتى

قال ابو بكر الصديق ــ وكان ينفق على مِسطَح بن أثاثة لقرابته منه وفقره ــ والله لا أنفق على مِسطَح شيئا أبدا بعد الذى قال لعائشة ماقال فأنزل الله وَلاَ يَأتَلِ (٧) أُولُوا الفَضلِ مِنكُم الى قوله غَفُور رَحِيم

قال أبو بكر الصديق بلى والله انى لأُحب أن يغفر الله لى فرجع الى مسطح النفقة التى كان ينفق عليه . وقال والله لا أنزعها منه أبدا . قالت عائشة وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم سأل زينب بنت جحش عن

---

(١) رام يريم ريما المكان ومنه زال عنه وفارقه (٢) الشدة (٣) لينزل (٤) اللؤلؤ والواحد جمانة (٥) زال وانكشف

(٦) الكذب (٧) لا يحلف افتعال من الاليّه او لا يقصر من الألو

أمرى فقال لزينب ماذا علمت أو رأيت فقالت يارسول الله أحمى(1) سمعى وبصرى والله ما علمت الا خيرا.

قالت عائشة وهى التى تسامينى (2) من أزواج النبى صلى الله عليه وسلم فعصمها (3) الله بالورع (4) قالت وطفقت اختها حمنة تحارب لها فهلكت فيمن هلك (5)

ابتلاء كعب بن مالك رضى الله عنه

قال كعب لم أتخلف (7) عن رسول لله صلى الله عليه وسلم فى غزوة غزاها الا فى غزوة تبوك غير انى كنت تخلفت فى غزوة بدر ولم يعاتَب أحد تخلّف عنها انما خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم يريد عِير قريش حتى جمع الله بينهم وبين عدوهم على غير ميعاد ، ولقد شهدت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة العقبة حين تواثقنا (8) على الاسلام وما أحب أن لى بها مشهد بدر وان كانت بدر أذكر فى الناس منها ،

كان من خَبَرى أنى لم أكن قط أقوى ولا أيسر (9) حين تخلّفت عنه فى تلك الغزاة والله ما اجتمعت عندى قبله راحلتان قط حتى جمعتهما فى تلك الغزاة ولم يكن رسول الله صلى الله عليه وسلم يريد غزوة الا ورّى(10) بغيرها حتى كانت تلك الغزوة غزاها رسول الله صلى الله عليه وسلم فى

---

(1) اى أصون سمعى من ان اقول سمعت ولم اسمع وبصرى من ان اقول رأيت ولم أنظر يقال عند مقالة يستعظمها الانسان وينكرها (2) اى تضاهينى وتفاخرنى بحالها ومكانها عند النبى صلى الله عليه وسلم (3) عصم كضرب عصما الله فلانا من المكروه اى حفظه ووقاه (4) التقوى (5) صحيح البخارى الجزء الثانى كتاب المغازى (6) كعب بن مالك الانصارى الخزرجى من بنى سلمة صاحب النبى صلى الله عليه وسلم واحد شعرائه ، شهد المشاهد كلها الا بدرا وتبوكا توفى سنة خمسين من الهجرة (7) لم اتأخر (8) تعاقدنا وتعاهدنا (9) ذو غِنىً (10) اراده واظهر غيره

حر شديد واستقبل سفراً بعيداً ومفازاً (١) وعدواً كثيراً فجلّى (٢) للمسلمين أمرهم ليتأهبوا أهبة (٣) غزوهم فأخبرهم بوجهه الذى يريد ، والمسلمون مع رسول الله صلى الله عليه وسلم كثير ولا يجمعهم كتاب حافظ يريد الديوان قال كعب فما رجل يريد أن يتغيّب الا ظن أنه سيخفى له ما لم ينزل فيه وحى الله ، وغزا رسول الله صلى الله عليه وسلم تلك الغزوة حين طابت الثمار والظلال . وتجهّز رسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمون معه فطفقت أغدو لكى أتجهّز معهم فأرجع ولم أقض شيئا فأقول فى نفسى وأنا قادر عليه فلم يزل يتمادى (٤) بى حتى اشتد بالناس الجد فأصبح رسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمون معه ولم أقض من جهازى شيئا فقلت أتجهز بعده بيوم أو يومين ثم ألحقهم . فغدوت بعد أن فصلوا لأتجهّز فرجعت ولم أقض شيئا . ثم غدوت فرجعت ولم أقض شيئا فلم يزل بى حتى أسرعوا وتفارط (٥) الغزو وهممت أن أرتحل فأدركهم وليتنى فعلت فلم يقدّر لى ذلك فكنت اذا خرجت فى الناس بعد خروج رسول الله صلى الله عليه وسلم فطفت فيهم أحزننى أنى لا أرى الا رجلا مغموصا (٦) عليه النفاق أو رجلا ممن عذر الله من الضعفاء

ولم يذكرنى رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى بلغ تبوكا فقال — وهو جالس فى القوم بتبوك — ما فعل كعب ؟ فقال رجل من بنى سَلِمة يارسول الله ! حبسه برداه ونظره فى عطفيه (٧) فقال مُعاذ بن جَبَل بئس ما قلت والله — يارسول الله — ما علمنا عليه الا خيرا فسكت رسول الله صلى الله عليه وسلم

---

(١) بالفتح فلاة لاماء فيها (٢) كشف وأوضح (٣) العُدّة والجهاز وتأهب اهبته اى أخذ عدته وتجهز (٤) يستمر (٥) تفارط الشيء تأخر وقته يقال تفارطت الصلاة عن وقتها اذا تأخرت عنه (٦) رجل مغموص عليه اى مطعون عليه فى حسبه ودينه بابه ضرب وسمع (٧) عطفا الرجل جانباه ج اعطاف وعِطاف وعُطوف

قال كعب بن مالك فلما بلغني انه توجه قافلا حضرني همى وطفقت أتذكر الكذب وأقول بماذا أخرج من سَخَطه(١) غدا ؟ واستعنت على ذلك بكل ذى رأى من أهلى

فلما قيل ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أظلّ قادما زاح(٢) عنى الباطل وعرفت انى لن أخرج منه أبدا بشيء فيه كذب فأجمعت(٣) صدقه واصبح رسول الله صلى الله عليه وسلم قادما وكان اذا قدم من سفر بدأ بالمسجد فيركع فيه ركعتين ثم جلس للناس فلما فعل ذلك جاءه المخلّفون فطفقوا يعتذرون اليه ويحلفون له وكانوا بضعة وثمانين رجلا فقبل منهم رسول الله صلى الله عليه وسلم علانيتهم وبايعهم واستغفر لهم ووكل سرائرهم (٤) الى الله فجئته فلما سلمت عليه تبسم تبسم المُغضَب ثم قال تعال فجئت أمشى حتى جلست بين يديه فقال لى ما خلّفك ؟ ألم تكن قد ابتعت ظهرك ؟ فقلت بلى انى — والله — لو جلست عند غيرك من أهل الدنيا لرأيت أن سأخرج من سخطه بعذر ولقد أُعطِيت جدلا ولكنى والله لقد علمت لئن حدثتك اليوم حديث كذب ترضى به عنى ليوشكن الله أن يسخطك عَلَىَّ ولئن حدثتك حديث صدق تجد(٥) عَلَىَّ فيه انى لأرجو فيه عفو الله

لا والله ما كان لى من عذر والله ما كنت قط أقوى ولا أيسر منى حين تخلّفت عنك ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أما هذا فقد صدق فقم حتى يقضى الله فيك فقمت وسار رجال من بنى سَلِمة فاتبعونى فقالوا لى والله ماعلمناك كنت أذنبت ذنباً قبل هذا ولقد عجزت ان لا تكون اعتذرت الى رسول الله صلى الله عليه وسلم بما اعتذر اليه المخلّفون قد كان

---

(١) ضد الرضى وقيل انه لا يكون الا من الكبراء والعظماء وبابه سمع (٢) زال (٣) اى عزمت أن أصدق له (٤) جمع سريرة السر الذى يكتم ، ما يسره الانسان من امره ، النية (٥) اى تغضب علىَّ

كافيك ذنبك استغفار رسول الله صلى الله عليـــه وسلم لك . فوالله ما زالوا يؤنبونى (١) حتى أردت أن أرجع فأكذّب نفسى ثم قلت لهم هل لقى هذا معى أحد قالوا نعم رجلان قالا مثل ما قلت فقيل لهما مثل ما قيل لك فقلت من هما ؟ قالوا مرارة بن الربيع العَمروى وهلال بن أمية الواقفى . فذكروا لى رجلين صالحين قد شهدا بدرا فيهما أسوة (٢) ، فمضيت حين ذكروهما لى ، ونهى رسول الله صلى الله عليه وسلم المسلمين عن كلامنا أيها الثلثة (٣) من بين من تخلف عنه فاجتنبنا الناس وتغيروا لنا حتى تنكرت فى نفسى الأرض فما هى التي أعرف ، فلبثنا على ذلـــك خمسين ليلة فأما صاحباى فاستكانا (٤) وقعدا فى بيوتهما يبكيان وأما أنا فكنت أشب القوم واجلدهم (٥) فكنت أخرج فأشهد الصلاة مع المسلمين وأطوف فى الأسواق ولا يكلمنى أحد وآتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأسلّم عليه وهو فى مجلسه بعد الصلاة فأقول فى نفسى هل حرك شفتيه برد السلام علىّ أم لا ؟ ثم أصلى قريبا منه فأسارقه (٦) النظر فاذا أقبلت على صلاتى أقبل الىّ واذا التفت نحوه أعرض عنى حتى اذا طال علىّ ذلك من جفوة الناس مشيت حتى تسوّرت (٧) جدار حائط أبى قتادة وهو ابن عمى وأحب الناس الىّ فسلّمت عليه فوالله مارد علىّ السلام فقلت يا أبا قتادة ! انشدك (٨) بالله هل تعلمنى أحب الله ورسوله؟ فسكت فعدت له فنشدته فسكت فعدت له فنشدته فقال : ـــ الله ورسوله اعلم . ففاضت عيناى وتوليت حتى تسورت الجدار ، قال فبينا أنا أمشى بسوق المدينة اذا نَبَطِى من أنباط أهل الشام ممن قدم بالطعام يبيعه بالمدينة

---

(١) أى يلومونني أشد اللوم (٢) القدوة (٣) بالرفع بمعنى الاختصاص اى متخصصين من بين سائر الناس (٤) استكان استكانة اى خضع وذل (٥) جلُد ككرم جَلَدا أو جلادة وجلودة ومجلودا كان ذا قوة وصبر وصلابة (٦) نظر كلواحد منهما الى الآخر اختلاسا بحيث لا يشعر غيرهما بذلك (٧) تسوُر الحائط وعليه صعد عليه (٨) نشده كنصر وضرب نَشْدا أو نِشدانا ونِشدةً الله وبالله استحلفه اى سأله واقسم عليه بالله

يقول : — من يدل على كعب بن مالك ؟ فطفق الناس يشيرون له حتى اذا جاءني دفع اليّ كتابا من ملك غسّان (١) فاذا فيه :

أما بعد فانه قد بلغني أن صاحبك قد جفاك ولم يجعلك الله بدار هوان ولا مَضيعَة فالحق بنا نواسك (٢)

فقلت لما قرأتها وهذا أيضا من البلاء فتيممت (٣) بها التنّور (٤) فسجرته (٥) بها، حتى اذا مضت اربعون ليلة من الخمسين اذا رسول رسول الله صلى الله عليه وسلم يأتيني فقال ان رسول الله صلى الله عليه وسلم يأمرك أن تعتزل امرأتك ، فقلت أطلقها أم ماذا أفعل ؟ قال لا بل اعتزلها ولا تقربها، وأرسل الى صاحبي مثل ذلك فقلت لامرأتي الحقي بأهلك فتكوني عندهم حتى يقضي الله في هذا الامر • قال كعب فجاءت امرأة هلال بن أمية رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت يارسول الله ان هلال بن أمية شيخ ضائع ليس له خادم فهل تكره أن أخدمه قال لا ولكن لا يقربك قالت انه — والله — ما به حَرَكَة الى شيء والله ما زال يبكي منذ كان من أمره ما كان الى يومه هذا • فقال لي بعض أهلي لو استأذنت رسول الله صلى الله عليه وسلم في امرأتك كما أذن لامرأة هلال بن أمية أن تخدمه فقلت والله لا استأذن فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم وما يدريني ما يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا استأذنته فيها وانا رجل شاب

فلبثت بعد ذلك عشر ليال حتى كملت لنا خمسون ليلة من حين نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن كلامنا فلما صليت صلاة الفجر صبح خمسين ليلة وانا على ظهر بيت من بيوتنا فبينا أنا جالس على الحال التي

---

(١) اسم ماء نزل عليه قوم من الأزد فنسبوا اليه ومنهم بنو جفنة
(٢) المواساة لغة في آساه مؤاساة اي عاونه (٣) قصدت (٤) انث الضمير على ارادة الصحيفة (٥) سجر كنصر سجر التنور اى ملأه وقودا وأحماه

ذكر الله قد ضاقت عليّ نفسي وضاقت عليّ الارض بما رحبت سمعت صوت صارخ أوفى (١) على جبل سلع بأعلى صوته

ياكعب بن مالك ! أبشر . قال فخررت ساجدا وعرفت أن قد جاء فَرَجٌ وآذن رسول الله صلى الله عليه وسلم بتوبة الله علينا حين صلى صلاة الفجر ، فذهب الناس يبشّروننا وذهب قِبَلَ صاحبيّ مبشرون وركض (٢) اليّ رجل فرسا وسعى ساع من اسلم فأوفى على الجبل وكان الصوت أسرع من الفرس فلما جاءني الذي سمعت صوته يبشرني نزعت له ثوبيّ فكسوته اياهما ببشراه . والله ما أملك غيرهما يومئذ واستعرت ثوبين فلبستهما

وانطلقت الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فيتلقّانى الناس فوجا فوجا يهنؤنى بالتوبة يقولون لتهنئك توبة الله عليك . قال كعب حتى دخلت المسجد فاذا برسول الله صلى الله عليه وسلم جالس حوله الناس فقام اليّ طلحة بن عبيد الله يهرول (٣) حتى صافحني وهنّأني . والله ما قام اليّ رجل من المهاجرين غيره ولا أنساها لطلحة

قال كعب فلما سلمت على رسول الله صلى الله عليه وسلم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يبرق وجهه من السرور أبشر بخير يوم مرّ عليك منذ ولدتك أمك . قال قلت أمن عندك يارسول الله أم من عند الله ؟ قال لا بل من عند الله

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا سُر استنار وجهه حتى كأنه قطعة قمر وكنا نعرف ذلك منه . فلما جلست بين يديه قلت يارسول الله ! ان من توبتي أن انخلع (٤) من مالي صدقة الى الله والى رسول الله . قال

---

(١) أشرف وطلع (٢) ركض كنصر ركضا الفرس برجليه استحثه للعدو (٣) هرول هرولة أسرع فى مشيه (٤) اخرج

رسول الله صلى الله عليه وسلم امسك عليك بعض مالك فهو خير لك • قلت فاني أمسك سهمي الذي بخيبر فقلت يارسول الله ! ان الله انما نجّاني بالصدق وان من توبتي أن لا أحدّث الا صدقا ما بقيت • فوالله ما أعلم أحدا من المسلمين أبلاه الله في صدق الحديث منذ ذكرت ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم الى يومي هذا أحسن مما أبلاني ، وما تعمدت منذ ذكرت ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم الى يومي هذا كذبا واني لأرجو أن يحفظني الله فيما بقيت

وانزل الله على رسول الله صلى الله عليه وسلم لَقَدْ تَابَ اللهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالمُهَاجِرِينَ الى قوله وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ • فوالله ما أنعم الله عليَّ من نعمة قط بعد أن هداني للاسلام أعظم في نفسي من صدقي لرسول الله أن لا أكون كذبته فأهلك كما هلك الذين كذبوا فان الله قال للذين كذبوا حين أنزل الوحي شر ما قال لأحد فقال الله تبارك وتعالى سَيَحْلِفُونَ بِاللهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ الى قوله فَإِنَّ اللهَ لَا يَرْضَى عَنِ القَوْمِ الفَاسِقِينَ (١)

مقتل عمر بن الخطاب

قال عمرو بن ميمون انى لقائم ما بيني وبينه — يعني عمر — الا عبد الله بن عباس رضي الله عنهما غداة أُصيب وكان اذا مرَّ بين الصفين قال استووا ، حتى اذا لم ير فيهن خللاً تقدم فكبَّر وربما قرأ بسورة يوسف أو النحل أو نحو ذلك في الركعة الاولى حتى يجتمع الناس فما هو الا أن كبَّر فسمعته يقول :

قتلني أو أكلني الكلب

(١) حديث كعب بن مالك كتاب المغازي صحيح البخاري

حين طعنه فطار العلج (١) بسكين ذات طرفين ، لا يمر على أحد يمينا ولا شمالا الا طعنه حتى طعن ثلاثة عشر رجلا مات منهم سبعة

فلما رأى ذلك رجل من المسلمين طرح عليه برنساً (٢) ، فلما ظن العلج أنه مأخوذ نحر نفسه

وتناول عمر رضى الله عنه يد عبد الرحمن بن عوف رضى الله عنه فقدمه (أى للإمامة) فمن يلى عمر فقد رأى الذى أرى وأما نواحى المسجد فانهم لا يدرون غير أنهم قد فقدوا صوت عمر ، وهم يقولون سبحان الله سبحان الله فصلى بهم عبد الرحمن بن عوف صلاة خفيفة فلما انصرفوا قال عمر

يا ابن عباس ! أنظر من قتلنى ؟

قال فجال (ابن عباس) ساعة ثم جاء فقال :

غلام المغيرة

قال الصنع (٣) ؟ قال نعم

قال قاتله الله لقد أمرت به معروفا

الحمد لله الذى لم يجعل ميتتى بيد رجل يدعى الاسلام ، قد كنت أنت وأبوك تحبان أن تكثر العلوج بالمدينة (٤)

---

(١) بالكسر الرجل الضخم القوى من كفار العجم وقد يطلق على الكافر عموما ج علوج واعلاج وعلجةوهو هنا أبو لؤلؤة واسمه فيروز وكان مجوسياً
(٢) قلنسوة طويلة كانت تلبس فى صدر الاسلام وكل ثوب يكون غطاء الرأس جزءا منه متصلا به (٣) بفتحتين وبالفتح والكسر وسكون النون حاذق فى الصنعة ماهر فى عمل اليدين (٤) كان عمر رضى الله عنه يكره كثرة سبايا الفرس فى مركز الاسلام وعاصمة الخلافة ويحذر من اختلاطهم بالمسلمين وافسادهم

وكان العباس أكثرهم رقيقا (١) فقال ابن عباس رضى الله عنهما ان شئت فعلت (أى ان شئت قتلنا)

قال كذبت (٢) بعدما تكلموا بلسانكم، وصلوا قبلتكم، وحجوا حجكم فاحتُمِلَ الى بيته رضى الله عنه فانطلقنا معه ، قال : —

وكأنّ الناس لم تصبهم مصيبة قبل يومئذ فقائل يقول : —

لا بأس

وقائل يقول : — أخاف عليه

فأُتِيَ بنبيذ فشربه فخرج من جوفه ثم أُتى بلبن فشرب فخرج من جوفه فعرفوا انه ميت

فدخلنا عليه وجاء الناس فجعلوا يثنون عليه ، وجاء رجل شابٌ فقال: —

أبشر يا أمير المؤمنين ! ببشرى الله ، لك من صحبة رسول الله صلى الله عليه وسلم وقدم فى الاسلام ما قد علمت ، ثم وليت فعدلت ثم شهادة

قال وددت أن ذلك كان كفافا (٣) لا علىَّ ولا لى ، فلما أدبر اذا أزاره يمسُّ الارض فقال : —

رُدُّوا علىَّ الغلام

فقال يا ابن أخى ! ارفع ثوبك فانه أنقَى لثوبك ، وأتقى لربك

— ياعبد الله بن عمر ! انظر ما علىَّ من الدَّين ؟

فحسبوه فوجدوه ستة وثمانين الفا أو نحوه ، قال ان وفى له مال آل

---

(١) المملوك للواحد والجمع يقال عبد رقيق وعبيد رقيق وقد يجمع على أرقاء (٢) أى أخطأت (٣) أى مقدار الحاجة من غير زيادة ولا نقصان

عمر فأدّه من أموالهم ، والا فسل فى بنى عدى (١) بن كعب فان لم تف أموالهم فسل فى قريش ، ولا تعدّهم (٢) الى غيرهم فأدّ عنى هذا المال

انطلق الى عائشة أم المؤمنين رضى الله عنها فقل يقرأ عليك عمر السلام، ولا تقل أمير المؤمنين فانى لست اليوم للمؤمنين أميرا ، وقل يستأذن عمر بن الخطاب أن يدفن مع صاحبيه

قال فسلّم فاستأذن ثم دخل عليها فوجدها قاعدة تبكى فقال : ــ يقرأ عليك عمر بن الخطاب السلام ، ويستأذن أن يدفن مع صاحبيه فقالت كنت أريده لنفسى ولأوثرن به اليوم على نفسى

فلما أقبل قيل هذا عبد الله بن عمر قد جاء

فقال : ــ ارفعونى فأسنده رجل اليه

فقال : ــ ما لديك

قال الذى تحب يا أمير المؤمنين ، قد أذنت

فقال الحمد لله ، ما كان شىء أهمّ الىّ من ذلك ، فاذا أنا قبضت فاحملونى ثم سلّم فقل : ــ يستأذن عمر بن الخطاب فان أذنت لى فأدخلونى ، وان ردتنى فردّونى الى مقابر المسلمين وجاءت أم المؤمنين حفصة رضى الله عنها والنساء تسير معها ، فلما رأيناها قمنا فولجت عليه ، فبكت عنده ساعة ، واستأذن الرجال فولجت (٣) داخلا (٤) لهم فسمعنا بكاءها من الداخل ، فقالوا

أوص يا أمير المؤمنين ! استخلف

---

(١) قبيلة سيدنا عمر بن الخطاب رضى الله عنه (٢) لاتتجاوزهم (٣) ولج يلج ولوجاً ولجة البيت وولج الشىء فى غيره دخل فيه (٤) اى مدخلاً كان فى الدار

قال ما أجد أحدا أحق بهذا الأمر من هؤلاء النفر أو الرهط (١) الذين توفى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو عنهم راض

فسمى علياً وعثمان والزبير وطلحة وسعداً وعبد الرحمن بن عوف رضي الله عنهم وقال : —

يشهدكم عبد الله بن عمر ، وليس له من الأمر شيء (كهيئة التعزية له) (٢) فان أصابت الامرة سعداً فهو ذاك، والا فليستعن به أيكم ما أمر، فاني لم أعزله من عجز ولا خيانة

وقال أوصي الخليفة من بعدى بالمهاجرين الأولين أن يعرف لهم حقهم ويحفظ لهم حرمتهم وأوصيه بالأنصار خيراً — الذين تبوأوا (٣) الدار والايمان من قبلهم — أن يقبل من محسنهم وأن يعفى عن مسيئهم ، وأوصيه بأهل الأمصار خيراً فانهم رده (٤) الاسلام وجباة (٥) المال وغيظ العدو ، وأن لا يؤخذ منهم الا فضلهم عن رضاهم ، وأوصيه بالأعراب خيراً فانهم أصل العرب ومادة (٦) الاسلام أن يؤخذ من حواشي (٧) أموالهم وترد على فقرائهم ، وأوصيه بذمة الله وذمة رسوله صلى الله عليه وسلم أن يوفى لهم بعهدهم وأن يقاتل من وراءهم ولا يكلفوا الا طاقتهم

فلما قبض خرجنا به فانطلقنا نمشى فسلم عبد الله بن عمر

قال يستأذن عمر بن الخطاب ، قالت (أى عائشة)

أدخلوه فأدخل ، فوضع هنالك مع صاحبيه ،

فلما فرغ من دفنه اجتمع هؤلاء الرهط ، فقال عبد الرحمن

---

(١) الرهط الجماعة دون العشرة (٢) اى قال له يشهدكم عبد الله بن عمر وقد قال له ذلك كهيئة التعزية له لانه لما اخرجه من الخلافة اراد جبر خاطره بأن جعله من اهل المشاورة (٣) اى سكنوا دار الهجرة من قبل المهاجرين وآمنوا قبل كثير منهم (٤) اى الناصر (٥) جمع الجابى اى الجامع جبا كنصر وجبى كضرب الخراج اى جمعه (٦) المادة كل شيء يكون مدداً لغيره ويقال دع فى الضرع مادة اللبن ، والأعرا بمادة الاسلام (٧) جمع الحاشية وهى من صغار الناس والابل لا كبار فيهم

اجعلوا أمركم الى ثلاثة منكم

قال الزبير : قد جعلت أمرى الى علىّ

وقال طلحة : قد جعلت أمرى الى عثمان

وقال سعد : قد جعلت أمرى الى عبد الرحمن بن عوف

فقال له عبد الرحمن : أيكما تبرّأ من هذا الأمر فنجعله اليه ، والله عليه والاسلام (١) لينظرن أفضلهم فى نفسه

فأسكت الشيخان ، فقال عبد الرحمن

أفتجعلونه الىّ ؟ والله علىّ أن لا آلو عن أفضلكم

قالا : ــ نعم ،

فأخذ بيد أحدهما فقال : لك قرابة من رسول الله صلى الله عليه وسلم والقدم فى الاسلام ما قد علمت فالله عليك لئن أمّرتك لتعدلن ولئن أمرت عثمان لتسمعنّ ولتطيعن

ثم خلا بالآخر فقال له مثل ذلك فلما أخذ الميثاق قال :

ارفع يدك يا عثمان !

فبايعه فبايع له علىّ رضى الله عنه وولج أهل الدار (٢) فبايعوه (٣)

أخلاق المؤمن

للحسن (٤) البصرى

هيهات هيهات أهلك الناس الأمانى ، قول بلا عمل ، ومعرفة بغير صبر ، وايمان بلا يقين ، ما لى أرى رجالا ولا أرى عقولا ، وأسمع

(١) بالرفع فيهما والخبر محذوف اى عليه رقيب (٢) اى اهل المدينة وفى القرآن والذين تبوءوا الدار والايمان (٣) صحيح البخارى كتاب المناقب باب مناقب عمر بن الخطاب رضى الله عنه (٤) ابو سعيد الحسن بن ابى الحسن يسار البصرى كان من سادات التابعين وكبرائهم ، جمع كل فن من علم وزهد وورع وعبادة ، وأبوه مولىً زيد بن ثابت الانصارى وامه خيرة مولاة أم المؤمنين ام سلمة زوجة النبى صلى الله عليه وسلم وربما غابت فى حاجة فيبكى فتعطيه أم سلمة رضى الله عنها ثديها تعلله به الى ان تجىء امه فدر=

حسيساً (١) ولا أرى أنيساً ، دخل القوم والله ثم خرجوا، وعرفوا ثم أنكروا، وحرّموا ثم استحلّوا ؛ انما دين أحدكم لعقة على لسانه ، اذا سئل أمؤمن أنت بيوم الحساب ؟ قال : نعم ! كذب ومالك يوم الدين ، ان من أخلاق المؤمن قوة فى دين ، وحزماً فى لين ، وايماناً فى يقين ، وعلماً فى حلم ، وحلماً بعلم ، وكيساً فى رفق ، وتجمّلا فى فاقة ، وقصداً فى غنى ، وشفقة فى نفقة ، ورحمة لمجهود ، وعطاء فى الحقوق ، وانصافاً فى استقامة، لا يحيف (٢) على من يبغض ، ولا يأثم فى مساعدة من يحب ، ولا يهمز (٣)، ولا يغمز (٤) ، ولا يلمز (٥) ، ولا يلغو ، ولا يلهو ، ولا يلعب ، ولا يمشى بالنميمة ، ولا يتبع ما ليس له ، ولا يجحد (٦) الحق الذى عليه ، ولا يتجاوز فى العذر ، ولا يشمت (٧) بالفجيعة (٨) ان حلّت بغيره ، ولا يسر بالمعصية اذا نزلت بسواه

المؤمن فى الصلاة خاشع ، والى الركوع مسارع ، قوله شفاء ، وصبره تقى ، وسكوته فكرة ، ونظره عبرة ، يخالط العلماء ليعلم ، ويسكت بينهم ليسلم ، ويتكلم ليغنم ، ان أحسن استبشر ، وان أساء استغفر ، وان عتب استعتب (٩) ، وان سفه عليه حلم ، وان ظلم صبر ، وان جير عليه عدل ، لا يتعوذ بغير الله ، ولا يستعين الا بالله ، وقور فى الملأ ، شكور فى الخلا ، قانع بالرزق ، حامد على الرخاء ، صابر على البلاء ، ان جلس مع الغافلين كتب من الذاكرين ، وان جلس مع الذاكرين كتب من المستغفرين

= عليه ثديها فشربه فيرون ان تلك الحكمة والفصاحة من بركة ذلك . قال ابو عمرو بن العلاء ما رأيت أفصح من الحسن البصرى ومن الحجاج ابن يوسف الثقفى ، فقيل له فأيهما كان افصح قال : الحسن ! ومولد الحسن لسنتين بقيتا من خلافة عمر بن الخطاب رضى الله عنه بالمدينة ويقال انه ولد على الرق وتوفى بالبصرة مستهل رجب سنة عشر ومائة

(١) الصوت الخفى (٢) لا يظلم (٣) لا يغتاب (٤) لا يطعن (٥) لا يعيب (٦) لاينكر (٧) لا يفرح (٨) الرزيئة وهى المصيبة ج فجائع (٩) استرضاه

هكذا كان أصحـاب النبى صلى الله عليه وسلم الأول فالأول ، حتى لحقوا بالله عز وجل ، وهكذا كان المسلمون من سلفكم الصالح ، وانما غيّر بكم لما غيّرتم ثم تلا : إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ ، وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ (١)

اخوان الصفا

لابن (٢) المقفع

.... فبينما الغراب فى كلامه اذ أقبل نحوهم ظبى يسعى . فذُعرت (٣) منه السلحفاة فغاصت فى الماء وخرج الجُرَذ (٤) الى جُحره (٥) وطار الغراب فوقع على شجرة ، ثم ان الغراب حَلَّق (٦) فى السماء لينظر هل للظبى طالب ؟ فنظر فلم ير شيئا ، فنادى الجرذ والسلحفاة ، وخرجا ، فقالت السلحفاة للظبى : حين رأته ينظر الى الماء اشرب ان كان بك عطش ، ولا تخف فانه لا خوف عليك . فدنا الظبى فرحَّبت به السلحفاة وحيَّته، وقالت له من أين أقبلت ؟ قال كنت أسنح (٧) بهذه الصَّحارِى فلم تزل

---

(١) سيرة الحسن البصرى لعبد الرحمن ابن الجوزي (٢) هو عبد الله بن المقفَّع كاتب فارسى الاصل عربى النشأة نبغ فى الكتابة فى اللغتين الفارسية والعربية واستكتب فى عهد بنى امية واسلم فى عهد بنى العباس وقتل فى عهد المنصور سنة ١٤٢ ، ابن المقفع امة فى الأدب والانشاء صاحب طريقة فى الكتابة عرفت به واخذت عنه وهي طريقة سهلة جارية مع الطبع عامرة بالمعانى خفيفة اللفظ ، للقلب والعاطفة فيها حظ قليل الا ما كان تعبيرا عن وجدانه وتمثيلا لأخلاقه كالصداقة والمروءة ، والرجل آية فى الترجمة لا تشم منها رائحة الترجمة ولا تميز النقل عن الوضع . وكتابه كليلة ودمنة الذى ترى انموذجه فى فصل اخوان الصفا مثال خالد للترجمة (٣) دهشت بابه سمع (٤). نوع من الفار ج جرذان (٥) بالضم مكان تحتفره السباع والهوام لانفسها ج اجحار وجِحَرة واجْحَرة (٦) ارتفع فى طيرانه واستدار كالحلقة (٧) سَنَح الظبى والطير وغيرهما سنوحا مرَّ من المياسر الى الميامن ولكن المراد هنا انه يرتع ويرعى

الاساورة (١) تطردني من مكان الى مكان ، حتى رأيت اليوم شبحا (٢)، فخفت أن يكون قانصا (٣) . قالت : لا تخف فانا لم نر ههنا قانصا قط ، ونحن نبذل ودّنا ومكاننا ، والسماء والمرعى كثيران عندنا فارغب فى صحبتنا . فأقام الظبى معهم وكان لهم عريش (٤) يجتمعون فيه ، ويتذاكرون الأحاديث والأخبار

فبينما الغراب والجرذ والسلحفاة ذات يوم فى العريش ، غاب الظبى فتوقعوه ساعة ، فلم يأت ، فلما أبطأ أشفقوا أن يكون قد أصابه عنت (٥) فقال الجرذ والسلحفاة للغراب : أنظر هل ترى مما يلينا شيئا ؟ فحلّق الغراب فى السماء ، فنظر ، فاذا الظبى فى الحبائل مقتنَصا ، فانقضّ (٦) مسرعا فأخبرهما بذلك فقالت السلحفاة والغراب للجرذ : هذا أمر لايرجى فيه غيرك فأغث أخاك ، فسعى الجرذ مسرعا فأتى الظبى فقال له : كيف وقعت فى هذه الورطة (٧) وأنت من الأكياس (٨) ؟ قال الظبى ، هل يغنى الكيّس مع المقادير شيئا ؟ فبينما هما فى الحديث اذ وافتهما السلحفاة ، فقال لها الظبى : ما أصبت بمجيئك الينا : فان القانص لو انتهى الينا وقد قطع الجرذ الحبائل استبقته عدوا ، وللجرذ أجحار كثيرة ، والغراب يطير وأنت ثقيلة لا سعى لك ولا حركة ، وأخاف عليك القانص قالت : لا عيش مع فراق الأحبة واذا فارق الأليف (٩) أليفه فقد سُلِب فؤاده ، وحرم سروره ، وغشّى بصره ، فلم ينته كلامها حتى وافى القانص ، ووافق ذلك فراغ الجرذ من قطع الشَّرَك ، فنجا الظبى بنفسه ، وطار الغراب محلقا ودخل الجرذ لبعض الاجحار ، ولم يبق غير السلحفاة ، ودنا الصيّاد فوجد حبالته مقطعة ، فنظر يمينا وشمالا فلم يجد غير السلحفاة تدب ، فأخذها

---

(١) جمع أسوار بالضم والكسر الرامى بالسهام (٢) الشخص ج شبوح وأشباح (٣) الصياد (٤) مكان يستظل به ج عرش (٥) الوقوع فى أمر شاق (٦) هو ى ليقع (٧) الهلكة وكل أمر تعسر النجاة منه ج ورطات وورِاط (٨) جمع كيّس وهو الفطن الظريف (٩) المحب ج آلاّف

وربطها فلم يلبث الغراب والجرذ والظبى ان اجتمعوا فنظروا القانص قد ربط السلحفاة فاشتد حزنهم ، وقال الجرذ : ما أرانا نجاوز عقبة (١) من البلاء الا صرنا فى أشد منها ، ولقد صدق الذى قال : لا يزال الانسان مستمرًا فى اقباله ما لم يعثر ، فاذا عثر لجَّ (٢) به العثار ، وان مشى فى جدَدَ (٣) الأرض • وحذرى على السلحفاة خير الأصدقاء التى خلتها ليست للمجازاة ولا لالتماس مكافأة ، ولكنها خلة (٤) الكرم والشرف خلة هى أفضل من خلة الوالد لولده خلة لا يزيلها الا الموت ، ويح لهذا الجسد الموكل به البلاء الذى لا يزال فى تصرف وتقلب ، ولا يدوم له شىء ، ولا يلبث معه أمر كما لا يدوم للطالع من النجوم طلوع ، ولا للآفل منها أفول (٥) لكن لا يزال الطالع منها آفلا والآفل منها طالعا ، وكما تكون آلام الكلوم (٦) وانتقاض (٧) الجراحات ، كذلك من قرحت كلومه بفقد اخوانه بعد اجتماعه بهم • فقال الظبى والغراب للجرذ : ان حذرنا وحذرك وكلامك وان كان بليغا كلٌّ منها لا يغنى عن السلحفاة شيئا • وانه كما يقال : انما يختبر الناس عند البلاء ، وذو الأمانة عند الأخذ والعطاء ، والأهل والولد عند الفاقة كذلك يختبر الأخوان عند النوائب • قال الجرذ : أرى من الحيلة أن تذهب أيها الظبى ! فتقع بمنظر من القانص كأنك جريح ويقع الغراب عليك كأنه يأكل منك وأسعى أنا فأكون قريبا من القانص مراقبا له لعله أن يرمى ما معه من الآلة ويضع السلحفاة ويقصدك طامعا فيك ، راجيا تحصيلك ، فاذا دنا منك ففرَّ عنه رويدا بحيث لا ينقطع طمعه منك ومكّنه من أخذك مرة بعد مرة حتى يبعد عنا وانح منه هذا النحو ما استطعت : فانى أرجو الا ينصرف الا وقد

---

(١) بفتحتين المرقى الصعب من الجبال ج عقاب وعقبات (٢) تمادى (٣) الأرض الغليظة المستوية ج اجداد (٤) الصداقة (٥) أفل كضرب ونصر وسمع أفولا القمر غابَ فهو آفل ج أفل وأفول (٦) جمع كلم وهو الجرح (٧) يقال انتقض الجرح بعد برئه نكس أى عاود

قطعت الحبائل عن السلحفاة وأنجو بها ، ففعل الغراب والظبى ما أمرهما به الجرذ ، وتبعهما القانص فاستجرّه (١) الظبى حتى أبعده عن الجرذ والسلحفاة ، والجرذ مقبل على قطع الحبائل حتى قطعها ونجا بالسلحفاة ، وعاد القانص مجهودا (٢) لاغبا(٣) فوجد حبالته مقطعة ففكر فى أمره مع الظبى المتظلع(٤) فظن انه خولط(٥) فى عقله ، وفكر فى أمر الظبى والغراب الذى كأنه يأكل منه ، وقرض حبالته ، فاستوحش من الارض وقال : هذه أرض جن أو سَحَرة ، فرجع متولّيا لا يلتمس شيئا ولا يلتفت اليه ، واجتمع الغراب والظبى والجرذ والسلحفاة الى عريشهم سالمين آمنين كأحسن ما كانوا عليه

فاذا كان هذا الخلق مع صغره وضعفه قد قدر على التخلص من مرابط الهلكة مرة بعد أخرى بمودته وخلوصها وثبات قلبه عليها واستمتاعه مع اصحابه بعضهم ببعض ، فالانسان الذى قد أعطى العقل والفهم ، وأُلهم الخير والشر ، ومنح التمييز والمعرفة أولى وأحرى بالتواصل والتعاضد (٦) ، فهذا مثل اخوان الصفاء وائتلافهم فى الصحبة(٧)

وصف الزاهد

لابن السماك (٨)

قال ابن السماك حين مات داؤد الطائى(٩) يا أيها الناس ! ان اهل الدنيا تعجلوا غموم القلب وهموم النفس وتعب الأبدان مع شدة الحساب فالرغبة متعبة لأهلها فى الدنيا والآخرة ، والزهادة راحة لأهلها فى الدنيا

---

(١) أى جرّه (٢) جهده الشىء اتعبه واعياه (٣) لغب كفتح ونصر وكرم لغبا ولغوبا ولغِب لغَبا تعب واعيا أشد الأعياء فهو اللاغب ج لُغُب (٤) تظلّع أى أظهر انه ظالع (٥) أى أصابه جنون (٦) التعاون (٧) من كتاب كليلة ودمنة لابن المقفع فصل الحمامة المطوقة (٨) كان زاهدا عابدا ، حسن الكلام ، صاحب مواعظ . روى عنه أحمد بن حنبل وأنظاره ، كوفى قدم بغداد زمن هرون الرشيد فمكث بها مدة ثم رجع الى الكوفة فمات بها سنة ١٨٣ (ابن خلكان) هو داؤد بن نصير الطائى كان من الزهاد المعدودين =

والآخرة وان داود الطائى نظر بقلبه الى ما بين يديه فأعشى بصر قلبه بصر العيون فكأنه لم يبصر ما اليه تنظرون وكأنكم لاتبصرون ما اليه ينظر ، فأنتم منه تعجبون وهو منكم يتعجب ، فلما نظر اليكم راغبين مغرورين قد ذهبت على الدنيا عقولكم ، وماتت من حبهـا قلوبكم ، وعشقتهـا أنفسكم وامتدت اليها ابصاركم استوحش الزاهد منكم لأنه كان حياً وسط موتى •

ياداؤد ! ما أعجب شأنك الزمت نفسك الصمت حتى قومتها على العدل ، أهنتها وانما تريد كرامتهـا ، وأذللتها وانما تريد اعزازهـا ، ووضعتها وانما تريد تشريفها ، وأتعبتها وانما تريدراحتها ، وأجعتها وانما تريد شبعها ، وأظمأتها وانما تريد ريها ، وخشنت الملبس وانما تريد لينه، وجشّبت(١)المطعم وانما تريد طيبه ، وأمتّ نفسكقبل أن تموت،وقبرتها قبل أن تقبر ، وعذبتها قبل أن تعذب ، وغيّبتها عن الناس كى لا تذكر ، وغبت بنفسك عن الدنيا الى الآخرة فما أظنك الا قد ظفرت بما طلبت • كان سيماك (٢) فى عملك وسرك ، ولم يكن سيماك فى وجهك • فقهت فى دينك ثم تركت الناس يفتون ، وسمعت الأحاديث ثم تركت الناس يحدثون ويروون ، وخرست عن القول وتركت الناس ينطقون ، لاتحسد الاخيار،

= شغل نفسه بالعلم ودرس الفقه ثم اختار العزلة والانفراد والخلوة فلزم العبادة وتعفف عن قبول عطايا الملوك . قيل انه صام أربعين سنة ما علم به أهله ، قدم هرون الرشيد الكوفة فكتب قوما من القراء وأمر لكل واحد منهم بألفى درهم ، وكتب داؤد الطائى من جملتهم فدعاه باسمه فقيل له ان داؤد لم يعلم ، فقال أرسلوها اليه فقال ابن السماك وحماد بن أبى حنيفة نحن نذهب بها اليه ، وقال ابن السماك لحماد فى الطريق انثرها بين يديه فان للعين حظّها ، رَجل ليس عنده شيء يؤمر له بألفى درهم يردّها ؟ فلما دخلا عليه نثراها بين يديه فقال لهما انما بفعل هذا بالصبيان ! وابى أن يقبلها ، قال محارب ابن دثار لو كان داؤد فى الأمم الماضية لقصّ الله تعالى شيئا من خبره ، توفى سنة ستين أو خمس وستين ومائة (ابن خلكان)

(١) جشب الطعام اذا غلظ (٢) البهجة والحسن

ولا تعيب الاشرار ، ولا تقبل من السلطان عطية ، ولا من الاخوان هدية، آنس ما تكون اذا كنت بالله خاليا وأوحش ما تكون اذا كنت مع الناس جالسا ، فأوحش ما تكون آنس ما يكون الناس ، وآنس ما تكون أوحش ما يكون الناس ، جاوزت حد المسافرين فى أسفارهم ، وجاوزت حد المسجونين فى سجونهم ، فأما المسافرون فيحملون من الطعام والجلاوة ما يأكلون فأما أنت فانما هى خبزتك أو خبزتان فى شهرك ترمى بها فى دن(١)عندك فاذا أفطرت أخذت منه حاجتك فجعلته فى مطهرتك ثم صببت عليه من الماء ما يكفيك ثم اصطبغت به ملحا فهذا ادامك وحلواك فمن سمع بمثلك صبر صبرك أو عزم عزمك وما أظنك الا قد لحقت بالماضين، وما أظنك الا قد فضلت الآخرين ، ولا أحسبك الا قد أتعبت العابدين ، وأما المسجون فيكون مع الناس محبوسا فيأنس بهم وأنت فسجنت نفسك فى بيتك وحدك فلا محدث وجليس معك ولا أدرى أى الأمور أشد عليك الخلوة فى بيتك تمر بك الشهور والسنون أم تركك المطاعم والمشارب ، لا ستر على بابك ولا فراش تحتك ، ولا قلة(٢)يبرد فيها ماؤك، ولا قصعة (٣) يكون فيها غداؤك وعشاؤك ، مطهرتك قلتك وقصعتك تورك (٤) وكل أمرك يا داود عجب أما كنت تشتهى من الماء بارده ولا من الطعام طيبه ولا من اللباس لينه بلى ولكنك زهدت فيه لما بين يديك فما أصغر ما بذلت وما أحقر ما تركت وما أيسر ما فعلت فى جنب ما أملت ، أما أنت فقد ظفرت بروح العاجل وسعدت والله فى الآجل ، عزلت الشهرة عنك فى حياتك لكى لا يدخلك عجبها ، ولا يلحقك فتنتها ، فلما مت شهرك ربك بموتك وألبسك رداء عملك فلو رأيت اليوم كثرة تبعك عرفت أن ربك قد أكرمك (٥) .

---

(١) الدن وعاء كالبرميل كبير (٢) الجرة العظيمة (٣) الصفحة (٤) أناء صغير (٥) صفة الصفوة لابن الجوزى

بين السيدة زبيدة والمأمون

من السيدة زبيدة (١)

كل ذنب يا أمير المؤمنين ! وان عظم صغير فى جنب عفوك ، وكل زلل وان جلّ حقير عند صفحك ، وذلك الذى عوّدك الله فأطال مدتك ، وتمم نعمتك ، وأدام بك الخير ، ورفع بك الشر ،

هذه رقعة الواله (٢) التي ترجوك في الحياة لنوائب الدهر ، وفى الممات لجميل الذكر ، فان رأيت أن ترحم ضعفى واستكانتى وقلة حيلتى وان تصل رحمى وتحتسب فيما جعلك الله له طالبا وفيه راغبا فافعل ، وتذكر من لو كان حياً لكان شفيعى اليك

من المأمون (٣)

وصلت رقعتك يا أمّاه ! أحاطك الله وتولاّك بالرعاية ووقفت عليها وساءنى — شهد الله — جميع ما أوضحت فيها لكن الأقدار نافــذة ، والأحكام جارية ، والأمور متصرفة ، والمخلوقون فى قبضتها لا يقدرون على دفاعها ، والدنيا كلها الى شتات ، وكل حيّ الى ممات ، والغدر والبغى حتف الانسان ، والمكر راجع الى صاحبه ، وقد أمرت برد جميع

---

(١) أم جعفر زبيدة بنت جعفر بن أبى جعفر المنصور العباسى وهى أم الأمين محمد بن الرشيد ، المرأة الفاضلة العريقة فى المجد والشرف صاحبة معروف وحسنات على المسلمين ، اليها ينسب نهر زبيدة ، توفيت سنة ٢١٦ هـ ورسالتها هذه تعبر عن حزن عميق مع احترام لائق لسدة الخلافة ومعرفة دقيقة للآداب السلطانية وهى مثال بليغ للانشاء والتعبير فى مثل هذا الموقف الحرج والمنازعة النفسية (٢) وله الرجل وَلَهاً حزن شديداً حتى كاد يذهب عقله بابه ضرب وسمع (٣) هو ابو العباس عبد الله المأمون بن هرون الرشيد ولد سنة ١٧٠ هـ وتوفى سنة ٢١٨ هـ كان من مفاخر بنى العباس حزما وعزما وحلما وعلما وجمعا للفضائل المنتشرة وحماية للعلم الا أن فيه تسرعا فى الاحكام وقسوة فى انفاذها وتشيعا للمعتزلة فلاسفة ذلك العصر . وجوابه هذا جواب مواساة وبر يجمع بين عزة الملوك وبر الابناء وحلاوة التعزية وشيء من مرارة العتاب .

ما أخذ لك ،ولم تفقدى ممن مضى الى رحمة الله الا وجهه وأنا بعد ذلك لك على أكثر مما تختارين والسلام (١)

وصف الكتاب وفضله

لأبى عثمان عمرو بن بحر الجاحظ (٢)

لولا الحكم المحفوظة والكتب المدونة لبطل أكثر العلم ولغلب سلطان النسيان سلطان الذكر ، ولما كان للناس مفزع الى موضع استذكار ولو لم يتم ذلك لحرِمنا أكثر النفع ، ولولا ما رسمت لنا الأوائل فى كتبها وخلّدت من عجيب حكمتها ودوّنت من أنواع سيرها حتى شاهدنا بها ما غاب عنا وفتحنا بها كل مستغلق فجمعنا الى قليلنا كثيرهم وأدركنا ما لم نكن ندركه الا بهم لقد بَخِسَ حظّنا منه

وأهل العلم والنظر وأصحاب الفكر والعبر والعلماء بمخارج الملل وأرباب النّحل (٣) وورثة الأنبياء وأعوان الخلفاء يكتبون كتب الظرفاء(٤) والصلحاء وكتب الملاهى وكتب أعوان الصلحاء وكتب أصحاب المِراء والخصومات وكتب السخفاء (٥) وحميّة الجاهليّة ، ومنهم من يفرّط فى

---

(١) عصر المأمون (٢) هو أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ ، ولد بالبصرة ونشأ بها وتخرّج فى جميع الفنون السائرة فى عصره وضرب فيها بسهم وافر وصنّف وألّف وجمع وكتب و رأسل وأنسأ ، كان دميم الخلقة لطيف الروح، ذكى الفؤاد ، فكه المحاضرة أما العلم فعن البحر حدّث ولا حرج ، وأما الكتابة فهو فيها نابغة العرب وامام الصناعة صاحب أسلوب خاص ، هو أبو عذرته ويكاد يكون خاتمه ، تمتاز كتابته بسهولة العبارة وجزالتها وتقطيع الجملة الى فقرات كثيرة مقفاة أو مرسلة وزيادة الاطناب فى الالفاظ والجمل والاستطراد ومزج الجد والهزل وتحكيم العقل والمنطق والاعتراض بالجمل الدعائية وبعد ذلك كله تصوير المجتمع الذى يعيش الكاتب فيه وبيان اخلاق عصره وعوائدهم ، ومن كتبه الشهيرة كتاب البيان والتبيين وكتاب البخلاء وكتاب الحيوان وديوان رسائل توفى سنة ٢٥٥ هـ (٣) النّحلة المذهب والديانة (٤) ظرف الغلام ظرفا وظرافة كان كيّسا فهو ظريف جمعه ظرفاء بابه كرم (٥) السخيف ذو السخافة والسخافة رقّة العقل بابه كرم

العلم أيام خموله وترك ذكره وحداثة سنّه ، ولولا جياد الكتب وحسانها لما تحركت همم هؤلاء لطلب العلم ونازعت الى حب الكتب وأنفت(١)من حال الجهل وأن يكونوا فى غمار (٢) الوحش ولدخل عليهم من الضرر والمشقة وسوء الحال ما عسى ان يكون لا يمكن الاخبار عن مقداره الا بالكلام الكثير

وسمعت محمد بن الجهم يقول : « اذا غشينى النعاس فى غير وقت النوم تناولت كتابا فأجد اهتزازى للفوائد الأريَحِيَّة (٣) التى تعترينى من سرور الاستنباه وعز التبيّن أشد ايقاظا من نهيق الحمار وهدّة (٤) الهدم ، فانى اذا استحسنت كتابا واستجدته ورجوت فائدته لم أؤثر عليه عوضا ولم أبغ به بدلا فلا أزال أنظر فيه ساعة بعد ساعة كم بقى من ورقه مخافة استنفاده وانقطاع المادّة من قبله »

وقال ابن داحة كان عبد الله بن عبد العزيز بن عبد الله بن عمر بن الخطاب لا يجالس الناس فنزل مقبرة من المقابر وكان لا يزال فى يده كتاب يقرؤه فسئل عن ذلك فقال : « لم أر أوعظ من قبر ولا آنس من كتاب ولا أسلم من الوحدة » . وأهدى بعض الكتّاب الى صديق له دفترا وكتب معه « هديتى هذه أعزك الله تزكو على الانفاق وتربو على الكد لا تفسدها العوارى (٥) ولا تخلقها كثرة التقليب وهى آنس فى الليل والنهار والسفر والحضر تصلح للدنيا والآخرة تؤنس فى الخلوة وتمنع من الوحدة مسامر مساعد ومحدّث مطواع ونديم صدق » . وقال بعض الحكماء : « الكتب بساتين العلماء » وقال آخر : « الكتاب جليس لامؤنة له » وقال آخر « الكتاب جليس بلا مؤنة » . وقال آخر : « ذهبت المكارم الا من الكتب »

---

(١) أنِف استنكف وأنف منه تنزّه عنه بابه سمع (٢) بالضمّ وبفتح جماعة الناس ولفيفهم (٣) الاريَحيّة خصلة يرتاح بها الى النّدى ، يقال اخذته الاريَحيّة اى الهشاشة لابتذال العطايا (٤) صوت وقع الحائط ونحوه (٥) العارية ما تداولوه بينهم جمعه عوار

قال الجاحظ وأنا أحفظ وأقول : « الكتاب نعم الذخر والعقدة (١) والجليس والعمدة (٢)، ونعم النشرة (٣)، ونعم النزهة، ونعم المشتغل والحرفة، ونعم الأنيس ساعة الوحدة ، ونعم المعرفة ببلاد الغربة ، ونعم القرين والدخيل والزميل (٤) ، ونعم الوزير والنزيل ، والكتاب وعاء ملىء علما ، وظرف حشى ظرفا ، وأناء شحن مزاحا ، ان شئت كان أعيا من باقل (٥) ، وان شئت كان أبلغ من سحبان وائل (٦) ، وان شئت سرّتك نوادره ، وشجتك (٧) مواعظه » . ومن لك بواعظ مثله وبناسك فاتك وناطق أخرس ومن لك بطبيب اعرابى ، ورومى هندى ، وفارسي يونانى ، ونديم مولّد ، ونجيب ممتع . ومن لك بشيء يجمع الأول والآخر والناقص والوافر ، والشاهد والغائب ، والرفيع والوضيع ، والغث والسمين (٨) ، والشكل وخلافه والجنس وضده .

وبعد فما رأيت بستاناً يحمل فى ردن وروضة تنقل فى حجر . ينطق عن الموتى ويترجم عن الاحياء ومن لك بمؤنس لا ينام الا بنومك ولا ينطق الا بما تهوى ، آمن من الأرض وأكتم للسر من صاحب السر وأحفظ للوديعة من أرباب الوديعة ، ولا أعلم جاراً آمن ولا خليطاً أنصف ولا رفيقاً أطوع ولا معلماً أخضع ولا صاحباً أظهر كفاية وعناية ولا أقل املالاً ولا ابراماً (٩) ولا أبعد من مراء ولا أترك لشغب ولا أزهد فى جدال ولا أكف عن قتال من كتاب ، ولا أعم بياناً ولا أحسن مؤاتاة (١٠) ولا أعجل مكافأة ولا شجرة أطول عمراً ولا أطيب ثمراً ولا أقرب مجتنى ولا أسرع ادراكاً ولا أوجد فى كل ابّان (١١) من كتاب . ولا أعلم نتاجاً فى حداثة سنّه وقرب ميلاده ورخص ثمنه وامكان وجوده يجمع من

---

(١) ما يمسك الشيء ويوثقه (٢) مايعتمد عليه اى يتكأ ويتكل (٣) النسيم (٤) الرديف (٥) رجل يضرب به المثل فى العىّ (٦) رجل باهلى يضرب به المثل فى الخطابة والفصاحة (٧) شجاه أحزنه واطربه من الاضداد ، بابه نصر (٨) الغث المهزول وغث الكلام رديئه ضد سمينه (٩) أبرم فلانا أمله واضجره (١٠) آتاه على الأمر مواتاة وافقه (١١) ابّان الشيء حينه وأوله

السير العجيبة والعلوم الغريبة وآثار العقول الصحيحة ومحمود الأذهان اللطيفة ومن الحكم الرفيعة والمذاهب القديمة والتجارب الحكمية والأخبار عن القرون الماضية والبلاد النازحة (١) والأمثال السائرة والأمم البائدة ما يجمعه كتاب . ومن لك بزائر ان شئت كانت زيارته غبّاً (٢) وورده خِمساً (٣) وان شئت لزمك لزوم ظلك وكان منك كبعضك (٤)

القميص الأحمر

لابن عبد ربه (٥)

بينما المنصور فى الطواف بالبيت ليلا اذ سمع قائلا يقول : اللهمّ ! انى أشكو اليك ظهور البغى والفساد فى الأرض ، وما يحول بين الحق وأهله من الطمع . فجزع المنصور فجلس بناحية من المسجد وأرسل الى الرجل فصلى ركعتين واستلم (٦) الركن وأقبل مع الرسول فسلم عليه بالخلافة . فقال المنصور : ما الذى سمعتك تذكر من ظهور الفساد والبغى فى الأرض ؟ وما الذى يحول بين الحق وأهله من الطمع ؟ فوالله لقد حشوتَ (٧) مسامعى ما أمرضنى . فقال : ان أمّنتنى يا أمير المؤمنين! أعلمتك بالأمور من أصولها والا احتجزتُ (٨) منك واقتصرتُ على نفسى فلى فيها شاغل . قال : فأنت آمنٌ على نفسك فقل . فقال : يا أمير المؤمنين ! ان الذى دخله الطمع ، وحال بينه وبين ما ظهر فى الأرض من

(١) نزح الشىء نزحاً ونزوحاً بَعُدَ بابه فتح وضرب (٢) حمّى الغبّ التى تنوب يوما بعد يوم وفى الحديث زر غباً تزدد حباً (٣) الخِمس بالكسر من اظماء الابل وهو أن ترعى ثلاثة أيام وترد الرابع (٤) المحاسن والأضداد للجاحظ (٥) ٢٤٦ ـ ٣٢٨ هو ابو عمر احمد بن محمد بن عبد ربه الأموى من كبار كتّاب الاندلس والمؤلفين العرب وكتابه العقد الفريد ـ والقميص الأحمر مأخوذ منه ـ من كتب التاريخ والادب الجليلة الممتعة تجمع علما كثيرا (٦) أى مسح بالكف وقبّل (٧) ملأت (٨) أى انعزلت عنك أو حبست ما عندى عنك

الفساد والبغي لأنت . فقال : فكيف ذلك ؟ ويحك يدخلني الطمع والصفراء [1] والبيضاء فى قبضتى والحلو والحامض عندى ؟ قال : وهل دخل أحدا من الطمع ما دخلك ، ان الله استرعاك [2] أمر عباده وأموالهم فأغفلت أمورهم ، واهتممت بجمع أموالهم ، وجعلت بينك وبينهم حجابا من الجَص والآجُر وأبوابا من الحديد ، وحرّاسا معهم السلاح ، ثم سجنت نفسك عنهم فيها ، وبعثت عمّالك فى جبايات الأموال وجمعها، وأمرت أن لا يدخل عليك احد من الرجال الا فلان وفلان نفرا سمّيتهم ، ولم تأمر بايصال المظلوم ، ولا الملهوف [3] ولا الجائع العارى اليك ، ولا أحد الا وله فى هذا المال حق ،

فلما رآك هؤلاء النفر الذين استخلصتهم لنفسك ، وآثرتهم على رعيّتك ، وأمرت أن لا يحجبوا دونك تَجبى الأموال وتجمعها ، قالوا هذا قد خان الله فمالنا لا نَخُونه . فأتمروا [4] ان لا يصل اليك من علم أخبار الناس شيء الا ما أرادوا ، ولا يخرج لك عامل الا خَوّنوه عندك ونفوه حتى تسقط منزلته عندك .

فلما انتشر ذلك عنك وعنهم أعظمهم الناس ، وهابوهم وصانعوهم [5] ، فكان أول من صانعهم عمّالك بالهدايا والأموال ليقووا بها على ظلم رعيّتك . ثم فعل ذلك ذو المقدرة والثروة من رعيّتك لينالوا ظلم من دونهم . فامتلأت بلاد الله بالطمع ظلما وبغيا وفسادا . وصار هؤلاء القوم شركاءك فى سلطانك وأنت غافل . فان جاء متظلّم [6] حيل بينك وبينه فان أراد رفع قصّته اليك عند ظهورك وجدك قد نهيت عن ذلك وأوقفت للناس رجلا ينظر فى مظالمهم

---

(١) أى الذهب والفضة (٢) أى جعلك راعيا (٣) الحزين ذهب له مال او فجع بحميم . المظلوم ينادى ويستغيث (٤) تشاوروا (٥) رشوا (٦) أى الشاكى من الظلم

فان جاء ذلك المتظلّم فبلغ بطانتك (١) خبره ، سألوا صاحب المظالم أن لا يرفع مظلمته اليك ، فلا يزال المظلوم يختلف اليه ، ويلوذ (٢) به ، ويشكو ويستغيث ، وهو يدفعه . فاذا أُجهد وأُخرج ثم ظهرت صرخ بين يديك فيضرب ضربا مبرّحا (٣) يكون نكالا (٤) لغيره وأنت تنظر فما تنكر ، فما بقاء الاسلام ؟

وقد كنت يا أمير المؤمنين ! أُسافر الى الصين فقدمتها مرّةً وقد أُصيب ملكهم بسمعه فبكى يوما بكاءاً شديداً فحثه جلساؤه على الصبر فقال : أما اني لست أبكي للبليّة النازلة ولكنى أبكي لمظلوم يصرخ بالباب فلا أسمع صوته ، ثم قال : أما اذا قد ذهب سمعى فان بصرى لم يذهب . نادوا فى الناس أن لا يلبس ثوبا أحمر الا متظلم ، ثم كان يركب الفيل طرفى النهار وينظر هل يرى مظلوما

فهذا يا أمير المؤمنين ! مشرك بالله بلغت رأفته بالمشركين هذا المبلغ وأنت مؤمن بالله من أهل بيت نبيه لا تغلبك رأفتك بالمسلمين على شح نفسك . فان كنت انما تجمع المال لولدك فقد أراك الله عبرا فى الطفل يسقط من بطن أمه ما له على الأرض مال . وما من مال الا ودونه يد شحيحة تحويه فما يزال الله يلطف بذلك الطفل حتى تعظم رغبة الناس له ولست الذى تعطى بل الله تعالى يعطى من يشاء ما يشاء

فان قلت : انما تجمع المال لشديد السلطان فقد أراك الله عبراً فى بنى أميّة ما أغنى عنهم جمعهم من الذهب وما أعدّوا من الرجال والسلاح والكُراع (٥) حين أراد الله بهم ما أراد

وان قلت : انما تجمع المال لطلب غاية هى أجسم من الغاية التى أنت فيها فوالله ما فوق ما أنت فيه الا منزلة ماتدرك الا بخلاف ما أنت عليه . يا أمير المؤمنين ! هل يعاقب من عصاك بأشد من القتل ؟ فقال المنصور : لا . فقال:

---

(١) بطانة الرجل أهله وخاصته ج بطائن (٢) لاذ بالقوم التجأ اليهم وداناهم وعاذ بهم (٣) الشديد (٤) العبرة (٥) بضم الكاف اسم يطلق على الخيل والبغال والحمير

فكيف تصنع بالملك الذى خوّلك (١) ملك الدنيا وهو لا يعاقب من عصاه بالقتل ولكن بالخلود فى العذاب الأليم . قد رأى ما عقد عليه قلبك ، وعملته جوارحك (٢) ، ونظر اليه بصرك ، واجترحته (٣) يداك ، ومشت اليه رجلاك ، هل يغنى عنك ما شححت عليه من ملك الدنيا اذا انتزعه من يدك ، ودعاك الى الحساب ؟

قال : فبكى المنصور ثم قال : ليتنى لم أخلق ويحك كيف أحتال لنفسي ؟ فقال : يا أمير المؤمنين ! ان للناس أعلاما (٤) يفزعون اليهم فى دينهم ويرضون بهم فى دنياهم فاجعلهم بطانتك يرشدوك . وشاورهم فى أمرك يسدّدوك (٥) . قال : قد بعثت اليهم فهربوا منى . قال : خافوك أن تحملهم على طريقتك ولكن افتح بابك ، وسهل حجابك ، وانصر المظلوم ، واقمع (٦) الظالم ، وخذ الفيء والصدقات على حلّها ، واقسمها بالحق والعدل على أهلها وأنا ضامن عنهم أن يأتوك ويساعدوك على صلاح الأمة . وجاء المؤذّنون فآذنوه بالصلاة فصلى وعاد الى مجلسه وطلب الرجل فلم يوجد (٧)

كيف كان معاوية رضي الله عنه يقضي يومه (٨)

للمسعودى (٩)

.. كان من أخلاق معاوية انه كان يأذن فى اليوم والليلة خمس مرات ،

---

(١) أعطاك (٢) جمع جارحة أى العضو من الانسان ولا سيما اليد (٣) اكتسبته (٤) جمع علَم أى سيد القوم (٥) يرشدوك الى الصواب (٦) قمعه كفتح قمعا صرفه عما يريد وقهره وذلّله (٧) العقد الفريد لابن عبد ربه (٨) معاوية بن أبى سفيان من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وكتّاب الوحى ، مؤسس الدولة الأموية ومن نوابغ السياسيين الذين أنجبتهم أرض الجزيرة كان عمر رضى الله عنه ينظر اليه ويقول هذا كسرى العرب ، كان جواداً وقوراً يضرب بحلمه المثل ، كان أحد كبار ملوك العالم فى عصره لعشرين سنة ، توفى سنة ٦٠ هـ (٩) هو أبو الحسن على بن الحسين ابن على المسعودى الشافعى المؤرخ الشهير ، نشأ فى بغداد وساح البلاد الى الهند والصين ومداغسكر ، توفى سنة ٣٤٥ أو ٣٤٦ هـ ،

كان اذا صلى الفجر جلس للقاص حتى يفرغ من قصصه • ثم يدخل فيؤتى بمصحفه فيقرأ جزأه • ثم يدخل الى منزله فيأمر وينهى ثم يصلى أربع ركعات ثم يخرج الى مجلسه فيأذن لخاصة الخاصة فيحدثهم ويحدثونه ، ويدخل عليه وزراؤه فيكلمونه فيما يريدون من يومهم الى العشي • ثم يؤتى بالغداء الأصغر هو فَضلة(١) عشائه من جدى(٢) بارد أو فرخ وما يشبهه ثم يتحدث طويلا • ثم يدخل منزله لما أراد ثم يخرج فيقول : يا غلام ! أخرج الكرسى فيخرج الى المسجد فيوضع فيسند ظهره الى المقصورة (٣) ويجلس على الكرسى ويقوم الأحداث فيتقدم اليه الضعيف والاعرابى والصبى والمرأة ومن لا أحد له فيقول : أعزوه (٤) ويقول : عدى علىّ فيقول : ابعثوا معه ويقول : صنع بى فيقول : أنظروا فى أمره ، حتى اذا لم يبق أحد دخل فجلس على السرير • ثم يقول: ائذنوا للناس على قدر منازلهم ولا يشغلنى أحد عن رد السلام • فيقال : كيف أصبح أمير المؤمنين أطال الله بقاءه ؟ فيقول : بنعمة من الله ، فاذا استووا جلوسا قال : يا هؤلاء انما سميتم أشرافا لأنكم شرفتم من دونكم بهذا المجلس ، ارفعوا الينا حوائج من لا يصل الينا ، فيقوم الرجل فيقول : استشهد فلان فيقول : افرضوا لولده (٥) ، ويقول آخر: غاب فلان عن أهله ، فيقول : تعاهدوهم ، أعطوهم ، اقضوا حوائجهم ، اخدموهم

ثم يؤتى بالغداء ويحضر الكاتب فيقوم عند رأسه ويقدم الرجل فيقول له : اجلس على المائدة ، فيجلس فيمد يده فيأكل لقمتين أو ثلاثا ، والكاتب يقرأ كتابه فيأمر فيه بأمر فيقال : يا عبد الله أعقب (٦) فيقوم

---

(١) الفَضلة بفتح الفاء ، البقية من الشيء (٢) ولد المعز فى السنة الاولى (٣) أصغر من الدار ولا يدخلها الا صاحبها ومقصورة المسجد مقام الامام (٤) أعزّه جعله عزيزاً (٥) فرض له فى الديوان اى رسم له فيه شيئا معلوما وأثبت رزقه فيه (٦) عقبَ وأعقب فلانٌ فلاناً ومكان فلانٍ خلَفَه وجاء بعده

ويتقدم آخر حتى يأتى على أصحاب الحوائج كلهم ، وربما قدم عليـه من أصحاب الحوائج أربعون أو نحوهم على قدر الغداء ثم يرفع الغداء ويقال للناس : أجيزوا [1] فينصرفون فيدخل منزله فلا يطمع فيه طامع ، حتى ينادى بالظهر فيخرج فيصلى ثم يدخل فيصلى أربع ركعات ثم يجلس فيأذن لخاصة الخاصة فان كان الوقت وقت شتاء أتاهم بزاد الحاج [2] من الأخبصة [3] اليابسة والخشكنانج [4] والأقراص المعجونة باللبن والسكر من دقيق السميد [5] والكعك [6] المنضد [7] والفواكه اليابسة ، وان كان وقت صيف أتاهم بالفواكه الرطبة ، ويدخل اليه وزراؤه فيؤامرونه فيما احتاجوا اليه بقية يومهم ويجلس الى العصر ثم يخرج فيصلى العصر ثم يدخل منزله فلا يطمع فيه طامع ، حتى اذا كان فى آخر أوقات العصر خرج فجلس على سريره ويؤذن للناس على منازلهم فيؤتى بالعشاء فيفرغ منه مقدار ما ينادى بالمغرب ولا ينادى له بأصحاب الحوائج • ثم يرفع العشاء فينادى بالمغرب فيخرج فيصليها ، ثم يصلى بعدها أربع ركعات ويقرأ فى كل ركعة خمسين آية ، يجهر تارة ويخافت أخرى ، ثم يدخل منزله فلا يطمع فيه طامع حتى ينادى بالعشاء الآخرة ، فيخرج فيصلى ثم يؤذن للخاصة وخاصة الخاصة والوزراء والحاشية فيؤامره الوزراء فيما أراد وأصدر من ليلتهم ويستمر الى ثلث الليل فى أخبار العرب وأيامها والعجم وملوكها وسياستها لرعيتها وسائر ملوك الأمم وحروبها ومكائدها وسياستها لرعيتها وغير ذلك من أخبار الأمم السالفة ثم تأتيه الطرف [8] الغريبة من عند نسائه من الحلوى وغيرها من المآكل اللطيفة ثم يدخل فينام ثلث الليل ثم يقوم فيقعد فيحضر الدفاتر فيها سير الملوك وأخبارها والحروب والمكائد ،

---

(١) أجاز الموضع خلّفه وقطعه (٢) نوع من الأطعمة (٣) جمع خبيص وهو الحلوى (٤) معرب لعله خشكنان (٥) الدقيق الابيض (٦) خبز يعمل مستديرا من الدقيق والحليب والسكر أو غير ذلك والكلمة من الدخيل ، (٧) المضموم بعضه الى بعض (٨) الهدايا الغريبة

فيقرأ ذلك عليه غلمان له مرتّبون ، وقد وكلوا بحفظها وقراءتها فتمر بسمعه كل ليلة جمل من الأخبار والسير والآثار وأنواع السياسات ، ثم يخرج فيصلي الصبح ثم يعود فيفعل ما وصفنا في كل يوم (١) ،

أشعب والبخيل

لابي الفرج الاصبهاني (٢)

حدث أشعب (٣) قال : ولي المدينة رجل من ولد عامر بن لؤي وكان أبخل الناس وأنكدهم (٤) . وأغراه الله بي يطلبني في ليله ونهاره . فان هربت منه هجم على منزلي بالشرَط (٥) وان كنت في موضع بعث الى من اكون معه أو عنده يطلبني منه فيطالبني بأن أحدّثه واضحكه . ثم لا أسكت ولا أنام ولا يطعمني ولا يعطيني شيئا . فلقيت منه جهدا عظيما وبلاءا شديدا . وحضر الحج فقال لي : يا أشعب كن معي . فقلت بأبي أنت وأمي أنا عليل وليست لي نية في الحج . فقال : عليه وعليه : وقال : ان الكعبة بيت النار لئن لم تخرج معي لاودعنك الحبس حتى أقدم . فخرجت معه مكرَهاً . فلما نزلنا منزلا أظهر انه صائم ونام حتى تشاغلت.

---

(١) مروج الذهب للمسعودي (٢) هو ابو الفرج علي بن الحسين الاموي، العلامة الكاتب صاحب كتاب الاغاني ، كان اخباريا نسابة شاعراً ، وكتاب الاغاني ذخيرة من ذخائر الأدب العربي ، ولولاه لضاع علم جم وادب وافر ولاصبحت نواح للغة العربية جميلة مطوية على غرّها ولحرمنا تلك اللغة العذبة التي كان يتكلم بها اهل اللغة في منازلهم وعلى موائدهم وفي مواضع انبساطهم ، وقد وقع الاتفاق على انه لم يعمل في بابه مثله ، قال الصاحب بن عباد لقد اشتملت خزانتي على مائة الف وسبعة عشر الف مجلد ما فيهما سميري غيره ، توفي سنة ٣٥٦ هـ ببغداد (٣) هو ابن الزبير واسمه شعيب وكنيته ابو العلاء ، ولد سنة تسع من الهجرة ونشأ بالمدينة وكان من القراء حسن الصوت وكان مليحا صاحب نوادر ، وكان شديد الطمع كثير الطلب يضرب به المثل ، وله نوادر وحكايات (٤) انكد ، الشؤم العسر (٥) جمع شرطي (بضم الشين وسكون الراى) طائفة من اعوان الولاة وهم في أيامنا رؤساء الضابطة (البوليس)

ثم أكل ما فى سفرته وأمر غلامه أن يطعمنى رغيفين بملح . فجئت وعندى انه صائم ولم أزل انتظر المغرب أتوقع افطاره . فلما صلّيت المغرب قلت لغلامه : ما يَنتَظر بالأكل ؟ قال : قد أكل منذ زمان . قلت : أولم يكن صائما . قال : لا . قلت : أفأطوى(1) أنا قال : قد أعدّ لك ما تأكله فكل . وأخرج الىّ الرغيفين والملح . فأكلتهما وبت ميتا جوعا . وأصبحت فسرنا حتى نزلنا المنزل فقال لغلامه : ابتع لنا لحما بدرهم . فابتاعه فقال: كبّب لى قطعا . ففعل . فأكله ونصب القدر . فلما نَغَرت (2) قال: اغرف لى منها قطعا . ففعل . فأكلها ثم قال : اطرح فيها دقّة(3) وأطعمنى منها . ففعل . ثم قال : الق توابلها (4) وأطعمنى منها . ففعل وأنا جالس أنظر اليه لا يدعونى . فلما استوفى اللحم كله قال : ياغلام أطعم أشعب . ورمى الىّ برغيفين فجئت الى القدر واذا ليس فيها الا مرق وعظام . فأكلت الرغيفين . وأخرج له جرابا فيه فاكهة يابسة فأخذمنها حفنة(5) فأكلها وبقى فى كفه كف لوز بقشره ولم يكن له فيه حيلة . فرمى به الىّ وقال : كل هذا يا أشعب . فذهبت أكسر واحدة منها فاذا بضرسى قد انكسرت منه قطعة فسقطت بين يدىّ . وتباعدت أطلب حجرا أكسر به فوجدته فضربت به لوزة فطفرت (6) يعلم الله مقدار رمية حجر . وعدوت فى طلبها . فبينا أنا فى ذلك اذ أقبل بنو مصعب (يعنى ابن ثابت واخوته) يلبّون بتلك الحلوق الجَهوَرية (7) . فصِحت بهم . الغوث الغوث العياذ بالله وبكم يا آل الزبير الحقونى أدركونى . فركضوا الىّ فلما رأونى قالوا : أشعب مالك ويلك . قلت : خذونى معكم تخلصونى من الموت . فحملونى معهم فجعلت أرفرف (8) بيدىّ كما يفعل الفرخ اذا طلب الزَّق (9) من أبويه .

---

(1) طوى جاع ولم يأكل شيئاً ، بابه سمع (2) نغرت فارت ، بابه ضرب وسمع وفتح (3) الملح المبزّر وهو ما خلط بالملح من الابزار (4) جمع تابل أى ما يطيب به من الغذاء من الاشياء اليابسة كالفلفل والكمّون وأمثالهما (5) ملء الكفّين (6) وثبت بابه ضرب (7) المرتفعة العالية (8) رفرف الطائر بسط جناحيه وحرّكهما (9) ما يطعم الطائر فرخه بمنقاره

فقالوا : مالك ويلك . قلت : ليس هذا وقت الحديث زقّونى مما معكم قد مت ضرّا وجوعا منذ ثلاث . (قال) فأطعمونى حتى تراجعت نفسى وحملونى معهم فى محمل ثم قالوا : أخبرنا بقصتك . فحدثتهم وأريتهم ضرسى المكسورة فجعلوا يضحكون ويتصفقون وقالوا : ويلك من أين وقعت على هذا . هذا من أبخل خلق الله وأدنئهم نفسا . فحلفت بالطلاق أنى لا أدخل المدينة ما دام له بها سلطان فلم أدخلها حتى عزل .

رسالة عتاب

لأبى بكر (١) الخوارزمى

كتابى وقد خرجت من البلاء خروج السيف من الجلاء ، وبروز البدر من الظلماء ، وقد فارقتنى المحنة وهى مفارق لا يشتاق اليه ، وودعتنى وهى مودع لا يبكى عليه ، والحمد لله تعالى على محنة يجلّيها، ونعمة ينيلها (٢) ويوليها (٣) ،

كنت أتوقع أمس كتاب سيدى بالتسلية ، واليوم بالتهنئة ، فلم يكاتبنى فى أيام البرحاء (٤) بأنّها غمته ، ولا فى أيام الرخاء (٥) بأنها سرّته ، وقد اعتذرت عنه الى نفسى وجادلت عنه قلبى فقلت : —

أما اخلاله (٦) بالأولى فلأنه شغله الاهتمام بها عن الكلام فيها ، وأما

(١) ٣٢٣ — ٣٨٣ هو أبو بكر محمد بن العباس الخوارزمى أصله من طبرستان وولد بخوارزم ونشأ بها ، كان من المتكسّبين بالأدب الذين هاجروا وجاهدوا فى سبيله ، اتصل بسيف الدولة والصاحب بن عبّاد وعضد الدولة . كان بحرا فى الأدب راويه لأشعار العرب وأخبارها وأيامها نسّابة لغويا واقفا على مناهج كلام العرب وخواص تراكيب اللغة ، ولكنه من طائفة الأدباء بالجبر الذين امتلكوا ناصية البيان وتصرّفوا فى ضروب الكلام بكثرة ما حفظوا وبطول ما مارسوا ، بغير قلم سيّال ، وبيان سلسال ، وطبع ريان وذوق رقيق ، ورسائله شاهدة بذلك ، ولذلك أخفق فى مساجلة بديع الزمان الهمدانى وهو الأديب بالطبع اخفاقا عظيما وكان ذلك سبب موته ، وشعره أحسن من نثره مع أنه لم يشتهر الا برسائله السائرة الطائرة فى الآفاق
(٢) يعطيها (٣) أولاه معروفا أى صنعه (٤) الشدة والأذى (٥) بالفتح سعة العيش (٦) أخل بالشىء قصّر فيه . تركه ولم يأت به

تغافله عن الأخرى فلأنه أحب أن يوفّر (١) عليّ مرتبة السابق الى الابتداء، ويقتصر بنفسه على محل الاقتداء لتكون نعم الله تعالى موقوفة من كل جهة عليّ، ومحفوفة (٢) من كل رتبة بي ،

فان كنت أحسنت الاعتذار عن سيدي فليعرف لي حق الاحسان ، وليكتب لي بالاستحسان ، وان كنت أسأت فليخبرني بعذره فانه أعرف مني بسرّه ، وليرض مني بأني حاربت عنه قلبي واعتذرت عن ذنبه حتى كأنه ذنبي وقلت : يانفس ! اعذري أخاك وخذي منه ما أعطاك فمع اليوم غد والعود أحمد (٣) .

حديث الناس

لابي حيان التوحيدي (١)

حدثني شيخ من الصوفية في هذه الأيام قال : كنت بنيسابور سنة سبعين وثلاثمائة ، وقد اشتعلت خراسان بالفتنة وتبلبلت (٥) دولة آل

---

(١) يكثّر (٢) حفّه كنصر وضرب حفاً بكذا أحاطه به (٣) رسائل أبي بكر الخوارزمي (٤) هو علي بن محمد بن العباس التوحيدي ، ولد على الغالب في أواخر العقد الثاني من القرن الرابع ونشأ في بغداد ، وجاء مفنناً في العلوم من النحو واللغة والشعر والأدب والفقه والكلام على رأى المعتزلة . كان مقتراً عليه في الرزق ، وكان يعيش بالوراقة أو النسخ في بغداد مدة طويلة ، ولم يزل في ضيق وجفاء من المعاصرين حتى أحرق كتبه في آخر عمره لقلة جدواها بزعمه وضناً بها على من لا يعرف قدرها بعد موته .

قال الاستاذ كرد على « كتب أبي حيان أسئلة واجوبة وروايات ومساجلات ومحاضرات ومحاضر جلسات ، وتفريع وتقريظ ، ونقد ولمز ووعظ وارشاد وكل صفحة منها تدل على علو كعبه في العلم والفهم أنزلته منازل أعاظم المنشئين والمؤلفين صور فيها العلم والأدب في أيامه أحسن صورة . . . انشاؤه طبقة واحدة لم يتعمل في ما يكتب ، ولا عنى بالتنميق والتحبير ، والصقل والتطرية . . . كأنه تلقى باليمين ذاك الاسلوب الذى كاد يموت لموت الجاحظ، وأتمه بما حدث بعد أبي عثمان من فنون القول وضروب المعارف » .

ومن أشهر كتبه كتاب الصداقة والصديق ، وكتاب المقابسات ، وكتاب الامتاع والمؤانسة وكتاب البصائر والذخائر ، ومثالب الوزيرين ، مات بشيراز سنة ٤١٤ هـ ، (٥) فسدت وهاجت

سامان بالجور وطول المدة فلجأ محمد بن ابراهيم صاحب الجيش الى قايين وهي حصنه ومعقله وورد أبو العباس صاحب جيش آل سامان نيسابور بعدة عظيمة وعدة عميمة وزينة فاخرة وهيئة باهرة وغلا السعر وأخيفت السبل وكثر الارجاف وساءت الظنون وضجت العامة والتبس الرأي وانقطع الأمل ونبح كل كلب من كل زاوية وزأر كل أسد من كل أجمة وضبح (١) كل ثعلب من كل تلعة (٢) •

قال وكنا جماعة غرباء نأوي الى دويرة الصوفية لا نبرحها فتــارة تقرأ وتارة نصلي وتارة ننام وتارة نهذي والجوع يعمل عمله ونخوض في حديث آل سامان والوارد من جهتهم الى هذا المكان ولا قدرة لنا على السياحة لانسداد الطرق وتخطف الناس للناس وشمول الخوف وغلبة الرعب وكان البلد يتقد ناراً بالسؤال والتعرف والارجاف بالصدق والكذب وما يقال بالهوى والعصبية فضاقت صدورنا وخبثت سرائرنا واستولى علينا الوسواس • وقلنا ليلة ما ترون ياصحابنا ما دفعنا اليه من هذه الاحوال الكريهة ، كأنا والله أصحاب نعم وأرباب ضياع نخاف عليها الغارة والنهب وما علينا من ولاية زيد وعزل عمرو وهلاك بكر ونجاة بشر نحن قوم رضينا في هذه الدنيا العسيرة وهذه الحياة القصيرة بكسرة يابسة وخرقة بالية وزاوية من المسجد مع العافية من بلايا طلاب الدنيا • فما هذا الذي يعترينا من هذه الأحاديث التى ليس لنا فيها ناقة ولا جمل ولا حظ ولا أمل قوموا بنا غداً حتى نزور أبا زكرياء الزاهد ونظل نهارنا عنده لاهين عما نحن فيه ساكنين معه مقتدين به فاتفق رأينا على ذلك • فغدونا وصرنا الى أبي زكرياء الزاهد فلما دخلنا رحب بنا وفرح بزيارتنا وقال : ما أشوقني اليكم وما ألهفني عليكم ! الحمد لله الذي جمعني واياكم في مقام واحد حدثوني ما الــذي سمعتم وماذا

---

(١) صوّت الثعلب وصاح (٢) ما علا من الارض

بلغكم من حديث الناس وأمر هؤلاء السلاطين ؟ فرجوا عني وقولوا لي ما عندكم فلا تكتموني شيئا فمالي والله مرعى في هذه الأيام الا ما اتصل بحديثهم واقترن بخبرهم ، فلما ورد علينا من هذا الزاهد العابد ما ورد دهشنا واستوحشنا وقلنا في أنفسنا انظروا من أي شيء هربنا ، وبأي شيء علقنا وبأي داهية دُهينا قال : فخففنا الحديث وانسللنا فلما خرجنا قلنا : أرأيتم ما بلينا به وما وقعنا عليه ؟ (ان هذا لهو البلاء المبين) • ميلوا بنا الى أبي عمرو الزاهد فله فضل وعبادة وعلم وتفرد في صومعته (١) حتى نقيم عنده الى آخر النهار فقد نبا بنا المكان الأول، وبطل قصدنا فيما عزمنا عليه من العمل فمشينا الى أبي عمرو الزاهد واستأذنا فأذن لنا ووصلنا اليه فسرّ بحضورنا ، وهشّ لرؤيتنا وابتهج بقصدنا وأعظم زيارتنا ، ثم قال : يا أصحابنا ما عندكم من حديث الناس؟ فقد والله طال عطشي الى شيء أسمعه ولم يدخل علي اليوم أحد فأستخبره وان أذني لدى الباب لأسمع قرعة أو أعرف حادثة فهاتوا ما عندكم وما معكم وقصوا علي القصة بفصها (٢) ونصها ودعوا التورية والكناية واذكروا الغث والسمين فان الحديث هكذا يطيب ولولا العظم ما طاب اللحم ولولا النوى ما حلا التمر ولولا القشر لم يوجد اللب ، فعجبنا من هذا الزاهد الثاني أكثر من عجبنا بالزاهد الأول وخاطفناه الحديث وودعناه وخرجنا ، وأقبل بعضنا على بعض يقول : أرأيتم أظرف من أمرنا وأغرب من شأننا ؟ أنظروا من أي شيء كان تعريجنا (٣) (ان هذا لشيء عجيب) وتلددنا (٤) وتبلدنا (٥) • وقلنا يا أصحابنا : انطلقوا الى أبي الحسن الضرير وان كان مضربه (٦) بعيداً فانا لا نجد سكوننا

---

(١) جبل أو مكان مرتفع يسكنه المتعبد قصد الانفراد (٢) أصل الأمر وحقيقته (٣) عرّج وقف ولبث (٤) تحيرنا (٥) تبلّد أصبح بليداً أو تظاهر بالبلادة (٦) بيته

الا معه ولا نظفر بضالتنا الا عنده لزهده وعبادته وتوحده وشغله بنفسه مع زمانته (١) في بصره وورعهوقلة فكره في الدنيا وأهلها وطوينا الأرض اليه ودخلنا عليه وجلسنا حواليه في مسجده ولما سمع بنا أقبل على كل واحد منا يلمسه بيده ويرحب به ويدعو له ويقرب فلما انتهى أقبل علينا وقال : أمن السماء نزلتم عليّ ؟ والله لكأني وجدت بكم مأمولي وأحرزت غاية سؤلي قولوا لي غير محتشمين (٢) : ما عندكم من أحاديث الناس ؟ وما عزم عليه هذا الوارد ؟ وما يقال في أمر ذلك الهارب الى قايين وما الشائع من الأخبار ؟ وما الذي يتهامس به ناس دون ناس ؟ وما يقع في هواجسكم (٣) ويستبق الى نفوسكم ؟ فأنكم بُرْد الآفاق وجوالة الأرض ولقاطة الكلام • ويتساقط اليكم من الأقطار ما يتعذر على عظماء الملوك وكبراء الناس : فورد علينا من هذا الانسان ما أنسى الأول والثاني ، ومما زاد في عجبنا أنا كنا نعده في طبقة فوق طبقات جميع الناس فخففنا الحديث معه وودعناه وخنسنا (٤) من عنده وطفقنا تتلاوم على زيارتنا لهؤلاء القوم لما رأينا منهم وظهر لنا من حالهم •• وازدريناهم(٥) وانقلبنا متوجهين الى دويرتنا التي غدونا منها مستطرقين(٦) كالّين (٧) فلقينا في الطريق شيخاً من الحكماء يقال لـه أبو الحسن العامري وله كتاب في التصوف قد شحنه بعلمنا واشارتنا وكان من الجوالين الذين نقبوا في البلاد واطلعوا على أسرار الله في العباد فقال لنا : من أين درجتم (٨) ومن قصدتم ؟ فأجلسناه في مسجد وعصبنا (٩) حوله وقصصنا عليه قصتنا من أولها الى آخرها ولم نحذف منها حرفاً فقال لنا في طيّ هذه الحال الطارئة غيب لا تقفون عليه وسر لا تهتدون

---

(١) الزمانة العاهة وعدم بعض الأعضاء (٢) احتشم ، انقبض أو استحيا
(٣) خواطركم (٤) تأخرنا (٥) احتقرناهم (٦) استطرق الشيء اتخذه طريقاً
(٧) متعبين (٨) درج مشى (٩) عصب القوم به اجتمعوا وأحاطوا به

اليه وانما غركم ظنكم بالزهاد وقلتم لا ينبغي أن يكون الخبر عنهم كالخبر عن العامة ، لأنهم الخاصة ومن الخاصة خاصة الخاصة لأنهم بالله يلوذون واياه يعبدون وعليه يتوكلون واليه يرجعون ومن أجله يتهالكون وبه يتمالكون قلنا له : فان رأيت يامعلم الخير أن تكشف عن هذا الغطاء وترفع هذا الستر وتعرفنا منه ما وهب الله لك من هذا الغيب لنكون شاكرين وتكون من المشكورين فقال : نعم أما العامة فانها تلهج بحديث كبرائها وساستها لما ترجو من رخاء العيش وطيب الحياة وسعة المال ودرور (١) المنافع واتصال الجلب ونفاق السوق وتضاعف الربح . فأما هذه الطائفة العارفة بالله العاملة لله فانها مولَعة أيضاً بحديث الأمراء والجبابرة العظماء لتقف على تصاريف قدرة الله فيهم وجريان أحكامه عليهم ونفوذ مشيئته في محابهم ومكارههم في حال النعمة عليهم والانتقام منهم ألا ترونه قال جل ثناؤه : (حتى اذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فاذا هم مبلسون (٢) . وبهذا الاعتبار يستنبطون خوافي حكمته ويطلعون على تتابع نعمته وغرائب نقمته وهاهنا يعلمون أن كل ملك سوى ملك الله زائل وكل نعيم غير نعيم الجنة حائل ويصير هذا كله سبباً قوياً لهم في الضرع الى الله واللياذ بالله والخشوع لله والتوكل على الله ويتبعثون به من حران (٣) الاباء الى انقياد الاجابة وينتبهون من رقدة الغفلة ويكتحلون باليقظة من سنة السهو والبطالة ويجدون في أخذ العتاد واكتساب الزاد الى المعاد ويعملون في الخلاص من هذا المكان الحرج بالمكاره المحفوف بالرزايا الذي لم يفلح فيه أحد الا بعد أن هدمه وثلمه (٤) وهرب منه ورحل عنه الى محل لا داء فيه ولا غائلة ، ساكنه خالد ومقيمه مطمئن والفائز به منعم والواصل اليه مكرم وبين الخاصة والعامة في هذه الحال وفي غيرها فرق يضح لمن رفع الله طرفه اليه وفتح باب السر فيه عليه وقد يتشابه الرجلان في فعل . وأحدهما

(١) سيلانها وكثرتها .(٢) ابلس انكسر وحزن ويئس من رحمة الله
(٣) حرن بالمكان لم يبرح منه (٤) أحدث فيه خللاً

مذموم والآخر محمود وقد رأينا مصلياً الى القبلة وقلبه في طر (١) ما في كم الآخر فلا تنظروا من كل شيء الى ظاهره الا بعد أن تصلوا بنظركم الى باطنه فان الباطن اذا واطأ الظاهر كان توحداً واذا خالفه الى الحق كان وحدة واذا خالفه الى الباطل كان ضلالة . وهذه المقامات مرتبة لأصحابها وموقوفة على أربابها ليس لغير أهلها فيها نفس ولا لغير مستحقها منها قبس .

قال الشيخ الصوفي : فوالله ما زال ذلك الحكيم يحشوا آذاننا بهذه وما أشبهها ويملأ صدورنا بما عنده حتى سررنا وانصرفنا الى متعشانا وقد استفدنا على يأس منا فائدة عظيمة لو تمنينا بالغرم الثقيل والسعي الطويل لكان الربح معنا والزيادة في أيدينا (٢) .

في سبيل السعادة واليقين

للامام الغزالي (٣) رحمة الله عليه

وكان قد ظهر عندي انه لا مطمع لى فى سعادة الآخرة الا بالتقوى ، وكف النفس عن الهوى ، وان رأس ذلك كله قطع علاقة القلب عن الدنيا بالتجافى (٤) عن دار الغرور ، والانابة الى دار الخلود والاقبال بكنه الهمة على الله تعالى ، وان ذلك لا يتم الا بالاعراض عن الجاه والمال ، والهرب عن الشواغل والعلائق .

ثم لاحظت أحوالى فاذا أنا منغمس (٥) فى العلائق وقد أحدقت (٦)

(١) الطر الشق والقطع والمراد السرقة والطرارون الذين يسرقون ما فى جيوب الناس (٢) الامتاع والمؤانسة (٣) ابو حامد محمد بن محمد بن احمد الغزالى الملقب حجة الاسلام زين الدين الطوسى . من أئمة المسلمين واعلام العلم والدين . ولد سنة ٤٥٠ هـ وقرأ على علماء بلده وعلى امام الحرمين وتخرج فى مدة قريبة ، ووصل الى أقصى ما يصل اليه عالم من المجد والسمو وانتهت اليه الرئاسة العلمية فى بغداد ثم اعتزل التدريس وخرج فى طلب السعادة واليقين حتى نالهما ثم عكف على العبادة والتربية وافادة المسلمين ، من أشهر كتبه احياء علوم الدين ، واسلوب الغزالى اسلوب طبعى قوى يتدفق بالحياة ، توفى سنة ٥٠٥ هـ (٤) التباعد (٥) داخل (٦) أحاطت

بى من الجوانب ، ولاحظت أعمالى وأحسنها التدريس والتعليم ، فاذا أنا فيها مقبل على علوم غير مثهمة ، ولا نافعـــة فى طريق الآخرة . ثم تفكرت فى نيتى فى التدريس فاذا هى غير خالصة لوجه الله تعالى بل باعثها ومحركها طلب الجاه وانتشار الصيت فتيقنت أنى على شفا (١) جرُف(٢)هار(٣)وأنى قد اشفيت على النار انلم أشتغلْبتلافىالأحوال ، فلم أزل أتفكر فيه مدة وأنا بعد على مقام الاختيار أصمّم العزم على الخروج من بغداد ومفارقة تلك الأحوال يوما وأحل العزم يوما وأقدّم فيه رجلا وأؤخر عنه أخرى لا تصفو لى رغبة فى طلب الآخرة بكرة الا ويحمل عليه جند الشهوة حملة فيفترها عشية ، فصارت شهوات الدنيا تجاذبنى بسلاسلها الى المقام ومنادى الايمان ينادى الرحيل الرحيل ، فلم يبق من العمر الا قليل ، وبين يديك السفر الطويل ، وجميع ما أنت فيه من العمل والعلم رياء وتخييل ، فان لم تستعدّ الآن للآخرة فمتى تستعد، وان لم تقطع الآن هذه العلائق فمتى تقطع ؟! فبعد ذلك تنبعث الداعية وينجزم العزم على الهرب والفرار ثم يعود الشيطان ويقول هذه حالة عارضة واياك ان تطاوعها فانها سريعة الزوال ، وان أذعنتَ لها وتركت هذا الجاه العريض والشأن المنظوم الخالى عن التكدير والتنغيص (٤) والأمر المسلم الصافى عن منازعة الخصوم ربما التفتت اليه نفسك ولا يتيسر لك المعاودة فلم أزل أتردّد بين تجاذب شهوات الدنيا ودواعى الآخرة قريبا من ستة أشهر ، أولها رجب سنة ثمان وثمانين وأربعمائة ،وفى هذا الشهر جاوز الأمر حد الاختيار الى الاضطرار اذ أقفل الله على لسانى حتى اعتُقِل (٥) عن التدريس فكنت أجاهد نفسى أن أدرس يوما واحدا تطييبـــا لقلوب المختلفة،وكان لا ينطق لسانى بكلمة واحدة ولا أستطيعها البتة. ثم أورثت

---

(١) حرف كل شىء وحدُّه (٢) بضمتين ج جرُفة وبسكون الراء ح اجرُف الجانب الذى اكله الماء من حاشية النهر (٣) هار يهور هورا البناءَ انهدم فهو هائر ويقا ل أيضا هارٍ على القلب كما فى شاكى السلاح (٤) مرادف للتكدير (٥) اعتقِل لسانه اى حُبِس عن الكلام

هذه العقلة فى اللسان حزنا فى القلب بطلت معه قوة الهضم ومراءة(1) الطعام والشراب، فكان لا ينساغ لى شربة ولا تنهضم لى لقمة وتعدّى الى ضعف القوى حتى قطع الأطباء طمعهم عن العلاج وقالوا هذا أمر نزل بالقلب ومنه سرى الى المزاج فلا سبيل اليه بالعلاج الا بأن يتروح السر عن الهم الملم • ثم لما أحسست بعجزي وسقط بالكلية اختيارى التجأت الى الله تعالى التجاء المضطر الذي لا حيلة له فأجابنى الذى يجيب المضطر اذا دعاه وسهل على قلبى الاعراض عن الجاه والمال والاولاد والاصحاب ، وأظهرت عزم الخروج الى مكة وأنا أورّى(2) فى نفسى سفر الشام حذرا من أن يطّلع الخليفة وجملة الأصحاب على عزمى فى المقام بالشام ، فتلطفت بلطائف الحيل فى الخروج من بغــداد على عزم أن لا أعاودها أبــدا ، واستهدفت (3) لائمة أهل العراق كافة اذ لم يكن فيهم من يجوّز ان يكون الاعراض عما كنت فيه سببا دينيا اذ ظنوا ان ذلك هو المنصب الأعلى فى الدين وكان ذلك مبلغهم من العــلم • ثم ارتبك (4) النــاس في الاستنباطات وظن من بعد عن العراق ان ذلك كان لاستشعار من جهة الولاة واما من قرب مــن الولاة فكان يشاهد الحاحهم فى التعلق بى والانكباب علىّ واعراضى عنهم وعن الالتفات الى قولهم فيقولون هذا أمر سماوى وليس له سبب الا عين أصابت أهل الاسلام وزمرة العلم ، ففارقت بغداد وفرّقت ما كان معى من المال ولم أدخر الا قدر الكفاف (5) وقوت الأطفال ترخصا بأن مال العراق مرصد للمصالح لكونه وقفا على المسلمين ، فلم أر فى العالم مالاً يأخذه العالم لعياله أصلح منه • ثم دخلت الشام وأقمت به قريبا من سنتين لا شغل لى الا العزلة والخلوة والرياضة والمجاهدة اشتغالا بتزكية النفس وتهذيب الأخلاق وتصفية القلب لذكر الله تعالى كما كنت حصّلته من علم الصوفية

---

(1) اى الهنــاء (2) اى اريده واظهر غيره (3) اى صرت غرضا يرمى علىّ بالأقاويل (4) اضطرب (5) ما كفى عن الناس وأغنى

فكنت أعتكف مدة فى مسجد دمشق أصعد منارة المسجد طول النهار وأغلق بابها على نفسى • ثم رحلت منها الى بيت المقدس أدخل كل يوم الصخرة وأغلق بابها على نفسى • ثم تحركت فىّ داعية فريضة الحج والاستمداد من بركات مكة والمدينة وزيارة رسول الله تعالى عليه السلام بعد الفراغ من زيارة الخليل صلوات الله عليه فسرت الى الحجاز • ثم جذبتنى الهمم ودعوات الأطفال الى الوطن فعاودته بعد أن كنت أبعد الخلق عن الرجوع اليه ، وآثرت العزلة به أيضا حرصا على الخلوة وتصفية القلب للذكر وكانت حوادث الزمان ومهمات العيال وضرورات المعاش تغيّر فى وجه المراد ، وتشوش صفوة الخلوة ، وكان لا يصفو لى الحال الا فى أوقات متفرّقة لكنى مع ذلك لا أقطع طمعى منها فتدفعنى عنها العوائق وأعود اليها •

ودمت على ذلك مقدار عشر سنين ، وانكشفت لى فى أثناء هذه الخلوات أمور لا يمكن احصاؤها واستقصاؤها ، والقدر الذى أذكره لينتفع به أنى علمت يقيناً أن الصوفية هم السالكون لطريق الله تعالى خاصة ، وان سيرتهم أحسن السير وطريقهم أصوب الطرق ، وأخلاقهم أزكى الأخلاق ، بل لو جمع عقل العقلاء ، وحكمة الحكماء ، وعلم الواقفين على أسرار الشرع من العلماء ليغيّروا شيئاً من سيرهم وأخلاقهم ويبدلوه بما هو خير منه لم يجدوا اليه سبيلا ، فان جميع حركاتهم وسكناتهم فى ظاهرهم وباطنهم مقتبسة من نور مشكاة النبوة ، وليس وراء نور النبوة على وجه الأرض نور يستضاء به (١)

---

(١) المنقذ من الضلال للغزالى

وفاة السلطان صلاح الدين الأيوبي [1]

للقاضي بهاء الدين المعروف بابن شداد [2]

ولما كانت ليلة السبت وجد كسلا عظيما فما انتصف الليل حتى غشيته حمى صفراوية كانت فى باطنه أكثر من ظاهره ، وأصبح فى يوم السبت سادس عشر صفر سنة تسع وثمانين متكسلا عليه أثر الحمى ، ولم يظهر ذلك للناس لكن حضرت أنا والقاضي الفاضل (٣) ، ودخل ولده الملك الأفضل (٤) وطال جلوسنا عنده وأخذ يشكو من قلقه فى الليل ،

---

(١) هو أبو المظفر يوسف بن أيوب بن شادى الملقب بالملك الناصر ، الذى نصر الله به الاسلام والمسلمين وبيض وجوههم ورد غارة الصليبيين واسترد بيت المقدس بعدما بقى فى أيدى النصارى تسعين سنة وخلص مصر من دولة العبيديين الملاحدة الى غير ذلك من المفاخر والمآثر التى قلما اتفقت لغيره بعد عصر الراشدين ، وُلِد سنة ٥٣٧ هـ ومات اليوم السابع والعشرين من صفر سنة ٥٨٩ هـ ، اقرأ ترجمته مفصلة فى وفيات الأعيان لابن خلكان ، (٢) هو أبو المحاسن يوسف بن رافع ، وُلِد بالموصل سنة ٥٣٩ واتقن علوم الحديث والتفسير والأدب ، كان من ندماء السلطان صلاح الدين وخواصه سمع السلطان منه الحديث وولاه قضاء العسكر والحكم بالقدس، ثم اتصل بعد وفاة السلطان بخدمة الملك الظاهر وحل عنده فى رتبة الوزارة، وكان السبب فى قيام كثير من المدارس بحلب ، ألف فى سيرة السلطان صلاح الدين كتابه « النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية » وهو خير مرجع فى أحوال السلطان وسيره واخلاقه ، فى عبارة منسجمة نقية ، توفى فى صفر سنة ٦٣٧ هـ

(٣) هو أبو على عبد الرحيم البيساني العسقلاني ، كان وزيرا لصلاح الدين ومدبر ملكه وصاحب سره ، توفى سنة ٥٩٦ هـ (٤) هو الملك الأفضل نور الدين على ، أكبر أولاد السلطان صلاح الدين الأيوبى ، استقر فى الملك بدمشق وبلادها المنسوبة اليها بعد وفاة أبيه

وطاب له الحديث الى قريب الظهر ، ثم انصرفنا والقلوب عنده ، فتقدم الينا بالحضور على الطعام فى خدمة الملك الأفضل ، ولم يكن القاضى عادته ذلك ، فانصرف ودخلت أنا الى الايوان وقد مدّ الطعام والملك الأفضل قد جلس فى موضعه فانصرفت وما كان لى قوة على الجلوس استيحاشا وبكى جماعة تفاؤلا بجلوس ولده فى موضعه • ثم أخذ المرض فى تزايد من حينئذ ونحن نلازم التردّد طرفى النهار وندخل اليه أنا والقاضى الفاضل فى النهار مرارا ويعطى الطريق فى بعض الأيام التي يجد فيها خفة وكان مرضه فى رأسه ، وكان من أمارات انتهاء العمر اذ كان قد ألف مزاجه سفرا وحضرا ورأى الأطباء فصده ففصدوه فى الرابع فاشتد مرضه وقلّت رطوبات بدنه ، وكان يغلب عليه اليبس غلبة عظيمة، ولم يزل المرض يتزايد حتى انتهى الى غاية الضعف •

ولقد جلسنا فى سادس مرضه واسندنا ظهره الى مخدة وأحضر ماء فاتر ليشربه عقيب شرب دواء لتليين الطبيعة فشربه فوجده شديد الحرارة فشكا من شدة حرارته ، وعرض عليه ماء ثان فشكا من برده ولم يغضب ولم يصخب ولم يقل سوى هذه الكلمات ، سبحان الله ! الا يمكن أحدا تعديل الماء ، فخرجت أنا والقاضى الفاضل من عنده وقد اشتد بنا البكاء والقاضى الفاضل يقول لى أبصر هذه الأخلاق التى قد أشرف المسلمون على مفارقتها ، والله لو أن هذا بعض الناس لضرب بالقدح رأس من أحضره ، واشتد مرضه فى السادس والسابع والثامن ولم يزل يتزايد ويغيب ذهنه

ولما كان التاسع حدثت عليه غشية وامتنع من تناول المشروب فاشتد الخوف فى البلد وخاف الناس ونقلوا الأقمشة (١) من الأسواق وغشى الناس من الكآبة والحزن ما لايمكن حكايته • ولقد كنت أنا والقاضى

---

(١) قماش البيت متاعه

الفاضل نقعد فى كل ليلة الى أن يمضى من الليل ثلثه أو قريب منه ثم نحضر فى باب الدار فان وجدنا طريقا دخلنا وشاهدناه وأنصرفنا والا عرفونا أحواله وكنا نجد الناس يترقبون خروجنا الى أن يلاقونا حتى يعرفوا أحواله من صفحات وجوهنا

ولما كان العاشر من مرضه حقن (١) دفعتين وحصل من الحقن راحة وحصل بعض خفة وتناول من ماء الشعير مقدارا صالحا ، وفرح الناس فرحا شديدا فأقمنا على العادة الى أن مضى من الليل هزيع (٢) ، ثم أتينا الى الدار فوجدنا جمال الدولة اقبالا فالتمسنا منه تعريف الحال المستجد فدخل وانفذ الينا مع الملك المعظم توران شاه(٣) جبره الله تعالى أن العرق قد أخذ فى ساقيه فشكرنا الله تعالى على ذلك والتمسنا منه أن يمس بقية قدمه ويخبرنا بحاله فى العرق فتفقده ثم خرج الينا وذكر أن العرق سابغ ، وانصرفنا طيبة قلوبنا ، ثم أصبحنا فى الحادى عشر من مرضه وهو السادس والعشرون من صفر فحضرنا بالباب وسألنا عن الأحوال فأخبرنا بأن العرق أفرط حتى نفذ فى الفراش ثم فى الحصر وتأثرت به الأرض وان اليبس قد تزايد تزايدا عظيما وحارت فى القوة الأطباء

.... ولما كانت ليلة الأربعاء السابع والعشرين من صفر وهى الثانية عشرة من مرضه اشتد مرضه وضعفت قوته ووقع من الأمر فى أوله وحال بيننا وبينه النساء ، واستحضرت أنا والقاضى الفاضل تلك الليلة وابن

---

(١) حقَنَ المريض داواه بالحقنة (٢) الطائفة من اللَّيل ، أو نحو ثلثه وربعه (٣) هو الملك المعظم شمس الدولة فخر الدين بن نجم الدين أيوب بن شاذى اخو صلاح الدين الأيوبى توفى سنة ٥٧٦ هـ

الزكي (١) ولم يكن عادته الحضور فى ذلك الوقت وحضر بيننا الملك الأفضل وأمر أن نبيت عنده فلم ير القاضى الفاضل ذلك رأيا ، فان الناس كانوا ينتظرون نزولنا من القلعة فخاف ان لم ننزل أن يقع الصوت فى البلد وربما نهب الناس بعضهم بعضا، فرأى المصلحة فى نزولنا واستحضار الشيخ أبى جعفر امام الكلاسة (٢) وهو رجل صالح ليبيت بالقلعة حتى اذا احتضر رحمه الله بالليل حضر عنده وحال بينه وبين النساء وذكره الشهادة وذكره الله تعالى ففعل ذلك ونزلنا وكل منا يود فداءه بنفسه ، وبات فى تلك الليلة على حال المنتقلين الى الله تعالى ، والشيخ أبو جعفر يقرأ عنده القرآن ويذكره الله تعالى ، وكان ذهنه غائبا من ليلة التاسع لا يكاد يفيق الا فى أحيان • وذكر الشيخ أبو جعفر انه لما انتهى الى قوله تعالى هُوَ اللهُ الَّذِى لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ عَالِمُ الغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ سمعه وهو يقول رحمة الله عليه ، صحيح ، وهذه يقظة فى وقت الحاجة وعناية من الله تعالى به فلله الحمد على ذلك •

وكانت وفاته بعد صلاة الصبح من يوم الاربعاء السابع والعشرين من صفر سنة تسع وثمانين وخمسمائة ، وبادر القاضى الفاضل بعد طلوع الصبح فى وقت وفاته ووصلتُ وقد مات وانتقل الى رضوان الله ومحل كرمه وجزيل ثوابه • ولقد حُكِيَ لى انه لما بلغ الشيخ أبو جعفر الى قوله تعالى لَا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ تبسم وتهلّل وجهه وسلمها الى ربه • وكان يوما لم يُصَب الاسلام والمسلمون بمثله منذ

---

(١) هو أبو المعالى محى الدين محمد بن أبى الحسن على كانت له عند السلطان صلاح الدين المنزلة العالية وكان ذا فضائل عديدة من الفقه والأدب وغيرهما تولى القضاء بدمشق ، توفى سنة ٦٦٨ هـ (٢) الكلاسة حىٌ خلف الباب الشمالى لصحن الجامع الأموى فى دمشق

فقدوا الخلفاء الراشدين وغشي القلعة والبلد والدنيا من الوحشة ما لا يعلمه الا الله تعالى • وبالله لقد كنت أسمع من بعض الناس أنهم يتمنون فداءه بنفوسهم وماسمعت هذا الحديث الا على ضرب من التجوّز والترخص الا فى ذلك اليوم فانى علمت من نفسى ومن غيرى انه لو قبل الفداء لفدى بالنفس •

ثم جلس ولده الملك الأفضل للعزاء فى الايوان الشمالى وحفظ باب القلعة الا عن الخواص من الأمراء والمعمّمين ، وكان يوما عظيما وقد شغل كل انسان ما عنده من الحزن والأسف والبكاء والاستغاثة من أن ينظر الى غيره وحفظ المجلس عن أن ينشد فيه شاعر أو يتكلم فيه فاضل وواعظ • وكان أولاده يخرجون مستغيثين الى الناس فتكاد النفوس تزهق لهول منظرهم ودام الحال على هذا الى ما بعد صلاة الظهر • ثم اشتغل بتغسيله وتكفينه فما أمكننا أن ندخل فى تجهيزه ما قيمته حبة واحدة الا بالقرض (١) حتى فى ثمن التبن الذى بلّت(٢) به الطين، وغسله الدولعى الفقيه ، ونهضت الى الوقوف على غسله فلم تكن لى قوة تحمل ذلك المنظر وأُخرج بعد صلاة الظهر فى تابوت مسجى بثوب فُوط (٣) وكان ذلك وجميع ما احتاج اليه من الثياب فى تكفينه قد أحضره القاضى الفاضل من وجه حَلّ عرفه ، وارتفعت الأصوات عند مشاهدته وعظم من الضجيج والعويل ما شغلهم عن الصلاة ، فصلّى عليه الناس أرسالا(٤)، وكان أول من أمّ بالناس القاضى محى الدين بن الزكى ، ثم أعيد الى الدار التي فى البستان وكان متمرّضا بها ، ودفن فى الصّفّة الغربية منها • وكان نزوله فى حفرته قدس الله روحه ونوّر ضريحه قريبا من صلاة العصر ثم

---

(١) لأنه لم يخلف فى خزانته غير سبعة واربعين درهما وجرم واحد صورى وهذا من دخل الديار المصرية والشام وبلاد الشرق واليمن ، ولم يخلف داراً ولا عقاراً (٢) بلّه بشىء من الماء (٣) الفوطة ما يأتزر به الخدم ، جمعه فُوَط (٤) الرسل الجماعة ، القطيع من كل شىء ، جمعه ارسال

نزل فى أثناء النهار ولده الملك الظافر وعزّى الناس فيه وسكّن قلوب الناس ، وكان قد شغلهم البكاء عن الاشتغال بالنهب والفساد فما وجد قلب الا حزين ولا عين الا باكية الا من شاء الله . ثم رجع الناس الى بيوتهم أقبح رجوع ولم يعد أحد منهم فى تلك الليلة الا نحن ، حضرنا وقرأنا وجددنا حالاً من الحزن .

واشتغل فى ذلك اليوم الملك الأفضل بكتابة الكتب الى عمه واخوته يخبرهم بهذا الحادث . وفى اليوم الثاني جلس للعزاء جلوسا عاما واطلق باب القلعة للفقهاء والعلماء وتكلم المتكلمون ولم ينشد شاعر ثم انفض المجلس فى ظهر ذلك اليوم واستمر الحال فى حضور الناس بكرة وعشية وقراءة القرآن والدعاء له رحمة الله عليه واشتغل الملك الأفضل بتدبير أمره ومراسلة اخوته وعمه

ثم انقضت تلك السنون وأهلها فكأنها وكأنهم أحلام (١)

علو الهمة

لعبد الرحمن بن الجوزى (٢)

ما ابتلى الانسان قط بأعظم من علو همته . فان من علت همته يختار المعالى ، وقد لا يساعد الزمان ، وقد تضعف الآلة ، فيبقى فى عذاب . وانى أعطيت من علو الهمة طرفا فأنا به فى عذاب ، ولا أقول ليته لم يكن فانه انما يحلو العيش بقدر عدم العقل ، والعاقل لا يختار زيادة اللذة بنقصان

(١) النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية للقاضي بهاء الدين المعروف بابن شداد (٢) ابو الفرج عبد الرحمن بن ابى الحسن على الجوزى كان علامة عصره وامام وقته فى الحديث والتاريخ وصناعة الوعظ صنف فى فنون عديدة وكانت ولادته بطريق التقريب سنة ثمان وقيل عشر وخمسمائة وتوفى ليلة الجمعة ثانى عشر من رمضان سنة ٥٩٧ هـ ببغداد وله كتاب المنتظم فى التاريخ ، وتلبيس ابليس فى نقد عصره ، وصفة الصفوة ، وسيرة عمر بن الخطاب وغير ذلك من الكتب النافعة

العقل . ولقد رأيت أقواما يصفون علو هممهم ، فتأملتها فاذا بها فى فن واحد ولا يبالون بالنقص فيما هو أهم ، قال الرضى

ولكل جسم فى النحول بلية وبلاء جسمى من تفاوت همتى

فنظرت فاذا غاية أمله الامارة . وكان ابو مسلم الخراسانى فى حال شبيبته لا يكاد ينام ، فقيل له فى ذلك فقال : ذهن صاف ، وهمٌ بعيد ، ونفس تتوق(١) الى معالى الأمور ، مع عيش كعيش الهمج (٢) الرعاع (٣). قيل : فما الذى يبرّد غليلك (٤) . قال : الظفر بالملك . قيل : فاطلبه ، قال : لا يطلب الا بالأهوال ، قيل : فاركب الأهوال ، قال : العقل مانع ، قيل : فما تصنع ؟ قال : سأجعل من عقلى جهلا ، وأحاول به خطرا لا ينال الا بالجهل ، وأدبر بالعقل ما لا يحفظ الا به ، فان الخمول أخو العدم(٥). فنظرت الى حال هذا المسكين فاذا به قد ضيّع أهمّ المهمات وهو جانب الآخرة ، وانتصب فى طلب الولايات . فكم فتك وقتل حتى نال بعض مراده من لذات الدنيا ، ثم لم يتنعم فى ذلك اكثر من ثمان سنين ، ثم اغتيل (٦) ونسي تدبير العقل فقتل ومضى الى الآخرة على أقبح حال ، وكان المتنبّى يقول :

وفى الناس من يرضى بميسور عيشه(٧) ومركوبه رجلاه والثوب جِلْدُه
ولكن قلبا بين جنبىّ ماله مدى ينتهى بى فى مراد أحدُّه
ترى جسمه يكسى شفوفا (٨) تربُّه فيختار أن يكسى دروعا تهده (٩)

---

(١) تساق (٢) الرعاع من الناس الحمقى (٣) سفلة الناس (٤) العطش الشديد (٥) العدم والعُدْم والعَدَم الفقدان وغلب على فقدان المال والفقر (٦) أهلك وأخذ من حيث لا يدرى (٧) ما يسر وهو من المصادر التى جاءت على مفعول (٨) جمع شف بالفتح ويكسر الثوب الرقيق (٩) هد البناء هدًا وهدودا هدمه شديدا

فتأملت هذا الآخر فاذا نهمته (١) فيما يتعلق بالدنيا فحسب . ونظرت الى علو همتى فرأيتها عجبا . وذلك اننى أروم (٢) من العلم ما أتيقن انى لا أصل اليه ، لأننى أحبُّ نيل كل العلوم على اختلاف فنونها ، وأريد استقصاء (٣) كل فرد . هذا أمر يعجز العمر عن بعضه ، فان عرض لى همة فى فن قد بلغ منتهاه رأيته ناقصا فى غيره . فلا أعدُّ همته تامة . مثل المحدث فاته الفقه . والفقيه فاته علم الحديث . فلا أرى الرّضَى بنقصان من العلوم الا حادثا عن نقص الهمة . ثم انى أروم نهاية العمل بالعلم ، فأتوق الى ورع بِشر (٤) ، وزهـادة معروف (٥) ، وهذا مع مطالعة التصانيف وافادة الخلق ومعاشرتهم بعيـد" . ثم انى أروم الغنى عن الخلق ، واستشرف الافضال عليهم . والاشتغال بالعلم مانع من الكسب . وقبول المنن مما تأباه الهمة العالية . ثم انى أتوق الى طلب الأولاد ، كما أتوق الى تحقيق التصانيف ، لبقاء الخلفان (٦) نائبين عنى بعد التلف . وفى طلب ذلك ما فيه من شغل القلب المحب للتفرد . ثم انى أروم الاستمتاع بالمستحسنات ، وفى ذلك امتناع من جهة قلة المال ، ثم لو حصل فرق جمع الهمة . وكذلك أطلب لبدنى ما يصلحه من المطاعم والمشارب ، فانه متعود للترفه (٧) واللطف ، وفى قلة المال مانع ، وكل ذلك جمع بين اضداد . فأين أنا وما وصفته من حال من كانت غاية همته الدنيا . وأنا لا أحب أن يخدش حصول شىء من الدنيا وجه دينى بسبب . ولا أن يؤثر فى علمى ولا فى عملى . فواقلقى من طلب قيام الليل . وتحقيق الورع مع اعادة العلم . وشغل القلب بالتصانيف . وتحصيل ما يلائم البدن من

---

(١) حاجته (٢) أريد (٣) بلوغ الغاية (٤) ابو نصر بشر بن الحارث بن عبد الرحمن المروزى المعروف بالحافى كان من كبار الأولياء توفى سنة ٢٢٦ هـ (٥) ابو محفوظ معروف بن فيروز الكرخى كان من كبار الأولياء توفى سنة ٢٠٠ هـ (٦) جمع خلفة ما يبقى أو يتبع (٧) للتنعم

المطاعم . وواأسفى على ما يفوتنى من المناجاة فى الخلوة مع ملاقاة الناس وتعليمهم . ويا كدر الورع مع طلب ما لا بد منه للعائلة (١) . غير انى قد استسلمت لتعذيبى ، ولعل تهذيبى فى تعذيبى ، لأن عليان الهمة تطلب المعالى المقربة الى الحق عز وجل . وربما كانت الخِيَرة فى الطلب دليلا الى المقصود . وها أنا أحفظ أنفاسى من أن يضيع منها نفس فى غير فائدة ، وان بلغ همى مراده ، والا فنية المؤمن أبلغ من عمله (٢) .

بين شيخ ونفسه

للشيخ محى الدين بن عربى (٣)

قلتُ لنفسى : وعزّة من جبلكِ على المخالفة ، وجعلك محلاً لكل وصف مذموم ، لا اتركنَّك على دعواك حتى أعرض أحوالك كلها على كتاب الله تعالى وسنّة رسوله صلى الله عليه وسلم ، فان وافقت ذلك ولم أجد منك خللاً ، سلّمت لك فيما أردت أن تقيمي عليَّ من سلطانك ، والله يقول : لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ وقال ابن مسعود كن انت المحدث اذا سمعته يقول : يا أيُّها الَّذِينَ

(١) عائلة الرجل اهل بيته الذين يعولهم (٢) صيد الخاطر لابن الجوزى
(٣) هو محمد بن على بن محمد ، الشيخ محى الدين أبو بكر الطائى الحاتمى الاندلسى المعروف بابن عربى ، ولد سنة ٥٦٠ هـ بمرسية بالاندلس وطلب العلم فى وطنه ، ثم سافر الى مصر ودمشق ومكة وبغداد واقام فى بلاد الروم فى طلب العلم والرجال والسياحة ثم استوطن دمشق حيث توفى سنة ٦٣٨ هـ
كان آية من آيات الله فى الذكاء والتفنن فى العلوم وكثرة التأليف . قال الذهبى « كان ذا توسع فى الكلام وذكاء وقوة خاطر وحافظة وتدقيق فى التصوف وتآليف جمة فى العرفان » ومن تحقيقاته وآرائه ما لا يزال موضع خلاف وحارت الأذهان فيه ، ويرجح كثير من أهل العلم ان كثيراً من كلامه مدسوس عليه ، وهو ذو قلم سيّال ، قوىُّ الانشاء يستحق أن يُعَدَّ من الطبقة العالية من المنشئين ، وقد تتبع بعضهم مؤلفاته فوجدها تزيد على الف مؤلَّف .

آمَنُوا ، وان وجدتكِ دون ذلك فأنا ألطف بكِ وأرحمك بأن أمشي بك على أحوال أهل الصُّفَّة الذين تنتسبين اليهم (١) وعلى أحوال أهل الصفوة من الصحابة الأعلام فيهم ، فان خرجتِ مع واحد منهم فى حال مّا ، فأنا أنزل معك وأرضى عنك ، وان لم أجد مشيت بك على تابعيهم على نحو ما فعلتُ بك من الصحابة ، فان قصرت عن أحوالهم مشيتُ بك على تابعي تابعيهم وتابعي تابعي تابعيهم فاما أن تقفى مع واحد منهم ، واما أن تقصرى عن شأوهم (٢) فالنّار أولى بك واجعل حكمتك ومعرفتك كدرهم زائف (٣) عند صيرفىّ ناقد ،

فقالت ، وقالت بعض حق ، أمّا النبى عليه الصلاة والسّلام فلا أعرض حالى مع حاله أدَباً معه فان فلك النبوءة ليس لنا فيه قدم ، ولا تقوم لك به علىّ حجة ، فانه البحر الذى يغترف منه الخاص والعام ، فان شددت علىّ به رخّصت أنا على نفسى به ، وتتعارض الحجج ، وكلّ سنّة ، وأنا أسقط لك الدعوى من أول وهلة ، وأهجم على الرّخَص واتخذها سنة كما وردت وأقنع بالنجاة من النار خاصة وأحرمك التنزل فى المنازل العلا فى ما بقى من عمرك ،

وكذلك القرآن فانه البحر الأعظم الذى لا يدرك قعره ، اذ ليس له قعر يدرك ، ولا ساحل فيبلغ فيه ، هلك الهالكون ونجا المفلحون ، قال الله تعالى : يُضِلُّ به كثيراً وَيَهْدِى به كثيراً ، تالله لو عرضت الملائكة والنبيّون والمرسلون أجمعون أحوالهم على آية من القرآن على حدّ ما يعلمه الله من أسرار ما أودع فيها من الغيوب لبقى الكلّ الى جانبها كلا شيء عندها .... فليس بانصاف منك ان تعرض حالى على كتاب الله الأقوى الأقهر ، ولكن حسبك من دون القرآن والنبوءة من

(١) لأن الصوفية ينتسبون الى أهل الصفة ويقتدون بهم (٢) الأمد والغاية يقال فلان بعيد الشأو أى عالى الهمة (٣) زاف الدرهم صار مردوداً بغشّ فيه .

المؤمنين ، فخذ معي في مراتب الولاية ، وأنا المنقادة السميعة ، السَّهلة المطيعة ، ارجع معك عليَّ باللائمة ان قصدت وأنصفك من نفسي ان أُحصِرتُ (١) ، ولا تبقى في محلِّ الغبن (٢) والخسران ، فانك أنا كما أنا أنت فلستَ غيري ولست غيرك ، وما لك عليَّ حجَّة وقد أعطيتُ يد الانقياد في التمحيص والاختبار ،

فتعجَّبتُ والله من نفس تنقاد لهَذا المقدار ، فتلوتُ كلامها وما جاءت به فوجدتها قد انطوت على مكر وخداع ، وأمر هائل لايستطاع ، وقد شابت الأمر بالشرك ، وابطنت الحرب في السلم ، فتعاميتُ عنها في ذلك ، وحرَّرتُ نفسي معها في المناظرة ، ولم أنتقِ لها من أحوالهم الا ما لم يخطر لها على بال ولا اتصفت به في حال ....

فقلت لها هاتِ أخرجي أسنى ما تدَّعيه وأعلى ما تحفظينه ، وأنا أعرض أولاً حال أَهل الصفة وما كانوا عليه مجملاً من غير تفصيلهم بأسمائهم رغبة في التخلص في أسرع حال ،

قالت : قُل ، قلت لها : عن أبي هريرة رضي الله عنه ، قال رأيت سبعين من أهل الصفة يصلّون في ثوب ، فمنهم من يبلغ ركبتيه ، ومنهم أسفل من ذلك ، فاذا ركع أحدهم قبض عليه مخافة أن تبدو عورته والله ما اجتمع لهم ثوبان ، ولا حضر لهم من الأطعمة لونان ، ناشدتكِ الله يا نفس هل كنتِ قط أفقر منك الآن في حرم الله تعالى ، فقالت لا ، قلتُ لها الحمد لله ترين لك قميصاً وازاراً وسراويل ، وجبَّة وعمامة ، ونعلاً وبُردة ، وخبزاً نقياً ولحماً طريا وحلواء ، ويخدمكِ الرؤساء ويمتثل أمرك ، تقولين افعل فيفعل ، تقولين لا تفعل ، فلا يفعل ، أين أنت منهم ، وانَّ أهل الصفّة ماتوا والله بحوائجهم في صدورهم على ما رويناه عن عبد الله بن عمرو بن العاص عن النبي صلى الله عليه وسلم يقول فيهم ، فقراء المهاجرين الذين تتقى بهم المكاره ، يموت أحدهم وحاجته في

---

(١) حَصِر عييَ في النطق (٢) الضعف والنسيان .

صدره لا يستطاع له قضاء ، أخبر بهذا عن الله عنهم ، بالله يا نفس حصلت فى هذا المقام ؟

قالت لا والله ! قلتُ لها ، فلستِ منهم ، استحى من الله وارجعى على عقبك ولا تطاولى (١) لقوم لستِ منهم فى شيء ،

فقالت علىَّ بغيرهم ، فليس لى هنّا قدم ، ••••••••

•••••• قلت لها نعم ، هذا عمر بن الخطاب رضى الله عنه روينا بالسند المتصل اليه ، انه لما أسلم قال له النبى صلى الله عليه وسلم يا عمر استره ، قال رضى الله عنه : قلت والذى بعثك بالحق لأعلننّه كما أعلنت الشّرك ، ناشدتك (٢) الله يانفس هل قمتِ لى قط فى دين الله تعالى حامية عنه بأمر بمعروف تعيَّن عليك أو نهى عن منكر في موطن دونه النفوس الحداد ، وعدم الناصر يغلب فيه على ظنّك أنك تقتلين فيه ؟

قالت لا والله ، وانما قاربتُ هذا المقام ولكن بسياسة وطّنتُ (٣) بها نفوس الأعداء بحيث أن غلب على ظنّى الأمن والعافية فى دمى ،

قلت لها : فارجعى ، قالت : نعم ، هات غيره ،

قلت هذا أبو عبد الله ثوبان مولّى رسول الله صلى الله عليه وسلم روينا عنه بالسّند الصحيح ، انه سمع النبى صلى الله عليه وسلم يقول من يتقبّل لى واحدة ، تقبلت له الجنّة ، قال أنا يارسول الله ، قال : لا تسأل أحداً شيئاً فكان رضى الله عنه ربما سقط السوط من يده وهو على بعيره فلا يسأل أحداً أن يناوله ايّاه ، حتى ينزل اليه ويأخذه ، ناشدتك الله يانفس هل اقدمت فى مخاطباتك هذا الاقدام على أمر مجهول، ثم لو اقدمت عليه هل كنت تفين به هذا الوفاء ، ولا تجنحين الى تأويل فيه لحصولك فى مقام أنت فيه بحكم التخير ؟ !

قالت : كل ذلك لم يكن منّى !

قلتُ لها : فلا مع الأحرار ، ولا مع الموالى !

---

(١) طاوله غالبه فى الطّول او الطّول وفاخره (٢) ناشده مناشدة ونشاداً حلّفه (٣) وطن نفسه على الأمر وللأمر هيأها لفعله وحملها عليه .

- فصغرت وقالت : انتقل بى عن هذا ،

قلت : نعم هذا عثمان بن عفّان رضى‌الله عنه ، روينا بالسّندالصحيح عن شرحبيل بن مسلم ، أن عثمان بن عفّان رضى الله عنه كان يطعم الناس طعام الامارة ويدخل فى بيته فيأكل الخبز والزيت ، ناشدتك الله هل فعلت هذا مع أصحابك قط ، آثرتِهم باللطيف واستأثرت (١) بالخشن ؟

فقالت : لا والله بل كنت على أحد وجهين معهم ، ان لم يكن عندى طعام غير ما جعلت بين أيديهم شاركتهم فيه ، وان كان عندى أرق منه أكلتُ وحدى ذلك مثل الحلوى والخشكنان (٢) وغير ذلك ، وأقول : هذا غذاء ليّن لى ، والبّس على نفسى بهذه الترّهات حتى لا أتنغّص به عند آكلى ، وأقول هذه الاخوان فى مقام التربية ، فينبغى أن لا أُزرع حَبةّ الشهوات فى قلوبهم باطعام لهم مثل هذا ، ومقامى لا يؤثّر فيه هذا الطعام ، فلا بأس بتناولى ايّاه فآكله على هذا الحال ، وقد عميت‌عن مطالبة الحق فى موازنة المعاشرة ، وأدناها أن أشاركهم فى خشونتهم لما أعرفه من تأثير الحقائق ، ولا شك أن عثمان رضى الله عنه ما فعل هذا فى بدايته فتجد عنه مندوحة (٣) وانما فعل هذا بعد التمليك ،

قلت لها : بارك الله فيكِ يا نفس ، اذا انصفتنى ! قالت : الحق أحق أن يتبع ، هات غيره ، •••••

••••• قلت لها : نعم ! هذا سلمان الفارسى رضى الله عنه دونك فى النسب الطينى (٤) ، وامامك فى النّسب الدينى ، روينا بالسند المتصل عن رجل من أشجع ، قال : سمع الناس بالمدائن أن سلمان كان فى المسجد فأتوه ، فجعلوا يثوبون (٥) اليه حتى اجتمع اليه نحو من الألف ، قال فقام فجعل يقول : اجلسوا اجلسوا ، فلما جلسوا افتتح سورة

---

(١) استأثر بالشيء على الغير استبدّ به وخصّ به نفسه (٢) معرب من الفارسية لعلّه خشكنان (٣) السعة والفسحة (٤) لأنه فارسى والشيخ ابن عربى طائى عربى (٥) ثاب الناس عادوا واجتمعوا.

يوسف يقرأها ، قال فجعلوا يتصدَّعون (١) ، ويذهبون حتى بقى نحو من مائة فغضب ، وقال الزخرفَ من القول أردتم ؟ قرأت عليكم كتاب الله فذهبتم ، ناشدتك الله يانفس ، فهذا مجلس حق فاصدقيني ، هل سمعت قط كتاب الله فلم تهتزّى ، فلما أنشد شعر اهتززت وجُننت وأخذك الحال ؟

فقالت والله ذلك ديدنى (٢) ودأبى ، وأزيدك والله ما هو أنحس من هذا مما أنا عليه ، انى أقرأ القرآن ويدركنى العياء وأقول لك والله لا أقدر على شيء وقد ضعفت وكلّ خاطرى ، فتجيبنى الى ذلك وتترك المصحف من يدك او التلاوة من لسانك ، فما تلبث أن نبّهتك على مقطوعة من كلامك أو كلام غيرك فى أى فنّ كانت ، فتفتح فاك بها وتنشدها وتترنّم فيها وترتّلها مترسّلا على طريقة تستحسنها نشيطا طيب النفس ، ما بك من كسل ولا عياً ، فلو كان ذلك الكسل والعيا حقيقة منى لاستصحبك ، وانما ثقل علىّ القرآن وكنت أجعلك فى تلاوته تحدر ولا ترتل عسى تستريح ، وكذلك فى أوراد العبادات التي يجب التثبّت فيها ، وذلك كله خديعة منّى بك أترى هكذا حالة المؤمن ؟ لا والله بل كلام الله للمؤمن ألذّ وأشوق الى سماعه من الظمآن للماء الزلال ، •••••

••••• قلتُ هذا عثمان بن مظعون صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم الذى أوذى فى الله فرضِىَ وتعرّض لذلك ، لما مات دخل عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم حين مات فأكبّ (٣) عليه ثم رفع رأسه ثم حنى الثانية ، ثم رفع رأسه ، ثم حنى الثالثة ، ثم رفع رأسه وله شهيق (٤) فعرفوا انه يبكى فبكى القوم ، فقال اذهب عنها أبا السائب ، فقد خرجت منها ولم تدنس منها بشيء ، روّينا هذا من حديث أبى حامد بن جبلة بسنده الى ابن عباس رضى الله عنهما ، ورويناه أيضاً من حديث أبى بكر بن مالك بسنده الى ابن عباس رضى الله عنهما ، ورويناه أيضاً

(١) يتفرقون (٢) عادتى وشأنى (٣) اقبل وانحنى (٤) تردد البكاء فى الصدر .

من حديث أبي بكر بن مالك بسنده عن عبد ربه بن سعيد المدائني ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم دخل على عثمان بن مظعون وهو في الموت فأكبَّ عليه يقبّله ، فقال رحمك الله يا عثمان ما أصبت من الدنيا ولا أصابت منك ، ناشدتك الله يا نفس فنعمت النفس عهدتك في الانصاف من نفسك خبّريني لو كنت في زمن النبي صلى الله عليه وسلم على هذه الحالة التي انتِ عليها اليوم وتموتين ، هل كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يفعل بك مثل هذا ؟

قالت أما لو جازاني على ما أنا فيه وعليه لخفتُ أن يقول لأصحابه : صلّوا على صاحبكم (١) بل اعتقد والله في شأني أني أقرب الى قوله تعالى « وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِ » ، منّي الى قوله تعالى : « وَصَلِّ عليهم (٢) ان صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ » ، هيهات أن يكبَّ عليَّ أو يقبّلني بل كان يبكي عليَّ شفقة لما يراه من سوء حالي ، وشرّ ما انقلبت اليه فياليته يؤذن له صلى الله عليه وسلم في الصلاة عليَّ ! ....

..... (قلت) هل قنعت يانفس ؟ قالت نعم ! قلت هذه عشرة شهود (٣) كما شرطت لك قد وفيت بذكرهم من خير القرون من صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم أجد لك قدماً مع أحدهم فمن اتبعت أو بمن تأسّيت ؟

فقالت اتّبعت هواي ، فتأسّيت بشيطان مدّع في المعرفة مكبّ على الدنيا مثلي فأثمر لي الدعوى ، وعرّاني من ملابس التقوى ، فقالت، وأنا أتوب الى الله الآن ، واتضرّع اليه في الوفاء والعدل والميزان ، وكما وفيت انت بشهودك العشرة ، ومننت عليَّ بذلك فقد وفيت لكَ بالانصاف والاقرار بالحق ، ولم أمار (٤) ، ولا دافعت الحق بل كنت

---

(١) قاله النبي صلى الله عليه وسلم في حق مديون ليكون تنبيهاً
(٢) أدع لهم (٣) قد قدم الشيخ عشرة شهود واقتضبنا منها ستة(٤)ماري مراءاً جادل ونازع ولاجّ .

سلسة القياد ، وذلك بتوفيق الله وعصمنى الله ممن قال فيهم : « فلما جاءتهم آياتنا مبصرة قالوا هذا سحر مبين ، وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلماً وعلواً » ، ولو عاندت وجحدت لما جنيت على أحد ، الا على نفسى رزقنى الله واياك من توحيده والعلم به سبحانه وتعالى المراتب العلية والمنازل القدسية ، حيث لا تدنيس ولا جهل ولا تلبيس ، انه عليم حكيم (١)

سيد التابعين سعيد بن المسيب

لابن خلكان (٢)

كان سعيد سيد التابعين، من الطراز الأول (٣) جمع بين الحديث والفقه والزهد والعبادة والورع ، سمع سعد بن أبى وقاص وأبا هريرة رضى الله عنهما

قال عبد الله بن عمر رضى الله عنهما لرجل سأله عن مسئلة : ائت ذاك فسله ، يعنى سعيداً ، ثم ارجع الىّ فأخبرنى ، ففعل ذلك وأخبره ، فقال: ألم أخبركم أنه أحد العلماء ، وقال أيضا فى حقه لأصحابه : لو رأى هذا رسول الله صلى الله عليه وسلم لسرّه ، وكان قد لقى جماعة من الصحابة رضى الله عنهم وسمع منهم ، ودخل على أزواج النبى صلى الله عليه وسلم، وأخذ عنهن ، وأكثر روايته المسند عن أبى هريرة رضى الله عنه ، وكان

---

(١) رسالة روح القدس للشيخ محى الدين ابن عربى .

(٢) شيخ المؤرخين البارع فى تصنيفه ، شمس الدين أحمد الأربلى المعروف بابن خلكان ، ولد سنة ٦٠٨ هـ كان اماماً عالماً فقيهاً أديباً شاعراً ، متفرداً فى علم الأدب والتأليف ، ولى قضاء دمشق مرتين ثم عزل وقدم القاهرة ، وافتى ودرّس ودام بها نحو سبع سنين ، ثم أعيد الى قضاء دمشق وسر الناس بعوده ، اعجب علماء التاريخ والمشرقيات بكتابه « وفيات الاعيان » واشتدت عنايتهم به لما يمتاز به من التحرير وغزارة المادة وكثرة الفوائد وحسن العبارة والاقتصاد فى الوصف والبعد عن المبالغة ومعرفة طبقات الناس وما يجيدونه من فنّ ويفوقون فيه ، وهو نتيجة دراسات طويلة وخبرة واسعة ، توفى سنة ٦٨١ هـ (٣) الطراز كلمة فارسية عرّبت واصل معناها بالفارسية التقدير المستوى والمراد هنا من الشكول الجيدة الحسنة المتفوقة

زوج ابنته ، وسئل الزهري ومكحول : من أفقه من أدركتما ؟ فقالا : سعيدُ بن المسيب ، وروى انه قال : حججت اربعين حجة ، وعنه انه قال : ما فاتتني التكبيرة الاولى منذ خمسين سنة ، وما نظرت الى قفا رجل فى الصلاة منذ خمسين سنة لمحافظته على الصف الأول ، وقيل : انه صلى الصبح بوضوء العشاء خمسين سنة وكان يقول : ما أعزت العباد نفسها بمثل طاعة الله ولا أهانت نفسها بمثل معصية الله ، ودعى الى نيّف وثلاثين ألفا ليأخذها فقال : لا حاجة لى فيها ، ولا فى بنى مروان ، حتى ألقى الله فيحكم بينى وبينهم ،

وقال أبو وداعة : كنت أجالس سعيد بن المسيب ففقدنى أياما ، فلما جئته قال : أين كنت ؟ قلت : توفيت أهلى فاشتغلت بها ، فقال : هلا أخبرتنا فشهدناها ، قال : ثم أردت أن أقوم فقال : هلا أحدثت امرأة غيرها ؟ فقلت : يرحمك الله ومن يزوجنى وما أملك الا درهمين أو ثلاثة ؟! فقال : ان أنا فعلت تفعل ؟ قلت : نعم ثم حمد الله تعالى وصلى على النبى صلى الله عليه وسلم وزوجنى على درهمين أو قال على ثلاثة ، قال : فقمت وما أدرى ما أصنع من الفرح ، فصرت الى منزلى ، وجعلت أتفكر ممن آخذ وأستدين ، وصليت المغرب ، وكنت صائما ، فقدمت عشاى لأفطر ، وكان خبزا وزيتا ، واذا بالباب يقرع ، فقلت : من هذا ؟ قال : سعيد ، ففكرت فى كل انسان اسمه سعيد الا سعيد بن المسيب ، فانه لم ير منذ اربعين سنة الا ما بين بيته والمسجد ، فقمت وخرجت ، واذا بسعيد ابن المسيب ، فظننت انه قد بدا له (١) ، فقلت : يا أبا محمد ، هلاّ أرسلت الىّ فآتيك ، قال : لا ، أنت أحق أن تؤتى ، قلت ، فما تأمرنى ؟ قال: رأيتك رجلا عَزَبا (٢) قد تزوّجت فكرهت أن تبيت الليلة وحدك ، وهذه امرأتك ، فاذا هى قائمة خلفه فى طوله ثم دفعها فى الباب وردّ الباب ، فسقطت المرأة من الحياء ، فاستوثقت من الباب ، ثم صعدت الى السطح،

(١) أى ظهر له رأى غير الذى رآه من قبل يريد انه يريد ان يرجع
(٢) بفتحتين من لا أهل له من الرجال والنساء جمعه عُزّاب وأعزاب

فناديت الجيران ، فجاءوني ، وقالوا ، ما شأنك ؟ فقلت : زوّجني سعيد ابن المسيب اليوم ابنته وقد جاء بها على غفلة ، وهاهي فى الدار ، فنزلوا اليها ، وبلغ أمي فجاءت وقالت : وجهي من وجهك حرام ان مسستها قبل أن اصلحها ثلاثة أيام ، فأقمت ثلاثا ثم دخلت بها ، فاذا هي من أجمل الناس وأحفظهم لكتاب الله تعالى ، وأعلمهم بسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم وأعرفهم بحق الزوج ، قال : فمكث شهرا لا يأتيني ولا آتيه ، ثم أتيته بعد شهر وهو فى حلقته ، فسلمت عليه ، فردّ عليّ ولم يكلمني حتى انفضّ من فى المسجد ، فلما لم يبق غيري ، قال : ما حال ذلك الانسان ؟ قلت : هو على ما يحب الصديق ويكره العدو ، قال : ان رابك شيء فالعصا ، فانصرفت الى منزلي ، وكانت بنت سعيد المذكورة خطبها عبد الملك بن مروان لابنه الوليد حين ولاّه العهد ، فأبى سعيد أن يزوجه ، فلم يزل عبد الملك يحتال على سعيد حتى ضربه فى يوم بارد ، وصبّ عليه الماء . قال يحيى بن سعيد : كتب هشام بن اسماعيل والى المدينة الى عبد الملك بن مروان : أن أهل المدينة أطبقوا على البيعة للوليد وسليمان الا سعيد بن المسيّب ، فكتب أن اعرضه على السيف ، فان مضى فاجلده خمسين جلدة وطف به أسواق المدينة ، فلما قدم الكتاب على الوالي دخل سليمان بن يسار (١) وعروة بن الزبير (٢) وسالم بن عبد الله (٣) على

(١) هو أبو أيوب سليمان بن يسار مولى ميمونة زوج النبي صلى الله عليه وسلم وأخو عطاء بن يسار وأحد الفقهاء السبعة بالمدينة كان عالما ثقة عابدا ورعا حجة روى عن ابن عباس وابى هريرة وام سلمة رضى الله عنهم وروى عنه الزهري وجماعة من الأكابر توفى سنة ١٠٧ هـ (٢) هو عروة بن الزبير بن العوام أحد الفقهاء السبعة بالمدينة سمع خالته عائشة أم المؤمنين رضى الله عنها وروى عنه ابن الشهاب الزهري وغيره كانت ولادته سنة ٢٢هـ وتوفى سنة ٩٣ هـ كان عبد الملك يقول : من سره أن ينظر الى رجل من أهل الجنة فلينظر الى عروة بن الزبير (٣) هو سالم بن عبد الله بن عمر الخطاب أحد فقهاء المدينة ومن سادات التابعين وعلمائهم وثقاتهم روى عن ابيه وغيره وروى عنه الزهري ونافع وتوفى فى آخر ذى الحجة سنة ١٠٦ هـ

سعيد بن المسيب ، وقالوا : جئناك فى أمر ، قد قدم كتاب عبد الملك ان لم تبايع ضربت عنقك ، ونحن نعرض عليك خصالا ثلاثا ، فاعطنا احداهن ، فان الوالى قد قبل منك أن يقرأ عليك الكتاب ، فلا تقل لا ولا نعم ، قال : يقول الناس : بايع سعيد بن المسيب ، ما أنا بفاعل ، وكان اذا قال لا لم يستطيعوا أن يقولوا نعم ، قالوا : فتجلس فى بيتك ولا تخرج الى الصلاة أياما ، فانه يقبل منك اذا طلبك من مجلسك فلم يجدك ، قال : فأنا أسمع الاذان فوق أذنى حيّ على الصلاة حيّ على الصلاة ، ما أنا بفاعل ، قالوا : فانتقل من مجلسك الى غيره فانه يرسل الى مجلسك ، فان لم يجدك أمسك عنك ، قال : أفَرَقاً من مخلوق ؟ ما أنا بمتقدم شبرا ولا متأخر ، فخرجوا وخرج الى صلاة الظهر ، فجلس فى مجلسه الذى كان يجلس فيه ، فلما صلى الوالى بعث اليه ، فأتى به ، فقال : ان أمير المؤمنين كتب يأمرنا ان لم تبايع ضربنا عنقك ، قال نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن بيعتين ، فلما رآه لم يجب أخرج الى السدّة(١) فمدت عنقه وسلت السيوف ، فلما رآه قد مضى أمر به فجرد ، فاذا عليه ثياب شعر ، فقال لو علمت ذلك ما اشتهرت بهذا الشأن ، فضربه خمسين سوطا ، ثم طاف به أسواق المدينة ، فلما ردوه والناس منصرفون من صلاة العصر قال : ان هذه لوجوه ما نظرت اليها منذ اربعين سنة ، ومنعوا الناس أن يجالسوه ، فكان من ورعه اذا جاء اليه أحد يقول له : قم من عندى ، كراهية أن يضرب بسببه

قال مالك رضى الله عنه : بلغنى ان سعيد بن المسيب كان يلزم مكانا من المسجد لا يصلى من المسجد فى غيره ، وانه ليالى صنع به عبد الملك ما صنع ، قيل له ان يترك الصلاة فيه ، فأبى الا أن يصلى فيه

وكان يقول : لا تملؤوا أعينكم من أعوان الظلمة الا بانكار من

---

(١) باب الدار وما حولها من الرواق جمعه سدد

قلوبكم ، لكى لا تحبط أعمالكم ، وقيل له ــ وقد نزل الماء فى عينه ــ الا تقدح عينك ؟ قال : لا حتى على من أفتحها

وكانت ولادته لسنتين مضتا من خلافة عمر رضى الله عنه ، وكان فى خلافة عثمان رضى الله عنه رجلا

وتوفى بالمدينة سنة احدى ــ وقيل : اثنتين ، وقيل : ثلاث ، وقيل : أربع ، وقيل : خمس ــ وتسعين للهجرة وقيل : انه توفى سنة خمس ومائة والله أعلم

النبوة المحمدية وآياتها

للحافظ ابن تيمية (١)

وسيرة الرسول صلى الله عليه وسلم من آياته ، وأخلاقه وأقواله وأفعاله وشريعته من آياته ، وأمته من آياته ، وعلم أمته ودينهم من آياته ، وكرامات صالح أمته من آياته ، وذلك يظهر بتدبر سيرته من حين ولد الى أن بعث ، ومن حين بعث الى أن مات ، وتدبر نسبه وبلده وأصله وفصله فانه كان من أشرف أهل الأرض نسباً من صميم (٢) سلالة (٣) ابراهيم الذى جعل الله فى ذريته النبوة والكتاب فلم يأت نبى من بعد ابراهيم الا من ذريته ، وجعل له ابنين اسماعيل واسحاق ، وذكر فى التوراة هذا وهذا ، وبشر فى التوراة بما يكون من ولد اسماعيل ولم يكن فى ولد اسماعيل من ظهر فيما بشّرت به النبوات غيره ، ودعا ابراهيم

(١) هو شيخ الاسلام أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبد الله بن ابى القاسم بن تيمية الحرّانى ثم الدمشقى ، ولد فى عاشر ربيع الاول سنة ٦٦١ هـ وتحول به أبوه من حران سنة ٦٦٧ فسمع من ابن عبد الدائم والقاسم الاربلى والمسلم بن علان وابن ابى عمرو الفخر فى آخرين ، وقرأ بنفسه وتفقه وتمهر وتميَّز وتقدم وصنَّف ودرس وأفتى وفاق الأقران وصار عجبا فى سرعة الاستحضار وقوة الجنان والتوسع فى المعقول والمنقول والاطلاع على مذهب السلف والخلف ، توفى ليلة الاثنين والعشرين من ذى القعدة سنة ٧٢٨ هـ معتقلا (٢) الصميم من كل شىء خالصه ومحضه (٣) النسل والولد

لذرية اسماعيل بأن يبعث فيهم رسولا منهم ، ثم من قريش صفوة (1) بني ابراهيم ، ثم من بنى هاشم صفوة قريش ومن مكة أم القرى ، وبلد البيت الذى بناه ابراهيم ودعا الناس الى حجّه ولم يزل محجوجا من عهد ابراهيم ، مذكورا فى كتب الأنبياء بأحسن وصف ، وكان من أكمل الناس تربية ونشأة ، لم يزل معروفا بالصدق والبرّ والعدل ومكارم الاخلاق وترك الفواحش والظلم وكل وصف مذموم ، مشهودا له بذلك عند جميع من يعرفه قبل النبوة وممن آمن به وكفر بعد النبوة لا يعرف له شيء يعاب به لا فى أقواله ولا فى أفعاله ولا فى أخلاقه ولا جرت عليه كذبة قط ولا ظلم ولا فاحشة

وكان خلقه وصورته من أكمل الصور وأتمها وأجمعها للمحاسن الدالة على كماله ، وكان أميّا من قوم أميّين لا يعرف لا هو ولا هم ما يعرفه أهل الكتاب التوراة والانجيل ، ولم يقرأ شيئا من علوم الناس ولا جالس أهلها ولم يدّع نبوة الى أن أكمل الله له أربعين سنة ، فأتى بأمر هو أعجب الأمور وأعظمها وبكلام لم يسمع الأولون والآخرون بنظيره ، وأخبرنا بأمر لم يكن فى بلده وقومه من يعرف مثله ، ولم يعرف قبله ولا بعده لا فى مصر من الأمصار ولا فى عصر من الأعصار من أتى بمثل ما أتى به ولا من ظهر (2) كظهوره ولا من أتى من العجائب والآيات بمثل ما أتى به ولا من دعا الى شريعة أكمل من شريعته ولا من ظهر دينه على الأديان كلها بالعلم والحجة وباليد والقوة كظهوره ، ثم انه اتبعه أتباع (3) الأنبياء وهم ضعفاء الناس ، وكذّبه أهل الرياسة وعادوه وسعوا فى هلاكه وهلاك من اتبعه بكل طريق كما كان الكفار يفعلون بالأنبياء واتباعهم والذين اتبعوه لم يتبعوه لرغبة ولا لرهبة فانه لم يكن عنده مال يعطيهم ولا جهات يوليهم اياها ، ولا كان له سيف بل كان السيف والمال

(1) الصفوة بالتثليث من كل شيء خالصه وخياره (2) غلب (3) جمع تبَع والتبع يطلق على الواحد والجمع

والجاه مع أعدائه وقد آذوا أتباعه بأنواع الأذى وهم صابرون محتسبون لا يرتدون عن دينهم لما خالط قلوبهم من حلاوة الايمان والمعرفة

وكانت مكة يحجها العرب من عهد ابراهيم فتجتمع فى الموسم قبائل العرب فيخرج اليهم يبلغهم الرسالة ويدعوهم الى الله صابرا على ما يلقاه من تكذيب المكذب وجفاء الجافى واعراض المعرض الى أن اجتمع بأهل يثرب وكانوا جيران اليهود ، قد سمعوا أخباره منهم وعرفوه فلما دعاهم علموا انه النبى المنتظر الذى تخبرهم به اليهود ، وكانوا قد سمعوا من أخباره ما عرفوا به مكانته فان أمره كان قد انتشر وظهر فى بضع عشرة سنة فآمنوا به وتابعوه على هجرته وهجرة أصحابه الى بلدهم وعلى الجهاد معه ، فهاجر هو ومن اتبعه الى المدينة وبها المهاجرون والأنصار ليس فيهم من آمن برغبة دنيوية ولا برهبة الا قليلا من الأنصار اسلموا فى الظاهر ثم حسن اسلام بعضهم ، ثم أذن له فى الجهاد ثم أمر به ولم يزل قائما بأمر الله على أكمل طريقة وأتمها من الصدق والعدل والوفاء ، لا يحفظ له كذبة واحدة ولا ظلم لأحد ، ولا غدر بأحد بل كان أصدق الناس ، وأعدلهم وأوفاهم بالعهد مع اختلاف الأحوال عليه من حرب وسلم ، وأمن وخوف ، وغنى وفقر ، وقلة وكثرة ، وظهوره على العدو تارة ، وظهور العدو عليه تارة ، وهو على ذلك كله ملازم لأكمل الطرق وأتمها ، حتى ظهرت الدعوة فى جميع أرض العرب التى كانت مملوءة من عبادة الأوثان ومن أخبار الكهان (١) ، وطاعة المخلوق فى الكفر بالخالق ، وسفك الدماء المحرمة ، وقطيعة الأرحام ، لايعرفون آخرة ولا معادا ، فصاروا أعلم أهل الأرض ، وأدينهم وأعدلهم ، وأفضلهم حتى أن النصارى لما رأوهم حين قدموا الشام قالوا ما كان الذين صحبوا المسيح بأفضل من هؤلاء ،

وهذه آثار علمهم وعملهم فى الأرض وآثار غيرهم ، يعرف العقلاء

---

(١) جمع كاهن وهو الذى يدعى معرفة الأسرار أو احوال الغيب

فرق ما بين الأمرين ، وهو صلى الله عليه وسلم مع ظهور أمره وطاعـة الخلق له وتقديمهم له على الأنفس والأموال مات صلى الله عليه وسلم ولم يخلّف درهما ولا دينارا ، ولا شاة ولا بعيرا ، الا بغلته وسلاحه ودرعه مرهونة عند يهودى على ثلاثين وسقا (١) من شعير ابتاعها لأهله ، وكان بيده عقار (٢) ، ينفق منه على أهله والباقى يصرفـه فى مصالح المسلمين فحكم بأنه لا يورث ولا يأخذ ورثته شيئا من ذلك وهو فى كل وقت يظهر على يديه من عجائب الآيات وفنون الكرامات ما يطول وصفه ،

ويخبرهم بخبر ما كان وما يكون ، ويأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ، ويحل لهم الطيبات ، ويحرم عليهم الخبائث ، ويشرع الشريعة شيئا بعد شىء حتى أكمـل الله دينه الذى بعث به ، وجاءت شريعتـه أكمل شريعة ، لم يبق معروف تعرف العقول أنه معروف الا أمر به ، ولا منكر تعرف العقول أنه منكر الا نهى عنه ، لم يأمر بشىء فقيل ليته لم يأمر به ، ولا نهى عن شىء فقيل ليته لم ينه عنه ، وأحل الطيبات لم يحرم شيئا منها كما حرم فى شرع غيره ، وحرّم الخبائث لم يحل منها شيئا كما استحله غيره ،

وجمع محاسن ما عليه الأمم فلا يذكر فى التوراة والأنجيل والزبور نوع من الخبر عن الله وعن ملائكته وعن اليوم الآخر الا وقد جاء به على أكمل وجه ، وأخبر بأشياء ليست فى هـذه الكتب فليس فى تلك الكتب ايجاب لعدل ، وقضاء بفصل ، وندب الى الفضائل ، وترغيب فى الحسنات الا وقد جاء به وبما هو أحسن منه ،

واذا نظر اللبيب (٣) فى العبادات التي شرعها وعبادات غيره من الأمم ظهر فضلها ورجحانها ، وكذلك فى الحدود والأحكام وسائر الشرائع وأمته

---

(١) ستون صاعا ج اوساق (٢) بالفتح الضيعة وكل ما له أصل وقرار كالأرض والدار (٣) اى العاقل ج ألِبّاء

أكمل الأمم فى كل فضيلة فاذا قيس علمهم بعلم سائر الأمم ظهر فضل علمهم ، وان قيس دينهم وعبادتهم وطاعتهم لله بغيرهم ظهر أنهم أدين من غيرهم ، واذا قيس شجاعتهم وجهادهم فى سبيل الله وصبرهم على المكاره فى ذات الله ظهر أنهم أعظم جهادا وأشجع قلوبا . واذا قيس سخاؤهم وبذلهم وسماحة أنفسهم بغيرهم تبين أنهم أسخى وأكرم من غيرهم ، وهذه الفضائل به نالوها ومنه تعلموها ، وهو الذى أمرهم بها لم يكونوا قبله متبعين لكتاب جاء هو بتكميله كما جاء المسيح بتكميل شريعة التوراة وكانت فضائل أتباع المسيح وعلومهم بعضها من التوراة وبعضها من الزبور وبعضها من النبوات وبعضها من المسيح وبعضها ممن بعده كالحواريين ومن بعد الحواريين وقد استعانوا بكلام الفلاسفة وغيرهم حتى أدخلوا لما غيّروا دين المسيح فى دين المسيح أمورا من أمور الكفار المناقضة لدين المسيح .

وأما أمة محمد صلى الله عليه وسلم فلم يكونوا قبله يقرأون كتابا بل عامتهم ما آمنوا بموسى وعيسى وداود والتوراة والانجيل والزبور الا من جهته فهو الذى أمرهم أن يؤمنوا بجميع الأنبياء ويقرّوا بجميع الكتب المنزلة من عند الله ونهاهم أن يفرقوا بين أحد من الرسل فقال تعالى في الكتاب الذى جاء به (قولوا آمنّا بالله وما أنزل الينا وما أنزل الى ابراهيم واسماعيل واسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتى موسى وعيسى وما أوتى النبيّون من ربّهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون . فان آمنوا بمثل ما آمنتم به فقد اهتدوا وان تولوا فانما هم فى شقاق فسيكفيكهم

الله وهو السميع العليم) وقال تعالى (آمن الرسول بما أنزل اليه من ربه والمؤمنون كلٌ آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لانفرق بين أحد من رسله وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا واليك المصير • لا يكلف الله نفساً الا وسعها لها ماكسبت وعليها ما اكتسبت ربنا لا تؤاخذنا ان نسينا أو أخطأنا ربنا ولا تحمل علينا اصراً كما حملته على الذين من قبلنا ربنا ولا تحمّلنا ما لا طاقة لنا به واعفُ عنا واغفر لنا وارحمنا أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين) (١)

(١) الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح

الظلم مؤذن بخراب العمران

لابن خلدون (١)

اعلم ان العدوان على الناس فى أموالهم ذاهب بآمالهم فى تحصيلها واكتسابها لما يرونه حينئذ من أن غايتها ومصيرها انتهابها من أيديهم ، واذا ذهبت آمالهم فى اكتسابها وتحصيلها انقبضت أيديهم عن السعى فى ذلك ، وعلى قدر الاعتداء ونسبته يكون انقباض الرّعايا عن السعى فى الاكتساب . فاذا كان الاعتداء كثيرا عاما فى جميع أبواب المعاش كان القعود عن الكسب كذلك لذهابه بالآمال جملة بدخوله من جميع أبوابها . وان كان الاعتداء يسيرا كان الانقباض عن الكسب على نسبته . والعمران ووفوره ونفاق أسواقه انما هو بالأعمال وسعى الناس فى المصالح والمكاسب ذاهبين وجائين . فاذا قعد الناس عن المعاش وانقبضت ايديهم عن المكاسب كسدت أسواق العمران وانتقضت الأحوال وابذعرّ (٢) الناس فى الآفاق من غير تلك الايالة (٣) فى طلب الرزق فيما خرج عن نطاقها فخفّ

---

(١) ٧٣٢ ـ ٨٠٨ ولد هذا العالم الكبير فى تونس ونشأ فى حجر النعيم والعلم ، وشارك فى جميع العلوم واتقنها وتعمّق فيها وتبحّر فى التاريخ وتقلّد الكتابة والحجابة والقضاء ووفد سنة ٧٦٤ هـ على الأندلس فاحتفى به الملوك والأمراء وانفرد به صاحب غرناطة دون وزيره فدبّت اليه عقارب الحسد والحقد ، فعاد الى وطنه ثم أخذ يجول ويطوف فى الأرض حتى بلغ مصر سنة ٧٨٤ فقام بالتدريس فى الجامع الأزهر وولى القضاء ثم انصرف عنها واعتزل ثم اشتغل واعتزل الى ان وافاه أجله ،

وقع الاتفاق على ان ابن خلدون امام فلسفة التاريخ وأبو عذرتها ، ومقدمته للتاريخ لم يعمل مثلها ، ازدانت بها مكاتب العالم ، ولا يزال الكتاب غضًّا طريًّا جديدا فى مباحث كثيرة ، صادقا فى آراء ونظريات كثيرة ،

وابن خلدون امام طريقة فى الكتابة لا تزال مثالا جميلا للكتابة العلمية الرزينة ، أسلوبه طبعى عامر محكم وهو مع ذلك رشيق متسق ، وله فى تجديد الكتابة ونقلها الى الطور الحديث فضل كبير

(٢) تفرّقوا (٣) مقاطعة او اقليم والكلمة من الدخيل

ساكن القطر وخلت دياره وخربت أمصاره واختل باختلاله حال الدولة والسلطان لما انها صورة للعمران تفسد بفساد مادتها ضرورة •

وانظر فى ذلك ما حكاه المسعودى فى أخبار الفرس عن الموبذان(١) صاحب الدين عندهم أيام بهرام بن بهرام وما عرض به للملك فى انكار ما كان عليه من الظلم والغفلة عن عائدته على الدولة بضرب المثال فى ذلك على لسان البوم حين سمع الملك أصواتها وسأله عن فهم كلامها فقال له : ان بوماً ذكراً يروم نكاح بوم انثى وانها شرطت عليه عشرين قرية من الخراب فى أيام بهرام فقبل شرطها وقال لها : ان دامت ايام الملك اقطعتك الف قرية وهذا أسهل مرام • فتنبه الملك من غفلته وخلا بالموبذان وسأله عن مراده فقال له : أيها الملك ان الملك لا يتم عزه الا بالشريعة والقيام لله بطاعته والتصرف تحت أمره ونهيه ، ولا قوام للشريعة الا بالملك ، ولا عز للملك الا بالرجال ، ولا قوام للرجال الا بالمال ، ولا سبيل الى المال الا بالعمارة ، ولا سبيل الى العمارة الا بالعدل ، والعدل الميزان المنصوب بين الخليقة نصبه الرب وجعل له قيما وهو الملك • وأنت أيها الملك عمدت الى الضياع فانتزعتها من أربابها وعمارها وهم أرباب الخراج ومن تؤخذ منهم الأموال واقطعتها الحاشية والخدم وأهل البطالة ، فتركوا العمارة والنظر فى العواقب وما يصلح الضياع وسومحوا فى الخراج لقربهم من الملك ووقع الحيف (٢) على من بقى من أرباب الخراج وعمار الضياع فانجلوا عن ضياعهم وخلوا ديارهم وآووا الى ماتعذر من الضياع فسكنوها فقلت العمارة وخربت الضياع وقلت الأموال وهلكت الجنود والرعية وطمع فى ملك فارس من جاورهم من الملوك لعلمهم بانقطاع المواد التى لا تستقيم دعائم الملك الا بها ، فلما سمع الملك ذلك أقبل على النظر فى ملكه وانتزعت الضياع من أيدى الخاصة وردت الى اربابها وحملوا على رسومهم السالفة وأخذوا فى العمارة وقوى من ضعف

(١) فقيه الفرس وحاكم المجوس كقاضى القضاة للمسلمين فارسية معربة جمعه موابذة (٢) الجور والظلم

منهم فعمرت الأرض وأخصبت البلاد وكثرت الأموال عند جباة الخراج وقـوِيت الجنود وقطعت مواد الأعداء وشحنت الثغور ، وأقبل الملك على مباشرة اموره بنفسه فحسنت أيامه وانتظم ملكه .

فتفهم من هذه الحكاية ان الظلم مخرّب للعمران وان عائدة الخراب فى العمران على الدولة بالفساد والانتقاض، ولا تنظر فى ذلك الى ان الاعتداء قد يوجد فى الأمصار العظيمة من الدول التي بها ولم يقع فيها خراب. واعلم ان ذلك انما جاء من قبل المناسبة بين الاعتداء وأحوال أهل المصر فلما كان المصر كبيرا وعمرانه كثيرا وأحواله متسعة بما لا ينحصر كان وقوع النقص فيه بالاعتداء والظلم يسيرا لأن النقص انما يقع بالتدريج فاذا خفى بكثرة الأحوال واتساع الأعمال فى المصر لم يظهر أثره الا بعد حين وقد تذهب تلك الدولة المعتدية من أصلها قبل خراب المصر وتجىء الدولة الأخرى فترقعه بجدتها وتجبر النقص الذى كان خفيا فيه فلا يكاد يشعر بـه الا أن ذلك فى الأقل النادر ،

والمراد من هذا أن حصول النقص فى العمران عن الظلم والعدوان أمر واقع لا بد منه لما قدمناه ووباله عائد على الدول . ولا تحسبن الظلم انما هو أخذ المال أو الملك من يد مالكه من غير عوض ولا سبب كما هو المشهور . بل الظلم أعمّ من ذلك وكل من أخذ ملك أحد أو غصبه فى عمله أو طالبه بغير حق أو فرض عليه حقا لم يفرضه الشرع فقد ظلمه . فجباة الأموال بغير حقها ظَلَمَة . والمعتدون عليها ظلمة . والمنتهبون لها ظلمة . والمانعون لحقوق الناس ظلمة وغُصّاب الأملاك على العموم ظلمة. ووبال ذلك كله عائد على الدولة بخراب العمران الذى هو مادّتها لاذهابه الآمال من أهله . واعلم ان هذه هى الحكمة المقصودة للشارع فى تحريم الظلم وهو ما ينشأ عنه من فساد العمران وخرابه وذلك مؤذن بانقطاع النوع البشرى وهى الحكمة العامة المراعاة للشرع فى جميع مقاصده الضرورية الخمسة من حفظ الدين والنفس والعقل والنسل والمال ، فلما كان الظلم كما رأيت مؤذناً بانقطاع النوع لما أدى اليه من تخريب العمران

كانت حكمة الحظر فيه موجودة فكان تحريمه مهمًا وأدلته من القرآن والسنّة كثيرة أكثر من أن يأخذها قانون الضبط والحصر (١)

المدنية العجمية عند بعثة الرسول صلى الله عليه وسلم

للشيخ ولى الله (٢) الدهلوى

اعلم ! ان العجم والروم لما توارثوا الخلافة قرونا كثيرة وخاضوا فى لذة الدنيا ، ونسوا الدار الآخرة ، واستحوذ (٣) عليهم الشيطان ، تعمّقوا فى مرافق (٤) المعيشة ، وتباهوا بها ، وورد عليهم حكماء الآفاق يستنبطون لهم دقائق المعاش ومرافقه ، فما زالوا يعملون بها ، ويزيد بعضهم على بعض ويتباهون بها ، حتى قيل : انهم كانوا يعيِّرون من كان يلبس من

---

(١) مقدمة ابن خلدون

(٢) ١١١٤ ـ ١١٧٦ هو حكيم الاسلام وفيلسوفه المجدد الدينى والعلمى الكبير قطب الدين أحمد ولى الله بن عبد الرحيم بن وجيه الدين العمرى الدهلوى ، قرأ العلم على والده وقرأ فاتحة الفراغ وهو لم يتجاوز الخامسة عشرة من عمره وأخذ يدرس ويفيد ويؤلف الى أن رحل فى سنة ١١٤٣ الى الحجاز واستفاد من علمائها وأفاد وأسند الحديث عن الشيخ أبى طاهر المدنى ثم رجع الى الهند وعكف على الدرس والافادة والتأليف والتجديد فى العلم والدين الى أن استأثرت به رحمة الله

كان رحمه الله آية من آيات الله عبقريا نابغة من نوابغ الاسلام ، قال العلامة السيد صديق حسن خان القنوجى أمير بوفال : ـ لو سبق به الزمان وكان فى القرون المتقدمة لعد من كبار الأئمة المجتهدين فى الاسلام (اتحاف النبلاء)

كان محدثا مفسرا فقيها اصوليا متكلما فيلسوفا سياسيا ، كان كاتبا قديرا بالعربية سيّال القلم مؤلفا مجيدا ، وبعض كتبه لم ينسج على منوالها ، خصوصا الفوز الكبير فى أصول التفسير وازالة الخفا فى خلافة الخلفاء ورسالة الانصاف فى سبب الاختلاف . أما كتابه الشهير حجة الله البالغة فهو كتاب فريد فى موضوعه وهو بيان حقائق الدين وتطبيق العقل والنقل وشرح النظام الدينى والسياسى ، وهذا الفصل مأخوذ منه (٣) غلب (٤) منافع

صناديدهم منطقة أو تاجاقيمتها دون مائة الف درهم، أو لا يكون له قصر شامخ وآبزن [1] وحمام وبساتين ، ولا يكون له دواب فارهة [2] وغلمان حسان ، ولا يكون له توسّع فى المطاعم ، وتجمّل فى الملابس وذكر ذلك يطول وما تراه من ملوك بلادك يغنيك عن حكاياتهم ،

فدخل كل ذلك فى أصول معاشهم وصارَ لا يخرج من قلوبهم الا أن تمزّع [3] وتولّد من ذلك داء عضال [4] دخل فى جميع أعضاء المدينة ، وآفة عظيمة لم يبق منهم أحد من أسواقهم ورستاقهم [5] وغنيهم وفقيرهم الا قد استولت عليه وأخذت بتلابيبه [6] وأعجزته فى نفسه وأهاجت عليه غموما وهموما لا أرجاء [7] لها .

وذلك ان تلك الأشياء لم تكن لتحصل الا ببذل أموال خطيرة [8] ولا تحصل تلك الأموال الا بتضعيف الضرائب [9] على الفلاحين والتجّار وأشباههم ، والتضيق عليهم فان امتنعوا قاتلوهم وعذبوهم وان أطاعوا جعلوهم بمنزلة الحمير والبقر يستعمل فى النضح والدياس [10] والحصاد، ولا تقتنى [11] الا ليستعان بها فى الحاجات . ثم لا تترك ساعة من العناء حتى صاروا لا يرفعون رؤوسهم الى السعادة الاخروية أصلا ولا يستطيعون ذلك .

وربما كان اقليم واسع ليس فيهم احد يهمه دينه ، ولم يكن ليحصل أيضا الا بقوم يتكسّبون بتهيئة تلك المطاعم والملابس والأبنية وغيرها

---

(١) كلمة فارسية وهو ما يسميه العامة النافورة
(٢) النشيطة الحادة القوية (٣) تقطع (٤) بالضم الشديد وداء عضال اى داء معيٍ غالب (٥) فارسى معرب وهو سواد البلدة (٦) جمع تلبيب وهو من الانسان ما فى موضع اللبب من ثيابه واللبب موضع المنحر من كل شيء (٧) جمع الرجا أو الرَجا الناحية لا أرجاء لها لا أطراف لها اى لا منتهى لها (٨) اى الكثيرة (٩) جمع ضريبة وهى التى تعين على أحد من المال (١٠) مصدر داس يدوس دوسا ودياسة الزرع درسه (١١) لا تجمع

ويتركون أصول المكاسب التى عليها بناء نظام العالم وصار عامة من يطوف عليهم يتكلفون محاكاة الصناديد فى هذه الأشياء والا لم يجدوا عندهم حظوة (١) ولا كانوا عندهم على بال ،

وصار جمهور الناس عيالا على الخليفة يتكففون (٢) منه تارة على أنهم من الغزاة والمدبرين للمدينة يترسمون برسومهم ولا يكون المقصود دفع الحاجة ولكن القيام بسيرة سلفهم • وتارة على أنهم شعراء جرت عادة الملوك بصلتهم ، وتارة على أنهم زهاد وفقراء يقبح من الخليفة أن لا يتفقد حالهم فيضيق بعضهم بعضا وتتوقف مكاسبهم على صحبة الملوك والرفق بهم وحسن المحاورة معهم والتملق منهم وكان ذلك هو الفن الذى تتعمق أفكارهم فيه وتضيع أوقاتهم معه

فلما كثرت هذه الأشغال تشبّح فى نفوس الناس هيآت خسيسة وأعرضوا عن الأخلاق الصالحة ، وان شئت أن تعرف حقيقة هذا المرض فانظر الى قوم ليست فيهم الخلافة ولا هم متعمقون فى لذائذ الأطعمة والألبسة تجد كل واحد منهم بيده أمره وليس عليه من الضرائب الثقيلة ما يثقل ظهره فهم يستطيعون التفرغ لأمر الدين والملة ثم تصور حالهم لو كان فيهم الخلافة وملأها وسخروا الرعية وتسلطوا عليهم •

فلما عظمت هذه المصيبة واشتدّ هذا المرض سخط عليهم الله والملائكة المقربون وكان رضاه تعالى في معالجة هذا المرض بقطع مادته فبعث نبيّاً أميّاً صلى الله عليه وسلم لم يخالط العجم والروم ولم يترسم برسومهم وجعله ميزانا يعرف به الهدى الصالح المرضى عند الله من غير المرضىّ وأنطقه بذم عادات الأعاجم وقبح الاستغراق فى الحياة الدنيا والاطمئنان بها ، ونفث فى قلبه ان يحرم عليهم رؤس ما اعتاده الأعاجم وتباهوا بها كلبس الحرير والقسى (٣) وللأرجوان (٤) ، واستعمال أوانى

(١) المكانة والمنزلة عند الناس (٢) يمدون كفهم الى الناس يستعطون (٣) ثياب مضلّعة فيها الحرير (٤) الثياب الحمر

الذهب والفضة وحلى الذهب غير المقطع ، والثياب المصنوعة فيها الصور وتزويق البيوت (١) وغير ذلك ، وقضى بزوال دولتهم بدولته ورياستهم برياسته وبأنّه اذا هلك كسرى فلا كسرى بعده واذا هلك قيصر فلا قيصر بعده (٢) .

أهل الطبقة العليا من الامة

للسيد عبد الرحمن الكواكبى (٣)

الفتور بالغ فى غالب أهل الطبقة العليا من الأمة ولا سيما فى الشيوخ ، مرتبة (الخوَر (٤) فى الطبيعة) لأننا نجدهم ينتقصون أنفسهم

(١) زوّق البيت نقّشه (٢) حجة الله البالغة باب اقامة الارتفاقات واصلاح الرسوم (٣) ولد السيد عبد الرحمن الكواكبى عام ١٢٦٥ هـ فى بيت من الأشراف فى حلب كانت فيه نقابة الأشراف ، ونشأ فى جو يمتاز بتقاليده العريقة من عزة واباء وشمم ، فنشأ متزنا فى الحديث دقيقا فى الفكر ، نزيه النفس

تعلم اللغة العربية والعلوم الاسلامية شأن أبناء جيله من الأشراف ، ولم يكتف بهذه الدراسة بل ارتوى من مناهل العلوم الرياضية والطبيعية وتعلّم اللغة الفارسية والتركية وانكب على قراءة الكتب التاريخية ودراسة القوانين العثمانية بصفة خاصة وتولى شتى الأعمال والمناصب للحكومة ، وأنشأ جريدة حرّة فى حلب اسمها « الشهباء » وكان دائم الاحتكاك والصراع بطغيان الحكام وفساد رجال الادارة فى عصر عبد الحميد وتعرّض لعداء الولاة فى حلب ، وكان قوى الشعور بفساد حال المسلمين فخصص جزءاً كبيراً من حياته فى تعارف أحوالهم فى جميع اقطار الأرض وتشخيص أمراضهم وتلمّس العلاج لهم ، فساح فى بلاد المسلمين من الشرق الى الغرب حتى وافته المنية فى مصر يوم ٦ من ربيع الاول سنة ١٣٢٠ هـ رحمه الله رحمة واسعة ،

قدّم السيّد نتائج دراساته وتجاربه وعصارة أفكاره وبرامج الاصلاح فى كتابيه « طبائع الاستبداد » و « أم القرى » وكانت خطوة جريئة فى العصر الذى عاش فيه ، وكان لهما شأن عظيم فى زمانهما ، ولا يزالان مادة خصبة لدراسة احوال الشعوب الاسلامية والحكومات المسلمة وأصل عللها وعلاجها (ملخّصا من زعماء الاصلاح فى العصر الحديث للدكتور أحمد أمين) (٤) خوِر خوراً فتر وضعف

فى كل شيء ، ويتقاصرون عن كل عمل ويحجمون عن كل اقدام ، ويتوقعون الخيبة فى كل أمل ، ومن أقبح آثار هــذا الخور نظرهم الكمــال فى الأجانب كما ينظر الصبيان الكمال فى آباءهم ومعلميهم ، فيندفعون لتقليد الأجانب وأتباعهم ، فيما يظنونه رقة وظرافة وتمدنا ، وينخدعون لهم فيما يغشونهم به ، كاستحسان ترك التصلب فى الدين والافتخار به ، فمنهم من يستحى من الصلاة فى غير الخلوات ، وكاهمال التمسك بالعادات القومية ، فمنهم من يستحى من عمامته ، وكالبعد عن الاعتزاز بالعشيرة كأن قومهم من سقط البشر ، وكنبذ التحزب للرأى كأنهم خلقوا قاصرين ، وكالغفلة عن ايثار الأقربين فى المنافع ، وكالقعود عن التناصر والتراحم بينهم كى لا يشم من ذلك رائحة التعصب الدينى ، وان كان على الحق الى نحو ذلك من الخصال الذميمة فى أهل الخور من المسلمين الحميدة فى الأجانب ، لأن الأجانب يموهون عليهم بأنهم يحسنون التحلى بهـا دونهم

وهؤلاء الواهنة يحق لهم أن تشق عليهم مفارقة حالات ألفوهـا عمرهم ، كما قد يألف الجسم السقم فلا تلذ له العافية فانهم منذ نعومة أظفارهم تعلموا الأدب مع الكبير يقبّلون يده أو ذيله أو رجله ، وألفوا الاحترام فلا يدوسون الكبير ولو داس رقابهم ، وألفوا الثبات ثبات الأوتاد تحت المطارق (١) ، وألفوا الانقياد ولو الى المهالك ، وألفوا أن تكون وظيفتهم فى الحياة دون النبات ، ذاك يتطاول وهم يتقاصرون ، ذاك يطلب السماء وهم يطلبون الأرض ، كأنهم للموت مشتاقون •

وهكذا طول الالفة على هذه الخصال قلب فى فكرهم الحقائق وجعل عندهم المخازى مفاخر ، فصاروا يسمون التصاغر أدبا ، والتذلل لطفا ، والتملق فصاحة ، واللكنة رزانة ، وترك الحقوق سماحة ، وقبول الاهانة

---

(١) المطرق والمطرقة آلة من حديد ونحوه يضرب به الحديد ونحوه جمعه مطارق

تواضعا ، والرضاء بالظلم طاعة ، كما يسمون دعوى الاستحقاق غرورا ، والخروج عن الشأن الذاتى فضولا ، ومد النظر الى الغد أملا ، والاقدام تهورا (١) ، والحمية حماقة ، والشهامة (٢) شراسة (٣) ، وحرية القول وقاحة ، وحب الوطن جنونا ،

وليعلم ان الناشئة الذين تعقد الأمة آمالها بأحلامهم عسى يصدق منها شيء وتتعلق الأوطان بحبال همتهم عساهم يأتون فعلا ، هم أولئك الشباب ومن فى حكمهم المحمديون المهذبون الذين يقال فيهم ان شباب رأى القوم عند شبابهم ، الذين يفتخرون بدينهم فيحرصون على القيام بمبانيه الأساسية نحو الصلاة والصوم ، ويتجنّبون مناهيه الأصلية نحو الميسر والمسكرات ، الذين لا يقصرون بناء قصور الفخر على عظام نخرها الدهر ، ولا يرضون أن يكونوا حلقة ساقطة بين الأسلاف والأخلاف ، الذين يعلمون انهم خلقوا احرارا ، فيأبون الذل والاسار ، الذين يودون أن يموتوا كراما ، ولا يحيون لئاما ، الذين يجهدون أن ينالوا حياة رضية ، حياة قوم كل فرد منهم سلطان مستقل فى شؤونه لا يحكمه غير الدين ، وشريك أمين لقومه يقاسمهم ويقاسمونه الشقاء والهناء ، وولد بار لوطنه لا يبخل عليه بجزء طفيف من فكره ووقته وماله ، الذين يحبون وطنهم حب من يعلم أنه خلق من تراب ، الذين يعشقون الانسانية ويعلمون ان البشرية هى العلم ، والبهيمية هى الجهالة ، الذين يعتبرون أن خير الناس أنفعهم للناس ، الذين يعرفون أن القنوط وباء الآمال ، والتردد وباء الاعمال ، الذين يفقهون ان القضاء والقدر هما السعى والعمل ، الذين يوقنون ان كل ما على الأرض من أثر هو من عمل أمثالهم البشر فلا يتخيلون الا المقدرة ولا يتوقعون من الأقدار الا خيرا

---

(١) تهور الرجل وقع فى الأمر بقلة مبالاة (٢) الشهامة الحرص على مباشرة أمور عظيمة تستتبع الذكر الجميل (٣) شرس الرجل شراسة وشرسا وشريسا كان سيىء الخلق شديد الخلاف

وأما الناشئة المتفرنجة (١) فلا خير فيهم لأنفسهم فضلا عن أن ينفعوا أقوامهم وأوطانهم شيئا ، وذلك لأنهم لا خلاق لهم تتجاذبهم الأهواء كيف شاءت لا يتبعون مسلكا ، ولا يسيرون على ناموس (٢) مطّرد (٣) لأنهم يحكمون الحكمة فيفتخرون بدينهم ولكن لايعملون به تهاونـا وكسلا ، ويرون غيرهم من الأمم يتباهون بأقوامهم ويستحسنون عاداتهم ومميّزاتهم فيميلون لمناظرتهم ولكن لا يقوون على ترك التفرنج كأنهم خلقوا أتباعا ، ويجدون الناس يعشقون أوطانهم فيندفعون للتشبه بهم فى التشبيب (٤) والاحساس فقط دون التشبّث بالاعمال التى يستوجبها الحب الصادق والحاصل ان شؤون الناشئة المتفرنجة أيضا لا تخرج عن تذبذب وتلون ونفاق يجمعها وصف « لا خلاق » والواهنة خير منهم متمسكون بالدين ولو رياء ، وبالطاعة ولو عمياء ، على أنه يوجد فى المتفرنجة أفراد غيورون كالراسخين من أحرار الاتراك الملتهبين غـيرة تقتضى احترام مزيتهم (٥)

---

(١) المتفرنجة المتشبهة بالفرنجـة والمتخلقة بأخلاقها (٢) الشريعـة والمبدأ (٣) قياس مطّرد اى عامّ لاشذوذ فيه (٤) شبّب الشاعر بفلانة قال فيها النسيب ووصف محاسنها (٥) ام القرى للسيد عبد الرحمن الكواكبى

رسالة محمد ﷺ

للشيخ محمد عبده (١)

كانت دولتا العالم ـ دولة الفرس في الشرق ودولة الرومان في الغرب ـ فى تنازع وتجالد مستمر : دماء بين العالمين مسفوكة ، وقوى منهوكة ،

---

(١) ولد الشيخ محمد عبده عام ١٢٦٦ فى أسرة فلاحين ، وتعلم فى الجامع الأزهر ـ وهو على النمط القديم ـ فقضى فيه نحو اثنى عشر عاما ، ونال شهادة العالمية ، والتقى بالسيد جمال الدين الأفغانى فلزمه وتشبع بأفكاره وتشرب من روحه ، واتصل بالتدريس والصحافة والوظائف ، وحكم عليه فى الثورة العرابية بالنفى ثلاث سنوات أقام خلالها فى بيروت ، ودعاه استاذه السيد جمال الدين الى باريس فلباه واشترك معه فى اخراج مجلة « العروة الوثقى » كان للسيد فيه التوجيه والروح وللشيخ التحرير والصياغة ، واقلقت الانجليز والفرنسيين واضطهدوها فاحتجبت بعدظهور ثمانية عشر عدداً ، وقد بذرت بذوراً فى العالم الاسلامى واثارت الأفكار ، وعاد محمد عبده الى بيروت عالما ومعلما ، وشرح نهج البلاغة ومقامات بديع الزمان وشغل نفسه بالتدريس .

ورجع الى مصر بعدما عفى عنه ، وتقلب فى وظائف القضاء حتى عين مفتيا وعضوا دائما فى مجلس شورى القوانين ، واشتغل باصلاح الازهر واصلاح برامج التعليم وتهيئة الأفكار مقلعاً عن السياسة العملية .

كان الشيخ محمد عبده مصلحاً دينياً ومصلحاً اجتماعياً ومصلحاً للغة والأدب وشخصية بارزة فى التفكير ، وكان مجمل رسالته فهم الدين على طريقة السلف قبل ظهور الخلاف والرجوع فى كسب معارفه الى ينابيعه الأولى ، واصلاح أساليب اللغة العربية .

وقد دعا الى تدريس كتب المتقدمين الذين كانوا أصحاب الذوق الأصيل وكان سبباً فى نهضة لغوية أدبية فى مصر وتحول الكتابة من كتابة مسجوعة سخيفة الى كتابة مرسلة جميلة ، وخلف مدرسة فكرية تأخذ بتعاليمه فى الاقطار الاسلامية المختلفة ، توفى سنة ١٩٠٥ م

وأموال هالكة ، وظلم من الاحن (١) حالكة (٢) ، ومع ذلك فقد كان الزهو (٣) والترف والاسراف والفخفخة (٤) والتفنن فى الملاذ بالغة حد ما لا يوصف فى قصور السلاطين والأمراء والقواد ورؤساء الأديان من كل أمة . وكان شره (٥) هذه الطبقة من الأمم لايقف عند حد ، فزادوا فى الضرائب وبالغوا فى فرض الاتاوات (٦) حتى أثقلوا ظهور الرعية بمطالبهم، وأتوا على ما فى أيديها من ثمرات أعمالها . وانحصر سلطان القوى فى اختطاف ما بيد الضعيف ، وفكر العاقل ، فى الاحتيال لسلب العاقل ، وتبع ذلك أن استولى على تلك الشعوب من ضروب الفقر والذل والاستكانة والخوف والاضطراب لفقد الأمن على الأرواح والأموال .

غمرت مشيئة الرؤساء ارادة من دونهم فعاد هؤلاء كأشباح اللاعب يديرها من وراء حجاب ، ويظنها الناظر اليها من ذوى الألباب ، ففقد بذلك الاستقلال الشخصى ، وظن أفراد الرعايا أنهم لم يخلقوا الا لخدمة ساداتهم ، وتوفير لذاتهم ، كما هو الشأن فى العجماوات (٧) مع من يقتنيها (٨) ، ضلت السادات فى عقائدها وأهوائها ، وغلبتها على الحق والعدل شهواتها ، ولكن بقى لها من قوة الفكر أردأ بقاياها ، فلم يفارقها الحذر من أن بصيص (٩) النور الالهى الذى يخالط الفطر الانسانية قد يفتق الغلف التى أحاطت بالقلوب ، ويمزق الحجب التى أسدلت على العقول ، فتهتدى العامة الى السبيل ، ويثور الجم الغفير على العدد القليل ، ولذلك لم يغفل الملوك والرؤساء أن ينشئوا سحباً من الأوهام ، ويهيئوا كسفاً من الأباطيل والخرافات ، ليقذفوا فى عقول العامة ، فيغلظ الحجاب ويعظم الرين ، ويختنق بذلك نور الفطرة ، ويتم لهم ما يريدون

---

(١) جمع احنة وهى الحقد (٢) مظلمة (٣) الفخر والتيه (٤) الفخر بالباطل (٥) الحرص الشديد (٦) الجبايات والضرائب (٧) جمع عجماء وهى البهيمة (٨) يكتسبها ويربيها (٩) تلألؤه واشراقه .

من المغلوبين لهم ، وصرح الدين بلسان رؤسائه أنه عدو العقل ، وعدو كل ما يثمره النظر ، الا ما كان تفسيراً لكتاب مقدس ، وكان لهم فى المشارب الوثنية ينابيع لا تنضب ، ومدد لا ينفذ .

هذه حالة الأقوام كانت فى معارفهم ، وذلك كان شأنهم فى معايشهم، عبيد أذلاء ، حيارى فى جهالة عمياء ، اللهم الا بعض شوارد (١) من بقايا الحكمة الماضية ، والشرائع السابقة ، آوت الى بعض الأذهان ، ومعها مقت الحاضر ، ونقص العلم بالغابر .

ثارت الشبهات على أصول العقائد وفروعها بما انقلب من الوضع وانعكس من الطبع ، فكان يرى الدنس فى مظنة الطهارة ، والشره حيث تنتظر القناعة ، والدعارة (٢) حيث ترجى السلامة والسلام ، مع قصور النظر عن معرفة السبب ، وانصرافه لأول وهلة الى أن مصدر كل ذلك هو الدين ، فاستولى الاضطراب على المدارك ، وذهب بالناس مذهب الفوضى فى العقل والشريعة معاً ، وظهرت مذاهب الاباحيين والدهريين فى شعوب متعددة ، وكان ذلك ويلاً عليها فوق ما رزئت به من سائر الخطوب .

وكانت الأمة العربية قبائل متخالفة فى النزعات ، خاضعة للشهوات ، فخر كل قبيلة فى قتال أختها ، وسفك دماء أبطالها ، وسبى نسائها ، وسلب أموالها ، تسوقها المطامع ، الى المعامع (٣) ، ويزين لها السيئات ، فساد الاعتقادات ، وقد بلغ العرب من سخافة العقل حداً صنعوا فيه أصنامهم من الحلوى ثم عبدوها ، فلما جاعوا أكلوها ، وبلغوا من تضعضع الأخلاق وهناً قتلوا فيه بناتهم تخلصاً من عار حياتهن أو تنصلاً (٤) من نفقات معيشتهن ، وبلغ الفحش منهم مبلغاً لم يعد معه للعفاف قيمة ، وبالجملة فكانت ربط (٥) النظام الاجتماعى قد تراخت عقدها فى كل أمة، وانفصمت عراها عند كل طائفة .

---

(١) شواذ (٢) الخبث والفسق (٣) الحروب والفتن (٤) خروجا وتخلصا
(٥) الربط بضمتين جمع رباط وهو ما يربط به .

أفلم يكن من رحمة الله بأولئك الأقوام أن يؤدبهم برجل منهم يوحى اليه رسالته ، ويمنحه عنايته ، ويمده من القوة بما يتمكن معه من كشف تلك الغمم ، التى أظلت رؤوس جميع الأمم ؟ نعم كان ذلك وله الأمر من قبل ومن بعد .

* * *

في الليلة الثانية عشرة من ربيع الأول عام الفيل «٢٠ ابريل سنة ٥٧١ من ميلاد المسيح عليه السلام » ولد محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم القرشي بمكة . ولد يتيماً ، توفى والده قبل أن يولد ، ولم يترك له من المال الا خمسة جمال وبعض نعاج وجارية ويروى أقل من ذلك . وفى السنة السادسة من عمره فقد والدته أيضاً فاحتضنه جده عبدالمطلب. وبعد سنتين من كفالته توفى جده فكفله من بعده عمه أبو طالب وكان شهماً كريماً غير أنه كان من الفقر بحيث لا يملك كفاف أهله . وكان صلى الله عليه وسلم من بنى عمه وصبية قومه كأحدهم على ما به من يتم فقد فيه الأبوين معاً ، وفقر لم يسلم منه الكافل والمكفول ، ولم يقم على تربيته مهذب ، ولم يعن بتثقيفه مؤدب ، بين أتراب من نبت الجاهلية ، وعشراء من حلفاء الوثنية ، وأولياء من عبدة الأوهام ، وأقرباء من حفدة الأصنام ، غير أنه مع ذلك كان ينمو ويتكامل بدناً وعقلاً ، وفضيلة وأدباً ، حتى عرف بين أهل مكة وهو فى ريعان شبابه بالأمين ، أدب الهى لم تجر العادة بأن تزين به نفوس الأيتام من الفقراء ، خصوصاً مع فقر القوام ، فاكتهل صلى الله عليه وسلم كاملاً والقوم ناقصون ، رفيعاً والقوم منحطون ، موحداً وهم وثنيون ، سلماً وهم شاغبون ، صحيح الاعتقاد وهم واهمون ، مطبوعاً على الخير وهم به جاهلون ، وعن سبيله عادلون .

من السنن المعروفة أن يتيماً فقيراً أمياً مثله تنطبع نفسه بما تراه من أول نشأته الى زمن كهولته ، ويتأثر عقله بما يسمعهممن يخالطه ولاسيما

ان كان من ذوى قرابته ، وأهل عصبته ، ولا كتاب يرشده ولا أستاذ ينبهه ، ولا عضد اذا عزم يؤيده ، فلو جرى الأمر فيه على جارى السنن لنشأ على عقائدهم ، وأخذ بمذاهبهم ، الى أن يبلغ مبلغ الرجال ، ويكون للفكر والنظر مجال ، فيرجع الى مخالفتهم ، اذا قام له الدليل على خلاف ضلالاتهم ، كما فعل القليل ممن كانوا على عهده ، ولكن الأمر لم يجر على سنته ، بل بغضت اليه الوثنية من مبدأ عمره ، فعاجلته طهارة العقيدة ، كما بادره حسن الخليقة ، وما جاء فى الكتاب من قوله : (وَوَجَدَكَ ضَالاً فَهَدَى) لا يفهم منه أنه كان على وثنية قبل الاهتداء الى التوحيد ، أو على غير السبيل القويم ، قبل الخلق العظيم ، حاش لله ، ان ذلك هو الافك المبين ، وانما هى الحيرة تلم بقلوب أهل الاخلاص ، فيما يرجون للناس من الخلاص ، وطلب السبيل الى ما هدوا اليه من انقاذ الهالكين ، وارشاد الضالين • وقد هدى الله نبيه الى ما كانت تتلمسه بصيرته باصطفائه لرسالته ، واختياره من بين خلقه لتقرير شريعته •

وجد شيئاً من المال يسد حاجته « وقد كان له فى الاستزادة منه ما يرفه معيشته » بما عمل لخديجة رضى الله عنها فى تجارتها ، وبما اختارته بعد ذلك زوجاً لها ، وكان فيما يجتنيه من ثمرة عمله غناء له ، وعون على بلوغه ما كان عليه أعاظم قومه ، لكنه لم ترقه الدنيا • ولم تغره زخارفها ، ولم يسلك ما كان يسلكه مثله في الوصول الى ما ترغبه الأنفس من نعيمها ، بل كلما تقدمت به السن زادت فيه الرغبة عما كان عليه الكافة ، ونما فيه حب الانفراد والانقطاع الى الفكر والمراقبة ، والتحنث (١) بمناجاة الله تعالى ، والتوسل اليه فى طلب المخرج من همه الأعظم فى تخليص قومه ونجاة العالم من الشر الذى تولاه — الى أن انفتق له الحجاب عن عالم كان يحثه اليه الالهام الالهي وتجلى عليه النور

---

(١) التعبد •

القدسي ، وهبط عليه الوحي من المقام العلي . في تفصيل ليس هـذا موضعه .

لم يكن من آبائه ملك فيطالب بما سلب من ملكه . وكانت نفوس قومه في انصراف تام عن طلب مناصب السلطان ، وفي قناعة بما وجدوه من شرف النسبة الى المكان ، دل عليهما ما فعله جده عبد المطلب عند زحف أبرهة الحبشي على ديارهم ، جاء الحبشي لينتقم من العرب بهـدم معبدهم العام ، وبيتهم الحرام ، ومنتجع (١) حجيجهم ومستوى العلية من آلهتهم ، ومنتهى حجة القرشيين في مفاخرتهم لبني قومهم . وتقدم بعض جنده فاستاق عدداً من الابل فيها لعبد المطلب مائتا بعير ، وخرج عبد المطلب في بعض قريش لمقابلة الملك فاستدناه وسأله حاجته . فقال هي أن ترد الي مائتي بعير أصبتها لي ، فلامه الملك على المطلب الحقير ، وقت الخطب الخطير ، فأجابه : أنا رب الابل وأما البيت فله رب يحميه .

هذا غاية ما ينتهي اليه الاستسلام ـ وعبد المطلب في مكانه من الرياسة على قريش ـ فأين من تلك المكانة محمد صلى الله عليه وسلم في حاله من الفقر ، ومقامه في الوسط من طبقات أهله ، حتى ينتجع ملكاً أو يطلب سلطاناً ؟ لا مال لا جاه ، لا جند لا اعوان ، لا سليقة (٢) في الشعر ، لا براعة في الكتاب ، لا شهرة في الخطاب ، لا شيء كان عنده مما يكسب المكانة في نفوس العامة أو يرقى به الى مقام ما بين الخاصة .

ما هذا الذي رفع نفسه فوق النفوس ؟ ما الذي أعلى رأسـه على الرؤوس ، ما الذي سما بهمته على الهمم ، حتى انتدب (٣) لارشاد الأمم وكفالته لهم كشف الغمم . بل واحياء الرمم (٤) ؟ .

ما كان ذلك الا ما ألقى الله في روعه (٥) من حاجة العالم الى مقوم لما

---

(١) الموضع يقصده الناس في طلب الكلأ (٢) الطبيعة .
(٣) قام نهض (٤) العظام البالية (٥) الذهن والعقل .

زاغ عن عقائدهم ، ومصلح لما فسد من أخلاقهم وعوائدهم ، ما كان ذلك الا وجدانه ريح العناية الالهية تنصره فى عمله ، وتمده فى الانتهاء الى أمله ، قبل بلوغ أجله • ما هو الا الوحى الالهى يسعى نوره بين يديه يضىء له السبيل ، ويكفيه مؤنة الدليل ، ما هو الا الوحى السماوي ، قام لديه مقام القائد والجندى • أرأيت كيف نهض وحيداً فريداً يدعو الناس كافة الى التوحيد ، والاعتقاد بالعلى المجيد ، والكل ما بين وثنية مفرقة ، ودهرية وزندقة ؟•

نادى فى الوثنيين بترك أوثانهم ونبذ معبوداتهم — وفى المشبهين المنغمسين فى الخلط بين اللاهوت الأقدس وبين الجسمانيات بالتطهر من تشبيههم — وفى الثانوية بافراد اله واحد بالتصرف فى الاكوان ورد كل شىء فى الوجود اليه — أهاب بالطبيعيين ليمدوا بصائرهم الى ما وراء حجاب الطبيعة فيتنوروا سر الوجود الذى قامت به • صاح بذوى الزعامة ليهبطوا الى مصاف العامة ، فى الاستكانة الى سلطان معبود واحد ، هو فاطر السموات والأرض ، والقابض على أرواحهم فى هياكل أجسادهم •

تناول المنتحلين منهم لمرتبة التوسط بين العباد وبين ربهم الأعلى ، فبين لهم بالدليل ، وكشف لهم بنور الوحى ، أن نسبة أكبرهم الى الله كنسبة أصغر المعتقدين بهم ، وطالبهم بالنزول عما انتحلوه لأنفسهم من المكانات الربانية ، الى أدنى سلم من العبودية ، والاشتراك مع كل ذى نفس انسانية ، فى الاستعانة برب واحد يستوى جميع الخلق فى النسبة اليه ، لا يتفاوتون الا فيما فضل به بعضهم على بعض من علم أو فضيلة •

وخز (١) بوعظة عبيد العادات وأسراء التقليد ، ليعتقوا أرواحهم مما استعبدوا له ، ويحلوا أغلالهم التى أخذت بأيديهم عن العمل ، واقتطعتهم دون الأمل — مال على قراء الكتب السماوية ، والقائمين على ما أودعته من الشرائع الالهية ، فبكّت (٢) الواقفين عند حروفها بغباوتهم ، وشدد

(١) طعن (٢) بكّت عنّف وقرّع ومنه تبكيت الضمير .

النكير على المحرفين لها ، الصارفين لألفاظها الى غير ما قصد من وحيها ، اتباعاً لشهواتهم ، ودعاهم الى فهمها ، والتحقق بسر علمها ، حتى يكونوا على نور من ربهم •

ولفت كل انسان الى ما أودع فيه من المواهب الالهية ، ودعا الناس أجمعين ذكوراً واناثاً عامة وسادات الى عرفان أنفسهم ، وأنهم من نوع خصه الله بالعقل ، وميزه بالفكر ، وشرفه بهما وبحرية الارادةفيما يرشده اليه عقله وفكره ، وأن الله عرض عليهم جميع ما بين أيديهم من الأكوان وسلطهم على فهمها والانتفاع بها بدون شرط ولا قيد الا الاعتدال والوقوف عند حدود الشريعة العادلة ، والفضيلة الكاملة • وأقدرهم بذلك على أن يصلوا الى معرفة خالقهم بعقولهم وأفكارهم بدون واسطة أحد ، الا من خصهم الله بوحيه ، وقد وكل اليهم معرفتهم بالدليل ، كما كان الشأن فى معرفتهم لمبدع الكائنات أجمع • والحاجة الى أولئك المصطفين انما هى فى معرفة الصفات التى أذن الله أن تعلم منه ، وليست فى الاعتقاد بوجوده — وقرر أن لا سلطان لأحد من البشر على آخر منه الا ما رسمته الشريعة وفرضه العدل • ثم الانسان بعد ذلك يذهب بارادته الى ما سخرت له بمقتضى الفطرة •

دعا الانسان الى معرفة أنه جسم وروح ، وأنه بذلك من عالمين متخالفين ، وان كانا ممتزجين ، وأنه مطالب بخدمتهما جميعاً وايفاء كل منهما ما قررت له الحكمة الالهية من الحق •

دعا الناس كافة الى الاستعداد فى هذه الحياة لما سيلاقونه فى الحياة الأخرى ، وبين لهم أن خير زاد يتزوده العامل هو الاخلاص لله فى العبادة، والاخلاص للعباد فى العدل والنصيحة والارشاد •

قام بهذه الدعوة العظمى وحده ، ولا حول له ولا قوة ، كل هذا كان منه والناس أحباء ما ألفوا وان كان خسران الدنيا وحرمان الآخرة ، اعداء

ما جهلوا وان كان رغد العيش وعزة السيادة ومنتهى السعادة ، كل هذا والقوم حواليه أعداء أنفسهم ، وعبيد شهواتهم ، لا يفقهون دعوته ، ولا يعقلون رسالته ، عقدت أهداب بصائر العامة منهم بأهواء الخاصة ، وحجبت عقول الخاصة بغرور العزة عن النظر فى دعوى فقير أمى مثله ، لا يرون فيه ما يرفعه الى نصيحتهم والتطاول الى مقاماتهم الرفيعة باللوم والتعنيف .

لكنه في فقره وضعفه كان يقارعهم بالحجة ، ويناضلهم بالدليل ، ويأخذهم بالنصيحة ، ويزعجهم بالزجر ، وينبههم للعبر ، ويحوطهم مع ذلك بالموعظة الحسنة ، كأنما هو سلطان قاهر في حكمه ، عادل في أمره ونهيه ، أو أب حكيم في تربية أبنائه ، شديد الحرص على مصالحهم ، رءوف بهم في شدته ، رحيم في سلطته .

ما هذه القوة في ذلك الضعف ؟ ما هذا السلطان في مظنة العجز ؟ ما هذا العلم في تلك الأمية ؟ ما هذا الرشاد في غمرات الجاهلية ؟ ان هو الا خطاب الله القادر على كل شيء الذي وسع كل شيء رحمة وعلماً ، ذلك أمر الله الصادع ، يقرع الآذان ، ويشق الحجب ، ويمزق الغلف ، وينفذ الى القلوب ، على لسان من اختاره لينطق بـه ، واختصه بذلك وهو أضعف قومه ، ليقيم من هذا الاختصاص برهاناً عليه بعيداً عن الظنة ، بريئاً من التهمة ، لاتيانه على غير المعتاد بين خلقه .

أي برهـان على النبوة أعظم من هذا ؟ أمي قام يدعو الكاتبين الى فهم ما يكتبون وما يقرءون ، بعيد عن مدارس العلم صاح بالعلماء ليمحصوا ما كانوا يعلمون ، في ناحية عن ينابيع العرفان جاء يرشد العرفاء ، ناشيء بين الواهمين هب لتقويم عوج الحكماء ، غريب في أقرب الشعوب الى سذاجة الطبيعة ، وأبعدها عن فهم نظام الخليقة ، والنظر في سننه البديعة ، أخذ يقرر للعالم أجمع أصول الشريعة ، ويخط للسعادة طرقاً لن يهلك سالكها ، ولن يخلص تاركها .

ما هذا الخطاب المفحم ؟ ما ذلك الدليل الملجم ؟ أأقول ما هـذا بشراً ان هذا الا ملك كريم ؟ لا ، لا أقول ذلك ، ولكن أقول كما أمره الله أن يصف نفسه : ان هو الا بشر مثلكم يوحى اليه ، نبي صدق الأنبياء ولكن لم يأت في الاقناع برسالته بما يلهي الأبصار ، أو يحير الحواس ، أو يدهش المشاعر . ولكن طالب كل قوة بالعمل فيما أعدت له . واختص العقل بالخطاب ، وحاكم اليه الخطأ والصواب وجعل في قوة الكلام وسلطان البلاغة وصحة الدليل مبلغ الحجة ، وآية الحق الذي (لا يأتيه الباطل من يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد) (١)

الكوخ والقصر

للسيد مصطفى لطفي المنفلوطي (٦)

أنا ان كنت حاسدا أحدا على نعمة فانى أحسد صاحب الكوخ على

---

(١) رسالة التوحيد .

(٦) ولد السيـد مصطفى لطفي في منفلوط من اعمـال مديرية أسيوط فى مصر ، حفظ القرآن الكريم وتعلم فى الأزهر وواظب على دروس الشيخ محمد عبده ، وعكف على كتب البلغاء ودواوين الشعراء يقرأ ويحفظ ويستظهر وهو أديب مطبوع يرسل النثر حلواً مسلسلاً محبوكاً ، كان دقيق الحس ، رقيق العاطفة ، رشيق القلم سهل البيان ، حلو العبارة ، مشرق الديباجة ، كان يكتب فى صحيفة المؤيد بعنوان « نظرات » يقرأها الأدباء والشبان برغبة وجمعت فى كتاب اسماه « النظرات » وله كتاب « العبرات » ومختارات المنفلوطي وروايات اشهرها « ماجدولين » توفى سنة ١٩٢٤ م

كوخه ، قبل أن أحسد صاحب القصر على قصره ، ولولا ان للأوهام سلطانا على النفوس لما تضاءل الفقراء بين أيدى الأغنياء ، ولا وَرِمَ أنف الأغنياء أن يتخذهم الفقراء أربابا من دون الله

أنا لا أغبط الغنىّ الاّ فى موطن واحد من مواطنه ، ان رأيته يشبع الجائع ، ويواسى الفقير ، ويعود بالفضل من ماله على اليتيم الذى سلبه الدهر أباه ، والأرملة التى فجعها القدر فى عائلها (١) ، ويمسح بيده دمعة البائس والمحزون ، ثم أرثى له بعد ذلك فى جميع مواطنه الأخرى

أرثى له ان رأيته يتربص وقوع الضائقة بالفقير ليَدخلَ عليه مدخل الشيطان من قلب الانسان فيمتص الثمالة (٢) الباقية له من ماله ليسد فى وجهه باب الأمل ، وأرثى له ان رأيته يعتقد ان المال هو منتهى الكمال الانسانى ، فلا يطمع فى فضيلة ، ولا يحاسب نفسه على رذيلة ، وأرثى له وأبكى على عقله ان مشى الخيلاء ، وطاول بعنقه السماء ، وسلم بايماء الطرف ، واشارة الكف ، ومشى فى طريقه يخزر (٣) بعينيه خزرا ليرى هل سجد الناس لمشيته ، أو صعقوا من هيبته ، وأرحمه الرحمة كلها ان عاش شحيحا جعدا مقترا على نفسه وعياله ، بغيضا الى قومه وأهله ، ينقمون عليه حياته ، ويستبطئون ساعة حتفه

أما الفقير فهو أسعد الناس عيشا ، واروحهم بالا الا اذا كان جاهلا مخدوعا يظن ان الغنى أسعد منه حظّا ، وأرغد عيشا ، وأثلج صدرا ، فيحسده على النعمة التى أسبغها الله عليه ، ويجلس فى كسر (٤) بيته جلسة الكئيب المحزون ، يصعّد الزفرة فالزفرة ، ويرسل العبرة فالعبرة ، ولولا جهله وبلاهة عقله لعلم أن رب صاحب قصر يتمنى كوخ الفقير

---

(١) عال الرجل عياله كفاهم معاشهم (٢) ما يبقى فى أسفل الاناء او الحوض من ماء وغيره (٣) خزر يخزُر خزرا من باب نصر ، نظر بمؤخّر عينه وتداهى ، وخزر من باب سمع ضاقت عينه فهو أخزر (٤) الكَسر والكسر الجانب من البيت

وعيشه ، ويرى ان ذلك السراج الضعيف الذى لا يكاد ينير نفسه أسطع ذبالا ، وأكثر لألاء ، من تلك الشموع الباهرات التي تأتلق (١) بين يديه ، وان تلك الحشيَّة (٢) من الشعر أو الوبر أنعم ملمسا ، وألين مضجعا ، من وسائد الحرير ونضائد (٣) الديباج

ولقد بلغ الضعف وصغر النفس بكثير من النـــاس أنهم يحفلون بالأغنياء لأنهم أغنياء ، وان كانوا لا ينالون منهم ما يبلّ غـلّـة ، أو يسيغ غصّة ، وليت شعرى ان كان لا بد لهم من اجلال المال واعظامه حيث وُجد فلم لا يقبّلون أيدى الصيارفة ولا ينهضون اجلالا للكلاب المطوقة بالذهب ، وهم يعلمون ان لا فرق بين هؤلاء وهؤلاء

لو عامل الفقراء بخلاء الأغنياء بما يجب أن يعاملوا به لوجدوا أنفسهم فى وحشة أنفسهم ، ولشعروا ان بدرات الذهب التي يكنزونها انما هى أساود ملتفة على أقدامهم ، وأغلال آخذة بأعناقهم ، ولعلموا ان الشرف فى كمال الأدب ، لا فى رنين الذهب ، وفى جلائل الأعمال لا فى أحمـــال المال

فليعظم الناس الكرماء ، وليحتقروا الأغنياء ، وليعلموا ان الشرف شىء وراء الغنى والفقر ، وان السعادة أمر وراء الكوخ والقصر (٤)

---

(١) ائتلق البرق لمع (٢) الفراش المحشو (٣) النضيدة الوسادة (٤) النظرات للمنفلوطى

سيدي احمد الشريف السنوسي

للأمير شكيب ارسلان (١)

عندما قدمت الى الاستانة فى أواخر سنة ١٩٢٣ ، وهى أول مرة دخلتها بعد الحرب قررت لأجل الاستجمام (٢) من عناء الأشغال وترويح (٣) النفس بعد طول النضال (٤) ، أن أسكن ببلد صغير تتهيأ لى فيه العزلة

---

(١) هو أمير البيان وكاتب الشرق الأكبر الأمير شكيب ارسلان ، من بيت الأمراء الدروز العرب فى الشام ، يتصل نسبه بالملك المنذر بن النعمان الشهير بأبى قابوس ، ولد عام ١٨٦٩ فى الشويفات ، واشتغل بالأدب والانشاء والسياسة من أوائل عمره ، وأفاد من صحبة السيد جمال الدين الأفغانى والشيخ محمد عبده ونشأ على حبّ هذه المدرسة وحبّ العقيدة الاسلامية وانتخب مبعوثا فى مجلس المبعوثان التركى ، وحضر الحرب فى طرابلس ، ثم انتقل الى جنيف حيث قضى معظم عمره فى الدفاع عن قضايا المسلمين والعرب ، وحرّم عليه قلمه أن يطأ بقدمه أكثر البلاد الاسلامية ، وانتقل فى آخر حياته الى وطنه وتوفى فى ديسمبر عام ١٩٤٦ فى بيروت ، ودفن فى الشويفات وكان قد أوصى أن يغسل ويكفن ويصلى عليه على طريقة اهل السنّة ، رحمه الله تعالى

يمتاز الأمير بين كتّاب هذا العصر بالرسوخ فى اللغة العربية والتضلع من أمثال العرب والأساليب القديمة ، يعطف على السجع أحيانا وله فى الكلام المرسل احسان وابداع ، ألّف عشرات من المؤلفات وكتب الوفا من الصفحات أحسنها وأشهرها حواشيه على حاضر العالم الاسلامى ، وترجمة السيد السنوسى ملتقطة منها .

(٢) الاستراحة يقال « انى لأستجم قلبى بشىء من اللهو » أى انى لأجعل قلبى يتفكه بشىء من اللهو (٣) الاراحة (٤) الحرب والعمل وأصله الرمى =

وتسهل الرياضة ، ويكون دانيا من وطنى سورية لملاحظة شغلى الخاص ، وتعهد أملاكى فيها ، فاخترت مرسين (١) ،وألقيت مرساة (٢)غربتى فيها • وكان السيد السنوسى بلغه قدومى الى دار السعادة ، فكتب لى يرغب الىّ فى سرعة المجىء ويرحب بى • فلما جئت الى مرسين ، ذهبت توّاً (٣) لزيارته فأبى الا أن أنزل عنده ، ريثما أكون استأجرت منزلاً فى البلدة ، وقد رأيت فى هذا السيد السند بالعيان ما كنت أتخيله عنه بالسماع وحق لى والله أن أنشد :

كانت محادثة الركبان تخبرنـا عن جعفر بن فلاح أطيب الخبر
حتى التقينا فلا والله ما سمعت اذنى بأحسن مما قد رأى بصرى

رأيت فى السيد حبرا جليلا ، وسيدا غطريفا (٤) ، واستاذا كبيرا ، من أنبل (٥) من وقع نظرى عليهم مدة حياتى ، جلالة قدر ، وسراوة (٦) حال ورجاحة عقل ، وسجاحة (٧) خلق ، وكرم مهزة وسرعة فهم ، وسداد رأى ، وقوة حافظة ، مع الوقار الذى لا تغض من جانبه الوداعة ، والورع الشديد فى غير رئاء ولا سمعة •

سمعت انه لا يرقد فى الليل أكثر من ثلاث ساعات ، ويقضى سائر ليله فى العبادة والتلاوة ، والتهجد ، ورأيته مرارا تنفج (٨) بين يديه السفر

= بالسهام وكان الأمير مشغولا فى حرب طرابلس (١) بلد واقع على شاطىء البحر الابيض من سواحل تركيا وهو آخرها مما يلى سورية وبعده اسكندرونة (٢) انجر السفينة ج مراس والقاء المرساة كناية عن الاقامة يقال القى مراسيه أى أقام (٣) يقال جاء توّاً أى قاصدا لا يعرجه شىء (٤) بالكسر السرىّ ، السيد ، الحسن ج غطارفة وغطاريف (٥) ذو نجابـة وفضل (٦) المروءة والسخا (٧) دماثة الخلق ولينه وسهولته (٨) تبسط

الفاخرة اللائقة بالملوك فيأكل الضيوف والحاشية [1] ويجتزىء [2] هو بطعام واحد لا يصيب منه الا قليلا ، وهكذا هي عادته .

وله مجلس كل يوم بين صلاتي الظهر والعصر لتناول الشاى الأخضر الذى يؤثره المغاربة . فيأمر بحضور من هناك من الأضياف ورجال المعية ، ويتناول كل منهم ثلاثة اقداح شاى ممزوجا بالعنبر . فأما هو فيتحامى [3] شرب الشاي لعدم ملائمته لصحته . وقد يتناول قدحا من النعناع .

ومن عادته انه يوقد فى مجالسه غالبا الطيب ، وينبسط السيد الى الحديث ، واكثر احاديثه فى قصص رجال الله وأحوالهم ورقائقهم وسير سلفه السيد محمد بن على بن السنوسى ، والسيد المهدى ، وغيرهما من الأولياء والصالحين واذا تكلم فى العلوم قال قولا سديدا ، سواء فى علم الظاهر والباطن .

وقد لحظت منه صبرا قل ان يوجد فى غيره من الرجال وعزما شديدا تلوح سيماءه [4] على وجهه ، فبينا هو فى تقواه من الأبدال اذا هو فى شجاعته من الأبطال . وقد بلغني انه كان فى حرب طرابلس يشهد كثيرا من الوقائع بنفسه ، ويمتطى [5] جواده [6] بضع عشرة ساعة على التوالى بدون كلال [7] ، وكثيرا ما كان يغامر [8] بنفسه ولا يقتدى بالأمراء وقوّاد الجيوش الذين يتأخرون عن ميدان الحرب مسافة كافية ، ان لا تصل اليهم يد العدو فيما لو وقعت هزيمة . وفى احدى المرار أوشك أن يقع فى أيدى الطليان [9] ، وشاع انهم أخذوه اسيرا ، وقد سألته عن تلك الواقعة فحكى لى خبرها بتفاصيله وهو انه كان ببرقة فبلغ الطليان

---

(١) أهل الرجل وخاصته ج حواش (٢) يكتفى (٣) يحترز ويتجنب
(٤) العلامة والهيئة (٥) يركب (٦) الفرس السريع ج جياد واجياد واجاويد
(٧) التعب والاعياء (٨) يقاتل ولم يبال بالموت (٩) أهل ايطاليا

بواسطة الجواسيس ان السيد فى قلة من المجاهدين ، وغير بعيد عن جيش الطليان ، فسرحوا (١) اليه قوة عدة آلاف ومعها كهرباة خاصة لركوبه ، اذ كان اعتقادهم انه لا يفلت (٢) من أيديهم تلك المرة ، فبلغه خبر زحفهم (٣) وكان يمكنه أن يخيم (٤) عن اللقاء أو أن يتحرف (٥) بنفسه الى جهة يكون فيها بمنجاة من الخطر ، او يترك الحرب للعرب تصادمهم فلم يفعل وقال لى : « خفت اننى ان طلبت النجاة بنفسى اصاب المجاهدين الوهل(٦)، فدارت عليهم الدائرة (٧) ، فثبتُ للطليان وهم بضعة آلاف بثلثمائة مقاتل لاغير ، واستمات(٨) العرب وصدموا العدو ، فلما رأى وفرة (٩) من وقع من القتلى والجرحى ارتدوا على أعقابهم ، وخلصنا نحن الى جهة وافتنا فيها جموع المجاهدين »

قال لى : وفى هذه الوقعة جرح الضابط نجيب الحورانى ، الذى كان من أشجع أبطال الحرب الطرابلسية ، كان قائدا ولكنه كان يغامس (١٠) بنفسه فى كل واقعة ، فجرح مرتين واستشهد فى الثالثة رحمه الله ، ولم يحزن السيد على أحد حزنه عليه لباهر شجاعته وشديد اخلاصه، وكان السيد يكتب لى من الجبل الأخضر وافر الثناء عليه ، وهو اليوم دائم الترحم عليه ، والشهيد المذكور هو نجيب بك بن الشيخ سعد العلى ، من مشائخ بلاد عجلون ، ترك فى بلاد الغرب ذكرا خالدا .

والسيد احمد الشريف سريع الخاطر ، سيال القلم ، لا يملُّ الكتابة أصلا ، وله عدة كتب منها كتاب كبير اطلعنى عليه فى تاريخ السادة السنوسية ، وأخبار الأعيان من مريديهم والمتصلين بهم ، ينوى طبعه

---

(١) ارسلوا ووجهوا (٢) لا يتخلص (٣) مشيهم يقال « زحف العسكر الى العدو » اذا مشوا اليهم فى ثقل لكثرتهم بابه فتح (٤) ان يعدل وينصرف (٥) ينحرف ويميل (٦) الفزع (٧) النازلة والمصيبة ج دوائر يقال « دارت عليهم الدوائر » أى نزلت بهم النوائب والدواهى (٨) اى ثبتوا وطلبوا الموت (٩) الكثرة (١٠) يغامر بها ويلقيها فى الخطر

ونشره فيكون أحسن كتاب لمعرفة أخبار السنوسيين ، وانما يفهم الانسان من مطالعة أخبار سيدى محمد السنوسى ، وولده سيدى المهدى ، ومحادثة سيدى احمد الشريف ، ان طريقتهم طريقة عملية ، تعمل بالكتاب والسنة ، ولا تكتفى بالاذكار والأوراد ، دون القيام بعزائم الاسلام ، كما كان عليه الصدر الاول ولذلك وفقوا للجهاد ووقفوا فى وجه دولة عظيمة كدولة ايطالية ، منذ ثلاث عشرة سنة ، لولاهم كانت سيدة لطرابلس وبرقة منذ أول شهر من غاراتها عليهما ، ويذكر الناس ان الطليان قدروا لتدويخ (١) طرابلس وبرقة كلهما مدة خمسة عشر يوما من أول نزولهم ، وان قوادا من الانكليز المحنكين (٢) فى حروب المستعمرات (٣) والبوادى قالوا ان الطليان أفرطوا فى التفاؤل بظنهم الاستيلاء على بر طرابلس فى ١٥ يوما ، والحقيقة انه قد تأخذ هذه المسألة معهم ثلاثة أشهر ... فلينظر الانسان كيف ان المدة التي قدرها اركان الحرب فى ايطالية ١٥ يوما ، وقدّرها أركان الحرب فى انكلترة ثلاثة اشهر تطاولت ثلاث عشرة سنة كاملة ، والحرب اليوم هى كما كانت فى بدايتها ، وكل هذا بفضل السادة السنوسية ، ولا سيما هذا السيّد العظيم سيدى احمد الشريف .

وكان الاوربيون فى عهد السلطان عبد الحميد يشكون الى السلطان حركة السنوسى ، ويتوجّسون (٤) خيفة من تشكيلاته وحركاته ويرون فيه أعظم خصم للدعوة الاوربية فى افريقية ، وطالما ضغطت (٥) دول اوربا على السلطان لأجل ان يستدعى السيد المهدى الى الاستانة (٦) ويأمره بالاقامة بها ، ولا يأذن له بالعودة الى وطنه ، ليخلو للاوربيين الجو فى تقسيم اواسط افريقية ، وخضد (٧) الشوكة الاسلامية فى تلك الديار

---

(١) اى القهر والاستيلاء (٢) المجرّبين الذين جعلتهم التجارب حكماء
(٣) جمع مستعمرة وهى ما تمتلكه دولة من الدول فى بلاد غير بلادها
(٤) يحسون (٥) ضيّقت بابه فتح (٦) دار الخلافة العثمانية اى القسطنطينية
(٧) اى الكسر وخضد شوكته قهره واذلّه

فكان السلطان يماطل (١) هاتيك الدول ، ويعتذر لهم بصنوف الاعذار ، بل كان يلاطف السنوسي كثيرا بالهدايا والكتابات ، الى ان اشتد الضغط على السلطان فى قضية السنوسى ، فأرسل رجلا اسمه عصمت بك الى بنغازى (٢) ، ومنها الى جغبوب (٣) بمأموية (٤) سرية ، فبلغ المهدى ما هو عليه السلطان من الارتباك (٥) من جهة ضغط الدول عليه ، فى أمر الدعاية السنوسية ، فأجابه السيد مهدى بحسب ما قرات فى التاريخ الذى تقدم ذكره ، بكلام لا يتضمن نفيا ولا ايجابا ، وانما تلا له آيات كريمة فى معنى الاتكال على الله . ولكن السيد المهدى لم يعتّم (٦) بعدها أن فارق الجغبوب الى واحة (٧) الكفرة وبنى فيها زاوية التاج ، وعمر الكفرة عمارة جعلتها جنة فى وسط الصحراء ، والأغلب ان سبب تحوله من واحة الجغبوب القريبة من مصر وبرقة الى واحة الكفرة التى هى فى أواسط الصحراء الكبرى ثم توغله (٨) من الكفرة الى ناحية قرو التى اختاره الله فيها ، وهى على أبواب السودان هما من ارتياحه الى العزلة ، وميله الى التنائى عن مراكز السلطة الرسمية، والخروج عن مناطق تأثير الدول الاستعمارية بحيث اتنبذ مراكز محاطة بالفيافى (٩) والقفار (١٠) ، مأهولة (١١) بأقوام لا يزالون على الفطرة ، فأصبح حرًّا فى بث دعوته لا تصل اليه يد بضغط ، ولا تعلو فوق كلمته كلمة وعكف على تهذيب تلك الأقوام ، ونشّأهم فى طاعة الله بعد أن كانوا يتسكّعون (١٢) فى مهامه (١٣) الجهل فبدّلت به الأرض غير الأرض ، وانقلبت به أخلاق هاتيك الامم انقلابا حيَّر العقول ، ولم يقف

---

(١) أى يسوف بوعد الوفاء مرة بعد اخرى (٢) قاعدة برقة (٣) موضع (٤) أى بمهمة (٥) التردد (٦) لم يمكث ولم يلبث (٧) أرض خصيبة فى صحار رملية ج واحات (٨) توغل فى البلاد ذهب وابعد (٩) جمع فيفاء المفازة لا ماء فيها (١٠) جمع قفر الخلاء من الأرض لا ماء فيه ولا كلأ ولا ناس ويجمع ايضا على تفور (١١) معمورة (١٢) تسكع فى سيره أو امره لم يهتد لوجهته (١٣) جمع مهمة اى المفازة البعيدة

فى الدعاية الروحية على واحات الصحراء واطراف السوادين ، بل بث دعاته فى أواسط أفريقية فكان منهم مثل الشيخ محمد بن عبد الله السنى ، والشيخ حمودة المقعاوى ، والسيد طاهر الدغمارى ، ورجالات آخرون جالوا السوادين مبشرين وهادين ، فكان السيد المهدى هو المزاحم الاكبر لجمعيات المبشرين الاوربية ، المنبثّة فى قارة افريقية كلها ، وعلى يده وبسبب دعايته الحثيثة (١) اهتدى للاسلام ملايين من الزنوج ، فلهذا جمعيات المبشرين بأسرها تشكو حزنها ، وبثّها من نجاح الاسلام فى أواسط افريقية ، مثل بلاد النيجر ، والكونغو والكامرون ، وديار بحيرة تشاد ، وتوجه أكثر شكواها الى الطريقة السنوسية ، كما طالعنا ذلك فى مؤلفات اوربية عديدة .

هـذا من جهـة القوة الروحيـة وأما مـن جهة القوة المـادية ، فقـد كان السيـد المهدى يهـدى هدى (٢) الصحـابة والتابعين ، لا يقتنـع بالعبـادة دون العمـل ، ويعلم أن أحكـام القرآن محتاجة الى السلطان ، فكان يحث اخوانه ومريديه دائما على الفراسة والرماية ، ويبث فيهم روح الانفة والنشاط ، ويحملهم على الطراد (٣) والجلاد (٤)، ويعظّم فى أعينهم فضيلة الجهاد ، وقد أثمر غراس (٥) وعظه فى مواقع كثيرة ، لاسيما فى الحرب الطرابلسية التى أثبت بها السنوسية أن لديهم قوة مادية تضارع (٦) قوة الدول الكبرى وتضارع أعظمها جبروتا وكبرا ، وليست الحرب الطرابلسية وحدها هى التي كانت مظهر بطش السنوسيين بل سبقت لهم حروب مع الفرنسيس فى مملكة كانم ومملكة واداى من السودان استمرت من سنة ١٣١٩ الى سنة ١٣٣٢ هجرية .

وحدثنى السيد احمد الشريف ان عمه المهدى كان عنده خمسون بندقية خاصة به ، وكان يتعاهدها بالمسح والتنظيف بيده لا يرضى ان يمسحها له أحد من أتباعه المعدودين بالمئات قصدا وعمدا ليقتدى به الناس

---

(١) السريعة (٢) السيرة (٣) اى حمل بعضهم على بعض (٤) المضاربة بالسيوف (٥) اثبات الشجر فى الأرض (٦) تشابه

ويحتفلوا (١) بأمر الجهاد ، وعدته (٢) وعتاده (٣) ، وكان نهار الجمعة يوما خاصا بالتمرينات الحربية ، من طراد ورماية ، وما أشبه ذلك ، فكان يجلس السيد فى مرقب عال ، والفرسان تنقسم صفين ، ويبدأ الطراد ، فلا ينتهي الا فى آخر النهار ، وأحيانا يضعون هدفا ، ويأخذون بالرماية حتى كنت ترى طلبة العلم والمريدين أكثرهم فرسانا ورماة ، لكثرة ما كان يأخذهم بهذا المران ، وكان يجيز الذين يسبقون فى الطراد ويقرطسون(٤) فى الرمى بجوائز ذات قيمة ترغيبا لهم فى فضائل الحرب كما انه كان يوم الخميس من كل اسبوع مخصّصا عندهم للشغل بالأيدى فيتركون فى ذلك اليوم الدروس كلها ، ويشتغلون بأنواع المهن (٥) من بناء ، ونجارة وحدادة ، ونساجة ، وصحافة وغير ذلك .

لا تجد منهم ذلك اليوم الا عاملا بيده ، والسيد المهدى نفسه يعمل بيده لا يفتر حتى ينبه فيهم روح النشاط للعمل ، وكان السيد المهدى وأبوه من قبله يهتمان جد الاهتمام بالزراعة والغرس تستدل على ذلك من الزوايا التى شادوها (٦) ، والجنان التي نسّقوها بجوارها ، فلا تجد زاوية الا لها بستان أو بساتين ، وكانوا يستجلبون أصناف الاشجار الغريبة الى بلادهم من أقاصي البلدان ، وقد أدخلوا فى الكفرة وجغبوب زراعات وأغراسا لم يكن لأحد هناك عهد بها ، وكان بعض الطلبة يلتمسون من السيد محمد السنوسى أن يعلمهم الكيمياء فيقول لهم : « الكيمياء تحت سكة (٧) المحراث (٨) » وأحيانا يقول لهم : « الكيمياء هى كد اليمين (٩) وعرق الجبين » وكان يشوق الطلبة والمريدين الى

---

(١) احتفل بالأمر احسن القيام به (٢) بالضم ما اعددته لحوادث الدهر من مال وسلاح ج عُدد (٣) بالفتح ما أعد لأمر ما ، وكل ما هيىء من سلاح ودواب وآلة حرب ج أعتُد وعُتُد وأعتِدة (٤) قرطس أصاب القرطاس أى الغرض (٥) جمع مهنة أى العمل (٦) شاد البناء رفعه بابه ضرب (٧) حديدة الفدان التى تشق الأرض ج سِكك (٨) آلة الحرث ج محاريث (٩) كناية عن العمل بمشقة وعناء وكذلك عرق الجبين

القيام على الحرف والصناعات ، ويقول لهم جملا تطيب خواطرهم ، وتزيد رغبتهم فى حرفهم (١) ، حتى لايزدروا بها أو يظنّوا أن طبقتهم هى أدنى من طبقة العلماء ، فكان يقول لهم : « يكفيكم من الدين حسن النيّة والقيام بالفرائض الشرعيّة ، وليس غيركم بأفضل منكم » وأحيانا يدمج (٢) نفسه بين أهل الحرف ، ويقول لهم وهو يشتغل معهم : « يظن أهل الاوريقات والسبيحات انهم يسبقوننا عند الله لا والله ما يسبقوننا » • يريد بأهل الاوريقات العلماء وبأهل السبيحات العابدين والقانتين فكأنه يريد أن يقول للمحترفين والصنّاع لا تظنّوا أنكم دون العلماء والزهّاد مقاما ، بمجرد كونكم صنّاعا وعملة ، وكونهم هم علماء وقراء ، هذا ليزيدهم رغبة وشوقا ، ويعلّم الناس حرمة الصناعة التي لا مدنيّة الا بها ،

هذه الفرقة عملية لا تعتمد على مجرد التلاوة والذكر دون العمل والسير ، فهى تجمع بين العمل الشرعى بحذافيره (٣) ، والتجرّد الصوفى الى اقصى درجاته ، وتنظم بين الظاهر والباطن ، نظما لم يوفّق اليه غيرها (٤) ، ويظهر ان مؤسّسى هذه الطريقة السيد محمد بن على بن السنوسى ، وولديه السيد المهدى ، والسيد الشريف ، وكبار أعوانهم مثل سيدى احمد الريفى ، وسيدى عمران بن بركة ، وسيدى احمد التواتى ، وسيدى عبد الرحيم بن احمد ، وسيدى عبد الله السنى ، وسيدى ابى القاسم العيساوى ، وغيرهم كانوا على أخلاق عظيمة ومدارك سامية ، تدل عليها أقوالهم وافعالهم ،

حدثنى سيدى احمد الشريف ان عمه الاستاذ المهدى كان يقول له : لا تحقرن أحدا ، لا مسلما ولا نصرانيا ولا يهوديا ولا كافرا ، لعله يكون

(١) جمع حرفة الصناعة ووجهة الكسب (٢) يُدخل (٣) بأسره وأجمعه
(٤) لقد سبقهم بهذا النظم فى الهند بنحو قرن السيد الامام احمد بن عرفان البريلوى امام الطريقة وامام المجاهدين ورئيس حكومة شرعية على تخوم الهند ووزيره ويمينه مولانا اسماعيل الشهيد الدهلوى رحمهما الله تعالى

فى نفسه عند الله أفضل منك ، اذ أنت لا تدرى ماذا تكون خاتمته » •
وبمثل هذه الآداب كانوا يأخذون أولادهم ومريديهم ، فكان من هؤلاء أقطاب وأبطال ، يتجمل التاريخ بذكرهم ، وواسطة (١) عِقدهم اليوم هو السيد احمد الشريف الذى نحن فى ترجمته

وقد ذرّف (٢) السيّد المشار اليه على الخمسين ولكن هيئته لا تدل على وصوله الى هذه السن ، لندورة الشيب فى شعره ، وهو رائع المنظر ، بهىّ الطلعة ، عبل (٣) الجسم ، قوى البنية ، لا يمكن ان يراه احد بدون أن يجله ويحترمه (٤) •

الدين الصناعي

للدكتور احمد امين (٥)

هل تعرف الفرق بين الحرير الطبيعى والحرير الصناعى ؟ وهل تعرف الفرق بين الأسد وصورة الأسد ؟ وهل تعرف الفرق بين الدنيا فى الخارج والدنيا على الخريطة (٦) ؟ وهل تعرف الفرق بين عملك فى اليقظة وعملك

---

(١) واسطة العقد الجوهرة التي تكون فى وسط القلادة وهى اجودها والمراد بواسطة عقدهم افضلهم (٢) أربى وزاد (٣) الضخم (٤) توفى سيدى احمد الشريف السنوسى فى المدينة المنورة فى منتصف ذى القعدة سنة ١٣٥١

(٥) ولد أحمد امين عام ١٨٨٦ م فى مدينة القاهرة ودخل الأزهر ومدرسة القضاء الشرعى فتخرج بها قاضيا وتعلم الانكليزية واشتهر ببحوثه الادبية ومقالاته العلمية ، وفى عام ١٩٣٦ عُيِّن مدرسا فى كلية الآداب بالجامعة المصرية وانتخب بعد قليل عميدا للكلية ، ومنح عام ١٩٤٨ لقب الدكتوراه مع جائزة فؤاد الاول ، وانتخب مديرا للادارة الثقافية بالجامعة العربية ، وظلّ مشرفا على لجنة التأليف والترجمة والنشر نحو ثلاثين سنة واشرف على طبع كتب كثيرة ، وساهم فى تأليف عدة كتب ، توفى عام ١٩٥٤ م

من أشهر مؤلفاته وأعظمها انتشارا سلسلة كتب « فجر الاسلام » و « ضحى الاسلام » وله « فيض الخاطر » مجموع مقالات فى سبعة مجلدات

والاستاذ أحمد امين من كبار المنشئين والمؤلفين فى هذا العصر ، يغلب على انشائه الطبع والرواء وعدم التكلف ، وله فى البحوث العلمية اسلوب متين رشيق ، (٦) ما ترسم عليه هيئة الأرض أواقليم منها

فى المنام .

وهل تعرف الفرق بين انسان يسعى فى الحياة ، وبين انسان من جبس (١) وضع فى متجر لتعرض عليه الملابس ؟ وهل تعرف الفرق بين النائحة الثكلى (٢) والنائحة المستأجرة ، وبين التكحل فى العينين والكحل (٣) ؟ وهل تعرف الفرق بين السيف يمسكه الجندى المحارب وبين السيف الخشبي يمسكه الخطيب يوم الجمعة ؟ وهل تعرف الفرق بين الناس فى الحياة والناس على الشاشة (٤) البيضاء ؟ وهل تعرف الفرق بين الصوت والصدى (٥) ؟ ان عرفت ذلك فهو بعينه الفرق بين الدين الحق والدين الصناعى .

يكدُّ الباحثون أذهانهم ، ويجهد المؤرخون أنفسهم فى تقليب صحفهم ووثائقهم عن تعرف السبب فى أن المسلمين أول أمرهم أتوا بالعجائب ، فغزوا وفتحوا وسادوا ، والمسلمين فى آخر أمرهم أتوا بالعجائب أيضا فضعفوا وذلوا واستكانوا ، والقرآن هو القرآن ، وتعاليم الاسلام هى تعاليم الاسلام ، ولا اله الا الله هى لا اله الا الله ، وكل شيء هو كل شيء ، ويذهبون فى تعليل ذلك مذاهب شتى ، ويسلكون مسالك متعددة . ولا أرى لذلك الا سببا واحدا وهو الفرق بين الدين الحق والدين الصناعى .

الدين الصناعي حركات وسكنات وألفاظ ، ولا شيء وراء ذلك ، والدين الحق دين روح وقلب وحرارة .

الصلاة فى الدين الصناعى العاب رياضية ، والحج حركة آلية ورحلة بدنية ، والمظاهر الدينية أعمال مسرحية أو أشكال بهلوانية .

و « لا اله الا الله » فى الدين الصناعى قول جميل لا مدلول له . أما فى الدين الحق فهى كل شيء ، هى ثورة على عبادة المال ، وثورة على

---

(١) الجص الذى يبنى به (٢) التى فقدت ولدها (٣) مصدر كحِل من باب سمع يقال كحِل الرجل أى كان اكحل العينين خلقة (٤) يريد الستار الذى يمثل القصة (٥) ما يرده الجبل أو غيره الى المصوت مثل صوته ج أصداء

عبادة السلطان ، وثورة على عبادة الجاه ، وثورة على عبادة الشهوات ، وثورة على كل معبود غير الله •

« لا اله الا الله » فى الدين الصناعي تتفق مع احناء الرأس والخضوع لشهوة البدن ، وتتفق مع الذلة والمسكنة • و « لا اله الا الله » في الدين الحق لا تتفق الا مع الحق • « لا اله الا الله » فى الدين الصناعى تذهب مع الريح وفى الدين الحق تزلزل الجبال •

الدين الصناعى صناعة كصناعة التجارة والحياكة ، يمهر فيها الماهر بالحذق والمران ، اما الدين الحق فروح وقلب وعقيدة • ليس عملا ولكن يبعث على كل عمل جليل وكل عمل نبيل (١) •

الدين الحق « اكسير » يحل فى الميت فيحيا ، وفى الضعيف فيقوى • هو حجر الفلاسفة تضعه على النحاس والفضة والرصاص فتكون ذهبا •

هو العقيدة التى تأتى بالمعجزات فيقف العلم والتاريخ والفلسفة أمامها حائرة : بم تعلّل ، وكيف تشرح

هو الترياق الذى تتعاطى منه قليلا فيذهب بكل سموم الحياة • هو العنصر الكيمياوى الذى تمزج به الشعائر الدينية فتطير بك الى الله ، وتمزج به الأعمال الدنيوية فتذلل العقبات مهما صعبت ، وتصل بك الى الغرض مهما لاقت •

هو الذى وجده كل من نجح ، وهو الذى فقده كل من خاب • هو الكهرباء (٢) الذى يتصل فيدوّر العجل ، ويسير العمل ، وينقطع فلا حركة ولا عمل • هو الذى يحل فى الأوتار فتوقع (٣) ، وكانت قبل حبالا ، وفى الصوت فيغنى وكان قبل هواء •

الدين الحق يحمل صاحبه على أن يحيا له ويحارب له • والدين

---

(١) الجليل والعظيم (٢) قوة تتولد فى بعض الاجسام بواسطة الحك او الحرارة او الانفعالات الكيماوية (٣) أى تبنى الحان الغناء على موقعها وميزانها

الصناعى يحمل صاحبه على أن يحيا به ، ويتاجر به ويحتال به .

الدين الحق صاحبه فوق كل سلطة وفوق كل سياسة . والدين الصناعى يحمل صاحبه على ان يلوى الدين ليخدم السلطات ويخدم السياسة .

الدين الحق قلب وقوة ، والدين الصناعى نحو وصرف واعراب وكلام وتأويل . الدين الحق امتزاج بالروح والدم وغضب للحق ونفور من الظلم وموت في تحقيق العدل . والدين الصناعى عمامة كبيرة وقباء يلمع وفرجية (١) واسعة الاكمام .

« الشهادة » فى الدين الحق هى ماقال اللهتعالى : « إنَّ اللهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِى سَبِيلِ اللهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ » . والشهادة فى الدين الصناعى اعراب جملة وتخريج متن وتفسير شرح وتوجيه حاشية وتصحيح قول مؤلف والاعتراض عليه .

الدين الحق تحسين علاقة الانسان بالله ، وتحسين علاقة الانسان بالانسان لتحسن علاقتهم جميعا بالله . والدين الصناعى تحسين علاقة صاحبه بالانسان لاستدرار رزق أو كسب جاه أو تحصيل مغنم أو دفع مغرم .

لقد صدق من قال « ان هذا الدين لايصلح آخره الا بما صلح به أوله » وهل كان أوله الا دين روح وهل كان آخره الإ دين صناعة ؟

جناية أهل كل دين أن يبتعدوا ـ كلما تقدم بهم الزمان ـ عن روحه ويحتفظوا بشكله ، وان يقلبوا الاوضاع ، ويعكسوا التقدير ، فلا يكون للروح قيمة ، ويكون للشكل كل القيمة .

---

(١) نوع من الاقبية

شأن « الايمان » شأن العشق ، يحول البرودة حرارة ، والخمول نباهة ، والرذيلة فضيلة ، والأثرة ايثارا .

والايمان الحق كالعصا السحرية ، لاتمس شيئا الا ألهبته ، ولا جامدا الا أذابته ، ولا مواتا الا أحيته .

من لى بمن يأخذ الدين الصناعى بكل ما فيه ، ويبيعنى ذرة من الدين الحق فى أسمى معانيه ؟

ولى كبد مقروحة من يبيعنى   بها كبدا ليست بذات قروح(١)

سالم مولى أبي حذيفة رضي الله عنه

للدكتور طه حسين (٢)

أقبل سلاّم بن حبير القرظىّ من الشام ، كعهده فى كل عام ، بتجارة

---

(١) الثقافة

(٢) وُلِدَ فى مصر ١٨٨٩ وفقد بصره فى صغره وجلس فى الكتّاب وحفظ القرآن الكريم ودخل الأزهر ولم يكمل دراسته فيه وتوفر على دراسة الأدب العربى وسافر الى باريس ونال الدكتوراه من جامعتها ، وعيّن مدرّسا فى كلية الآداب بالجامعة المصرية وانتخب عميدا لها ، ثم انقطع الى الانشاء والتأليف ، وخالف الجمهور والمعروف فى بعض الآراء وتطرّف ، وقد أثار كتابه « الشعر الجاهلى » ضجّة فى مصر وسخط اكثر أهل العلم والدين وانتخب وزير المعارف فى سنة ١٩٤٩

الدكتور طه حسين راسخٌ فى العربية ، عكف على مطالعة المصادر الأدبية القديمة ، وتذوق أسلوب كتب السيرة والتاريخ وقلّده ، له أسلوب خاص يعرف به يتسم بنقاء الكلمات وتبسيط الموضوع وتكرار المادة ، ويحسن كتابة شيء كثير لا يعتقده ولا يتحمّس له وتلك صناعة لا يحسنها كل واحد ، له « على هامش السيرة » و « الوعد الحق » عدا كتبه الأدبية والتاريخية الكثيرة .

عظيمة فيها فنون من العروض (١) وضروب من المتاع ، بعضه مما تخرج الشام ، وبعضه مما يصنع أهل الجزيرة ، وبعضه مما تحمله الروم الى دمشق و بُصْرى (٢) وتبيعه من قوافل العرب واليهود ليحملوه الى الأرض البعيدة التى لا تصل اليها يد قيصر ولا يبلغها سلطانه فى نجد والحجاز وفى تهامة (٣) واليمن . ولم يَكَدْ سلاّم بن حبير يستقر فى بنى قُر يظة ويريح نفسه من سفر شاق طويل ، حتى عرض متاعه ذاك المختلف للناس ، فأقبل عليه أهل يثرب من الأوس والخزرج ، وأقبل عليه مَنْ حول يثرب من يهود ينظرون ويشترون . ولم تمض أيام حتى كان سلاّم بن حبير قد باع تجارته وأفاد منها مالاً كثيراً . ولولا هذا الصبى الذى عرضه سلاّم على العرب فرغبوا عنه ، وعلى اليهود فزهدوا فيه ، لرضيت نفس سلام كل الرضا ، ولأنفق الأشهر المقبلة مطمئنا مغتبطا مجوّلا فى أحياء يثرب مرسلا رقيقه وأحلافه فيما حول يثرب من أحياء العرب واليهود وفى أعماق البادية ، يجلبون له من المتاع الذى يحمله الى الشام متى أقبل فصل الرحلة الى الشام . ولكن هذا الصبى كان غُصّة (٤) فى حلقه وحسرة فى قلبه ، قد اشتراه فى بُصْرَى من بعض الكلبيين بثمن بخس زهيد ، وقدّر فى نفسه أنه سيبيعه من بعض أهل يثرب فيربح فى ثمنه ذاك الذى أداه مثليه أو أمثاله . ولكن أهل يثرب من العرب واليهود لم يعهدوا سَلاماً جالباً للرقيق أو مُتجراً (٥) فيه . فلما رأوه يعرض عليهم هذا الصبى ويلح فى عرضه ويرغب فى شرائه ، أنكروا منه ذلك وظنوا به الظنون . وقا لقائلهم : انما اشترى سلاّم هذا الغلام لنفسه ، فلا نأمن أن يكون قد رأى فيه من العيب أو الآفة ما زهّده فيه ، فهو يبيعنا ما ليس له فيه أرب (٦) . وكان الصبى بادى السقم ظاهر الضر ،

---

(١) العرض المتاع وكل شيء سوى الدرهم والدينار (٢) بلد بالشام
(٣) بلاد جنوبى الحجاز (٤) ما غصّ به الانسان واعترض فى حلقه (٥) تجر وتاجر واتجر ، تعاطى التجارة (٦) حاجة .

كأنه قد لقى من الذين اتجروا فيه شَرًّا وَنُكراً (١) . ولم يكن يُحسن العربية ، بل لم يكن يستطيع أن يُفصح عــن ذات نفسه . ولم يكن يُحسن الرومية بل لم يكن ينطق منها حرفاً ، وانما كان اذا كلمه سيده أو غير سيده من الناس التوى (٢) لسانه بألفاظ فارسية لا يفهمها عنه أحد . وكان سَلاّم يزعم للناس أن هذا الصبى ذكى الفؤاد صَنَّاع (٣) اليد موفور النشاط اذا صلحت حاله ووجد من الطعام ما يقيم أوده (٤). وكان يزعم لهم أنه سليل أسرة فارسية شريفة أقبلت من اصطَخر حتى استقرت فى الأبُلّة ، فملكت أرضا واسعة وزارعت فيها النبط ، وملكت تجارة عريضة كانت تُصَرّفها فى أطراف العراق . فاذا سئل من أنباء هذه الأسرة عن أكثر من ذلك لم يُحِرْ جوابا (٥) ، وانما يقول : زعم لىَ من باعنى هذا الصبى أن العرب اختطفوه حين أغاروا مع الروم على الأبلة ، فباعوه من بنى كلب ، وتعرّض به بنو كلب فى بصرَى يريدون أن يبيعوه لبعض تجار العرب أو اليهود . وقد رأيته فرقٌ له قلبى ومالت اليه نفسى ، وقدّرت أن سيكون له شأن أى شأن ، فاشتريته فيما اشتريت من المتاع والعروض .

هنالك كان الناس يقولون له : فلم لا تُمسكه عليك اذن ؟ فيقول : ان ما أنفقت من المال فيه أحب الىّ وآثر عندى منه . وماذا أصنع بصبى لا أحسن القيام عليه ولا يُحسن هو أن يقوم على نفسه ، وليس لى أهل أكله اليهم ؟ والصبى مع ذلك ذكى القلب صناع اليد موفور النشاط ان صلحت حاله وأصاب من الطعام ما يقيم أوده . انظروا الى عينيه كيف تدوران ولا تكادان تستقران على شىء . انه سريع الحس يختطف ما يرى دون أن يُثبته (٦) . وانظروا اليهما كيف تتوقدان كأنهما جَذْوتان (٧).

---

(١) منكرا (٢) انعطف (٣) صناع اليد ماهر حاذق (٤) الاعوجاج (٥) لم يردُ جوابا (٦) دون ان يثبته : دون ان يعرفه حق المعرفة (٧) جمرتان .

ولكن الناس كانوا يسمعون ويضحكون وينصرفون ويتركون سلاماً وفي قلبه حسرة على ما أنفق من مال وعلى ما كان يرجو من ربح . وتمر ثُبَيتةُ بنت يَعار الأوسية بسلاّم ذاتَ ضحى وهو يعرض صبيه هذا في أسواق يثرب ، فلا تكاد تنظر الى الصبي حتى ترحمه ، ثم لا تكاد تطيل النظر اليه حتى تقع في قلبها الرغبة في شرائه . قالت ثبيتة : ما اسم صبيك هذا يا ابن حبير ؟ قال سلاّم : زعم من باعه لي من بني كلب أن اسمه سالم . قالت : سالم ابن من ؟ قال سلام : لا أدري ! ولكني اشتريته من كلبي يسمى مَعنقِلاً ، وزعم لي أن أسرته أسرة شريفة أقبلت ... قالت ثبيتة : أقبلت من اصطخر فنزلت الأبلة وزارعت النبط وصرّفت تجارتها في أطراف العراق ، قد حفظنا ذلك عن ظهر قلب ؛ فاني له مشترية ، فبكم تبيعه مني ؟ قال سلاّم وقد ابتسم قلبه ورضيت نفسه ، ولكنه استبقى في وجهه الجد والحزم : فاني لا أريد الا ما أديت من ثمن وما أنفقت عليه منذ اشتريته . وتتصل المساومة بينها وبينه ، وتعود الى دارها بالصبي وقد ربح اليهودي فأحسن الربح ، وربحت هي بشراء هذا الصبي ربحاً لا يقوّم بالدراهم ولا بالدنانير .

ذلك أنها لم تشتره متجرة ولا مبتغية كسباً ، وانما آثرت بشرائه الخير والبر والمعروف ، لم ترد الى شيء آخر . وكانت تقول لنفسها في نفسها وهي عائدة بالصبي الى دارها : بُعداً لهذه الحياة التي لا يرحم الانسان فيها الانسان ، ولا يرأف القوي فيها بالضعيف ، ولا ترِقّ فيها القلوب للأمّ حين تفقد صبيها ، وللصبي حين ينشأ لا يعرف لنفسه أمّاً ولا أباً ولا فصيلة (١) يأوي اليها . وكانت تقول لنفسها في نفسها وهي عائدة بالصبي الى دارها : لو أن لي صبيّاً مثله فعدا عليه العادون ومَضوا به في غير مذهب من الأرض كيف كنت ألقى ذلك ! وكيف كنت أحتمله أو أصبر عليه ! وهل كنت أسلو عن صبيي آخر الدهر !

(١) عشيرة الرجل ورهطه الأدنون اليه

هيهات ! لو كان لى صبى مثله وعدا عليه العادون وذهبوا به فى غير مذهب من الارض لذكرته مصبحة وممسية ، ولذكرته يقظى ونائمة ، ولتبعته نفسى وذهبت فى تصوىُّر حاله المذاهب ، ولما اطمأننت للعيش ولا نَعِمت بالحياة ولا استمتعت بطيبات هذه الدنيا • وكانت ترى أم الصبى وقد انتزع منها ابنها وهى تشهد انتزاعه ، أو اختُطف ابنها وهى لا ترى اختطافه ، وكانت ترى تَوَلُّه (١) تلك الأم وتفجعها وحسرتها التي لا تخمد ، ولوعتها (٢) التى لا تنطفىء ودموعها التى لا تغيض (٣) • وكانت تقول لنفسها فى نفسها وهى عائدة بالصبى الى دارها : هذا غلام قد اختطف من ملك كسرى ، لم يستطع جند كسرى أن يحموه ولا أن يَرُدُّوا عنه العاديات (٤) ، فكيف بنا نحن فى يثرب ، هذه المدينة الخائفة التي يحيط بها اليهود والأعراب من جميع أقطارها ، والتى يَسُلّ بعض أهلها السيف على بعض ، والتى لا يأمن أهلها أن تدور عليهم دائرة ، أو تنوبهم نائبة ، أو يُلمّ بهم خطبٌ من الخطوب! فلما بلغت الدار واستقرت فيها ، وعنيتْ بالصبى حتى أمن بعد خوف وأنس بعد وحشة وطعم بعد جوع ، قالت لنفسها فى نفسها : هيهات أن أتخذ الأزواج أو أن يكون لى من الولد من يصيبه مثل ما أصاب هذا الصبى ، ومن أذوق فيه من الحزن والثكل (٥) مثل ما ذاقت فى هذا الصبى أمه تلك الفارسية ونساء أمثالها كثير • ولو استجابت الحياة لثبيتة لأنفقت أيامها معنية بهذا الصبى الفارسى ، ولاتخذته لنفسها ولداً أو شيئاً يشبه الولد • ولكن الناس يقدّرون ويدبرون ، والأيام تجرى على غير ما قدّروا ودبّروا •

فقد عُنيت ثبيتة بسالم حتى ربا جسمه ونما عقله وأصبح غلاماً ذكى القلب سريع الحس حديد اللسان كما قدّر اليهودى ، أو أكثر مما

---

(١) وَلَهَ وتوله حزن حزنا شديدا حتى كاد يذهب عقله (٢) اللوعة حرقة الحزن أو الهوى والوجد (٣) غاض الماء غار أو نضب (٤) الخطوب (٥) ثكلت الأم ابنها فقدته •

قدّر • وكانت ثبيتة له محبة وبه مغتبطة وعنه راضية • وقد خطبها الرجال من الأوس والخزرج ومن أشراف البادية حول يثرب ، فامتنعت عليهم . واعتلّت (١) على أهلها فى ذلك حتى أعيتهم (٢) • ولكن وفد قريش يمرون بيثرب مُنصَرفهم من الشام ذات عام ، فيمكثون فيها أياماً • ويسمع أبو حذيفة هُشَيم بن عُتبة بن ربيعة بحديث ثبيتة هذه وقصة غلامها ذاك ، فيعجبه ما يسمع ، ثم يحب أن يتزيد من أخبارها فَيُلمّ بقومها ويقول لهم ويسمع منهم ، فتقع ثبيتة من نفسه موقعاً حسناً ، مع أنه لم يرها ولم يسمع لها ، وانما سمع عنها فرضى • واذا هو يخطب هذه الفتاة الأبية ، فتمتنع عليه أول الأمر ، حتى اذا علمت بمكانه من قريش وبأنه من أشرافها وذوى المنزلة الرفيعة فيها ، وبأنه من أصحاب البيت وأهل الحرم الذى ردّ عنه أصحاب الفيل ، والذى لا يعدو عليه الا الفجرةُ الآثمون ، شكّت يوماً ويوماً ، ثم أصبحت مستجيبة لخِطبة هذا المكّى • ويعود أبو حذيفة بأهله وبسالم الى مكة فى وفد قريش ، فلا يكاد يستقر فيها حتى ينكر من أمرها بعض الشيء ، لقد أصبح فغدا على أندية قريش ، ثم أمسى فراح الى أندية قريش ، ولكنه يعرف من أمر هذه الأندية كثيراً ، وينكر من أمرها كثيراً • تريد نفسه أن تطمئن وأن تأمن وأن ترضى ، كما تعودت من قبل ، ولكنها لا تجد الى الطمأنينة ولا الى الأمن ولا الى الرضا سبيلا • يحس أبو حذيفة كأن شيئاً ينقص هذه الأندية ، وكأن حدثاً قد حَدَث فى مكة لا يدرى أيسيرٌ هو أم خطير ، ولكن شيئاً قد حدث فغيّر من أمر قومه تغييراً يحسه ولا يحققه • ثم يلتمس بعض صديقه فى أندية قريش فلا يجدهم • يسأل : أين عثمان بن عفان الأموى ؟ وأين طلحة بن عبيد الله التيمي ؟ وأين فلان وفلان من ذوى مودته ؟ فلا يجيبه قومه بالتصريح ، وانما يُؤثر بعضهم الصمت ، ويذهب بعضهم مذهب التورية ، ويلوى بعضهم ألسنتهم بأحاديث

---

(١) اعتلّ بالأمر تعلّل واعتذر (٢) أعجزتهم .

لا تفصح ولا تبين . ويرى أبو حذيفة ويسمع ، فيبعد الأمد بينه وبين الطمأنينة والأمن والرضا . ثم يصبح ذات يوم وقد انجلت له بصيرته ، ووضح له وجهُ الحزم من أمره . ان صديقه أولئك بمكة لم يفارقوها ولم يبرحوا أرض الحرم ، فما له يسأل عنهم ولا يُلِمُّ (١) بهم ! ولا يكاد هذا الخاطر يخطر له حتى يقصد قَصْدَ فلان أو فلان من أولئك الصديق .

وقد ألمَّ بعثمان بن عَفَّانَ وكان له خليلا على ما كان بينهما من تفاوت فى السن . كان عثمان قــد تخطَّى (٢) الأربعين أو كاد ، وكان أبو حذيفة لم يبلغ الثلاثين بعدُ ، ولكن الود كان بينهما قديماً متيناً ، زادته الصحبة فى الأسفار قوة وأيداً (٣) . فلما بلغ أبو حذيفة دار عثمان ودخل عليه تلقَّاه صديقه بما تعوَّد أن يتلقاه به من البِشر (٤) والبشاشة ومن الرفق واللين . ولكن أبا حذيفة آنس من صديقه على ذلك كله شيئاً من تحفظ واحتشام (٥) . قال أبو حذيفة : لقد التمستك أبا عمرو فى أندية قريش منذعاد الوفد الى مكة فلم أجدك ، فما عسى أن يكون قد حبسك عن قومك ؟ قال عثمان : لم أنشَطْ لهذه الأندية ولا لما يدور فيها من حديث . قال أبو حذيفة : فهل أنكرت من قومك شيئاً ؟ وهنــا سكت عثمان ولم يُجب . فأعاد عليه أبو حذيفة مقالته ، فأمعن (٦) عثمان فى الصمت . قال أبو حذيفة : ان لك أبــا عمرو لشأناً ولا والـلاَّت والعُزَّى . ولكن عثمان لم يكَدْ يسمع قَسَمَه هذا حتى لوى (٧) وجهه . وينظر أبو حذيفة فاذا وجه صاحبه قد ارْبَدَّ (٨) وظهر فيــه غضَبٌ لم يألفه منه قط . قال أبو حذيفة : وَيْحَكَ أبا عمرو ! انك لتعرف ما بينك وبينى من الود ، وانك لى لخليل وفىّ أمين ، فأظْهِرْنى

---

(١) ألمّ بالقــوم وعلى القوم أتاهم فنزل بهم (٢) تجاوز (٣) متانـــة
(٤) بشاشة الوجه (٥) الانقباض والاستحياء (٦) أمعن فى الأمر أبعد وبالغ
(٧) صرف (٨) تغيَّر لونه واغبرّ .

على ذات نفسك . قال عثمان فى صوت وادع لين : فان شئت أن تستبقى ما بيننا من الود فلا تذكر اللات والعزى وهذه الآلهة التى لا تغنى عنكم شيئاً . هنالك وجم (١) أبو حذيفة وجمة قصيرة ، ثم قال : ويحك أبا عمرو ! فانك اذن قد صبوت (٢) ؟ قال عثمان فى صوت أشد دعة وأعظم ليناً : لم أصب أبا حذيفة ، وانما اهتديت . انك فتى حازم رشيد لم تتقدم بك السن بعد ، ولكنك قد رأيت الدنيا وطوفت فى أقطار الأرض وبلوت أخبار الناس وجربت الأحداث والخطوب ، أفترى من الرشد أن يؤمن مثلك ومثلى لأنصاب (٣) من خشب وصخر صورها الناس بأيديهم ، ويستطيع من شاء منهم أن يجعلها جذاذاً (٤) ؟ قال أبو حذيفة : ما أراك أبا عمرو الا رشيداً ، ولكنى لم أفكر فى هذه الأشياء قط ، وانما وجدت قومنا يعبدون هذه الأنصاب فصنعت صنيعهم . قال عثمان : واذا أسفر الهدى وحصحص (٥) الحق ؟ قال أبو حذيفة : فقد وجب علينا أن نهتدى ونتبع الحق ، متى تستصحبني الى محمد ؟ قال عثمان : الآن ان شئت .

وأمسى أبو حذيفة مسلماً ، ودخل باسلامه على ثبيتة، فلم تكد تسمع له حتى آمنت بمحمد وما جاء به . وسمع الغلام سالم حديثهما فمالت اليه نفسه ، واذا هو يؤمن كما آمنا . ولم يتقدم الليل حتى زادت بيوت الاسلام فى مكة بيتاً .

وتمضى أيام قليلة واذا ثبيتة تعلم أن محمداً يدعو الى اعتاق الرقيق ، ويعد الذين يفكون الرقاب مغفرة من الله ورحمة ورضواناً: فتدعو اليها غلامها ذاك الفارسى وتقول له : اذهب سالم فانى قد سيبتك (٦) لله عز وجل ، فوال من شئت . قال سالم لأبى حذيفة : فهل لك فى أن تكون لى ولياً ؟ قال أبو حذيفة : هيهات ! لن أتخذك مولى ، وانما أنت ابن لى منذ اليوم .

---

(١) عبس وجهه واطرق لشدة الحزن (٢) صبا يصبو مال الى الصبوة أى جهلة الصبيان (٣) ما عبد من دون الله من الأصنام والتماثيل (٤) جذه قطعه وكسره والجذاذ المكسر (٥) بان ووضح (٦) اطلقتك .

استوثق (١) رسول الله صلى الله عليه وسلم لدعوته ولأصحابه ولنفسه من حَيَّىْ يثرب : الأوْس والخزرج ، وعاهدهم أن يئْووه وينصروه ويحموا ظهره ويقاتلوا من دونه من بَغَى عليه أو أراده بسوء حتى يبلغ رسالات ربه . وبايعه على هذا العهد نقباء هذين الحيين الأوس والخزرج . ثم أذِن الله بعد ذلك لرسوله وللمسلمين فى الهجرة الى مستقرهم الجديد . وكان الاسلام قد سبقهم الى يثرب ، بشّر به مَنْ أرسله رسول الله ليبشر به . فكانت الهجرة الى دار استقر فيها الاسلام قبل أن يستقر فيها المهاجرون . وقد أذن رسول الله لأصحابه فى الهجرة الى المدينة ، فجعلوا يذهبون اليها أرسالا ، وهو صلى الله عليه وسلم مقيم بمكة ينتظر أن يأذن الله له فى الخروج . واجتمعت جماعة المسلمين المهاجرين الى اخوانهم من الأنصار فى قُبَاء ، وجعلوا ينتظرون أن يقدَم عليهم رسول الله . وكانوا فى أثناء ذلك يقيمون الصلاة كما كانوا يقيمونها بمكة . وينظر المسلمون فاذا أقرؤهم للقرآن وأحفظهم عن النبى سالمُ ابن أبى حذيفة ، فَيُقَدِّمونَهُ ليؤمهم فى الصلاة ، وفيهم أعلامٌ من المهاجرين ، منهم عمر بن الخطاب الذى كان اسلامه فتحاً ، وهجرته نصراً ، وخلافته رحمة ، كما قال فيما بعد عبد الله بن مسعود . وينظر المشركون والمنافقون من الأوس والخزرج فيرون هذه الجماعة من المهاجرين والأنصار يقدّمون سالماً ليؤمهم فى الصلاة . فيكبرون (٢) من أمر سالم هذا بادىء الرأى ، ثم لا يلبثون أن يَذكروه ويعرفوه . يقول بعضهم لبعض : ألا ترون الى هذا الرجل الذى يصلى بهذه الناجمة (٣) من أصحاب محمد مَنْ هَاجَرَ منهم الى المدينة وَمَنْ كان من أهلها ! انه سالم . ألا تذكرون سالماً ؟ فيجهد القوم أنفسهم ليذكروه ، ولكن

---

(١) استوثق منه أخذ منه الوثيقة (٢) أكبر الأمر رآه كبيراً وعظم عنده (٣) الجماعة الناشئة الجديدة .

بعضهم يعيد عليهم قصة ذلك اليهودى الذى كان يعرض على العرب واليهود صبياً حَدَثاً (١) لا يُحسن العربية ولا يفهمها . وما هى الا أن يسمعوا بدء هذه القصة حتى يستحضروا سائرها ، وحتى يروا ذلك الصبى الذى مسه الضر وظهر عليه البؤس وزهد فيه العرب واليهود جميعاً ، واشترته ثُبيتة بنت يعار ، لا رغبة فيه بل عطفاً عليه . ثم يقول بعضهم لبعض : لو عاش سَلام بن حبير لرأى من صبيه ذاك عجباً . ثم يقول بعضهم لبعض : ألا َ ترون الى هذه الناجمة من أصحاب محمد يؤمّهم فارسى قد كان بالأمس عبداً ؟ ثم يردّ بعضهم على بعض رَجْع (٢) هذا الحديث فيقول : ان لهؤلاء الناس لشأناً . انهم يُسوّدون العبيد ، ويُلغُون ما بين الأحرار والرقيق من الفروق ، وانا لنرحم قريشاً مما أُلمّ بها ، وانّا لنعذِر قريشاً مما فعلتْ بمحمد وأصحابه . ولو استطعنا لفتناهم كما فتنتهم قريش ، ولنفيناهم عن أرضنا كما نفتهم قريش . ولكن هل الى هذا من سبيل ؟ فيقول قائلهم : هيهات ! لقد آمن لهم أولو البأس والقوة من قومنا . ولكن فريقا من هؤلاء المتحدّثين يسمعون ثم يُنكرون ثم يُؤثرون الصمت ، ثم يخلو بعضهم الى بعض فيستأنفون بينهم حديثاً جديداً يَتعجّبون فيه من أمر هذا الذى كان عبداً بالأمس، ثم هو يَؤمُّ الأحرار فى صلاتهم اليوم . ثم يتتبعون المهاجرين فيرون فيهم نفراً غير قليل من الرقيق الذين أعتقوا ، أعتقهم اسلامهم . ثم يتتبعون سيرة الأحرار الأشراف من المسلمين مع هؤلاء الذين رُدّتْ عليهم الحرية بعد أن نشئوا فى الرق ، فيرونها تقوم على الاخاء والعدل والنَّصَفة (٣) والمساواة . ثم يتحدّثون فى ذلك الى المسلمين من قومهم، فيقول لهم هؤلاء : ان الاسلام لا يفرق بين الحر والرقيق ، ولا بين الناس الا بالتقوى وبما يقدّمونه بين أيديهم من البر والخير وعمل الصالحات . هنالك تطمح قلوبهم الى هذه المساواة التى لم يسمعوا بها من قبل ، والى

---

(١) شاباً (٢) رجع الحديث أو الرسالة جوابه (٣) الانصاف والعدل

هذا العدل الذى لم يألفوه ، واذا هم يميلون الى الاسلام ، ثم يسرعون اليه ، ثم يحرصون على أن يَؤُمّهم سالم بن أبى حذيفة ، ذلك الذى كان عبداً بالأمس فأصبح يؤمُّ الأشراف من قريش ومن الأوس والخزرج حين يقومون بصلاتهم بين يدى الله (١) .

الفردوس الاسلامي في قارة آسيا

للاستاذ على الطنطاوى (٢)

نحن الآن فى الهند ، فى القارة التي حكمناها الف سنة ، فى الدنيا التى كانت لنا وحدنا ، وكنا نحن سادتها ، فى (الفردوس الاسلامى المفقود) حقا ، ولئن كانت لنا فى اسبانيا اندلس فيها عشرون مليونا ، فلقد كان لنا ها هنا اندلس آكبر ، فيها اليوم اربعمائة مليون ـ خمس سكان الأرض ، ولئن تركنا فى الاندلس من بقايا شهدائنا ، ودماءابطالنا، ولئن خلّفنا فيها مسجد قرطبة والحمراء ، فان لنا فى كل شبر من هذه

---

(١) الوعد الحق (٢) هو على بن مصطفى الطنطاوى ، ولد عام ١٣٢٧ هـ فى دمشق ، وكان أبوه أمين الفتوى ، وقرأ على علماء دمشق كالشيخ ابى الخير الميداني والشيخ صالح التونسي وغيرهم ودخل مدرسة نظامية ، ونال شهادة الحقوق من الجامعة السورية ، ومكث أقل من سنة فى دار العلوم المصرية ، واشتغل بالصحافة فترة وبتعليم اللغة العربية فى العراق ولبنان ومصر ، ودخل في القضاء عام ١٩٤٠ م ولم ينقطع عن التدريس والكتابة ، كان مستشاراً بمحكمة التمييز بدمشق ،

الاستاذ على الطنطاوى من كبار الكتاب الذين انجبتهم العربية فى هذا العصر ، تجمع كتابته بين الرشاقة والجزالة ومحاسن القديم والجديد ، ومقالته هذه التى يستعرض فيها تاريخ الهند الاسلامى وقد كتبها على اثر زيارته للهند ، تدل على اقتداره على اللغة وبلاغته فى التعبير ، له من الكتب أبو بكر الصديق وعمر بن الخطاب ، ومقالات نشرتها مجلة الرسالة وتنشرها « المسلمون » .

القارة دماً زكياً أرقناه ، وحضـارة خيِّرة وشيت (١) جنباتهـا (٢) ، وطرزت (٣) حواشيها ، بالعلم والعدل والمكرمات والبطولات ، وان لنا فيها معاهد ومدارس ، كم أنارت عقولا ، وفتحت للحق قلوبا ، ولا تزال تفتح القلوب وتنير العقول ، وان لنا فيها آثاراً تفوق بجمالها وجلالها الحمراء ، وحسبكم (تاج محل) أجمل بناء علا ظهر الارض •

* * *

لقد مرت بالهند أربعة عهود اسلامية ، عهد الفتح العربى ، ثم عهد الفتح الأفغانى ، ثم عهد المماليك ، ثم عهد المغل •

كان أو لمن حمل الى الهنـد لواء الاسلام ، محمد بن القاسـم الثقفى (٤) ، القائد الشاب الذى هجر منازل قومه فى الطائف ، ومشى الى العراق فى ركاب ابن عمه الحجاج ، الذى ظلم كثيرا وقسا كثيرا ، وكانت له هِنات (٥) غير هينات ، ولكنه هو الذى أبقى لنا العراقين وفتح لنا المشرق كله والسند فبعث المهلب العظيم حتى أطفأ نار الحرب الاهلية التى ضرمها الخوارج ، وأرسل قتيبة العظيم حتى فتح سمرقند وبخارى وتركستان ، وأوفد ابن عمه محمداً العظيم حتى فتح السند ،

ولولا الايمان الذي يصنع العجائب ، ولولا الهمم الكبـار التي تزيح (٦) الجبال ، ولولا البطولة التي وضعها محمد صلى الله عليه وسلم

---

(١) وشى الثوب يشِي وشياً وشية حسَّنه بالألوان ونمنمه ونقشه (٢) جوانبها ونواحيها (٣) طرَّز الثوب بكذا أعلمه (٤) هو محمد بن القاسم ابن محمد بن الحكم بن ابى عقيل الثقفى ، كان من بنى اعمام الحجاج وختنه ، عقد له الحجاج على ثغر السند فوصل الى الملتان يفتح ويدوِّخ وفتح السند ومات الحجاج ومات الوليد بن عبـد الملك وولى سليمان وولى يزيـد بن عبد الملك السكسكى السند فحمل محمد بن القاسم مقيدا وبكى أهل الهند على محمد وصوروه بالكيرج وعذَّبه صالح والى العراق فى رجال من آل ابى عقيل حتى قتلهم وكان الحجاج قتل آدم اخا صالح ، وقد كان فتح السند على يد محمد بن القاسم وهو ابن سبع عشرة سنة ، وكان قتله فى نحو سنة ست وتسعين (٥) خصلات شرٌ وزلات (٦) ازاحه ابعده .

فى قلوب العرب ، لما استطاع هذا الجيش ان يقطع خمس محيط الكرة الارضية ، وهو ماش على الاقدام ، أو معتل ظهور الابل والدواب ، ما عرف قطاراً ولا سيارة ، ولا رأى على متن الجو طيارة ، ولما وضع ابن القاسم الحجر الاول فى هذا الصرح الهائل ، وأدخل الشعاعة الاولى من هذه الشمس التي اشرقت فى مكة الى هذه القارة ، وفتح السند ولم تبلغ سنه سن تلاميذ البكالوريا (١) !

* * *

وعاد اليها لواء الاسلام مرة ثانية فى القرن الرابع ، عاد بالفتح على يد السلطان العظيم محمود الغزنوى ، الذى خرج من غزنة وكانت قصبة (٢) بلاد الأفغان ، وهى الى الجنوب من كابل ، فاخترق ممر خيبر ، المضيق المهول الذى يشق تلك الجبال الشاهقة شقاً ، والذى تجزع ان تسلكه من وعورته ووحشته اسد الفلا (٣) ، وجن الليالى السود ، ثم دخل الهند وخاض عشرات من المعامع (٤) الحمر ، التى يرقص فيها الموت ، ويشتعل الدم ، واجتمع عليه امراء الهند وأقيالها (٥) جميعا ، فطحن أبطالهم ومزق جيوشهم ، ومضى حتى جاب البنجاب ، واستجابت له هاتيك البلاد ، فأقام فيها حكم الله ، وأذاق أهلها عدالة الاسلام .

وجاء من هذا الطريق بعد أكثر من قرن ، السلطان شهاب الدين الغورى ، فوصل من هذا الفتح ما كان منقطعا ، وأكمل منه ما كان ناقصا ، وملك شمالى الهند ، وبلغت جيوشه دهلى ، فأوقدت فيها منار الدعوة الاسلامية ، فضوأت بعد الظلمة ، وأبصرت بعد العمى ، ودوّى فى أرجائها الصوت الذى خرج من بطن مكة ، صوت المؤذن ينادي فى قلب الهند ذات الأرباب والآلهة والاصنام ، ان خابت آلهتكم ، وهوت أصنامكم ، انما هو اله واحد ، لا اله الا الله محمد رسول الله .

قامت فى الهند حكومة اسلامية قرارتها دهلى .

---

(١) شهادة الجامعة الاولى (٢) اعظم مدن البلاد (٣) جمع فلاة وهى الصحراء الواسعة (٤) الحروب (٥) جمع قيل وهو الرئيس .

وبينما كان قطب الدين ايبك قائد السلطان الغورى يفتح المدن بسيفه كان الشيخ معين الدين الجشتى (١) يفتح القلوب بدعوته فدخل الناس فى الاسلام افواجا ، وكان هذا الفتح أبقى وأخلد ، وكان منه اليوم ثمانون مليونا من المسلمين فى باكستان ، واربعون مليونا غيرهم فى هندستان ، وسيبقى الاسلام فى تلك الديار الى آخر الزمان .

وولى الملك بعد السلطان الغورى قائده قطب الدين ، الذى فتح دهلى وبدأ به عهد المماليك ، وكان منهم ملوك عظام حقاً ، منهم قطب الدين هذا بانى منارة قطب (قطب مينار) الذى يقف اليوم أمام عظمتها كل سائح يرد دهلى ، وشمس الدين الالتمش وغياث الدين بلبن .

ثم جاء الخلج وكان منهم الملك العظيم علاء الدين الخلجى الذى عدل فى الناس ، وضبط البلاد ، وبسط الأمن ، وأوغل (٢) فى إلهند .

وجاء من بعدهم آل تغلق ، وكان منهم الملك الصالح المصلح فيروز ، ثم جاء اللودهيون ، وكان فى أحمد آباد ملوك ذكروا النّاس بالخلفاء الراشدين كمظفر الحليم الكجراتي .

وكا نللعلماء فى دولة المماليك دولة أكبر منها ، وكان لهم سلطان أكبر من سلطان الملوك ، ولقد روى أخونا ابو الحسن على الحسنى الندوى (٣) ، أن السلطان شمس الدين الألتمش الذى دانت(٤) له البلاد كلها (وكان فى القرن السابع الهجرى) وخضع له ملوك الهند جميعا ،

---

(١) هو الشيخ الامام الزاهد الكبير الحسن بن الحسن السجزى شيخ الاسلام معين الدين الاجميرى ، كان مولده سنة ٥٣٧ ببلدة سجستان ، قرأ العلم وسافر ودخل هارْوَنْ قرية من أعمال نيسابور وادرك بها الشيخ عثمان الهارونى فلازمه واخذ عنه الطريقة وصحبه عشرين سنة ثم قدم دهلى ثم سار الى أجمير وسكن بها ، واليه تنسب الطريقة الجشتية ويرجع الفضل فى دخول العدد الكبير من المشركين فى الاسلام واستقرار الاسلام فى هذه البلاد ، توفى الى رحمة الله تعالى سنة ٦٣٢ هـ ، ودفن فى أجمير(٢)أوغل وتوغّل فى البلاد ذهب وابعد (٣) فى رسالته « الدعوة الاسلامية وتطوراتها فى الهند » (٤) ذلّت واطاعت .

كان يستأذن على الشيخ بختيار الكعكى (١) فيدخل زاويته ويسلم عليه تسليم المملوك على الملك ولا يزال يكبس (٢) رجليه ويخدمه ويذرف (٣) الدموع على قدميه حتى يدعو له الشيخ ويأمره بالانصراف •

وان علاء الدين الخلجي أكبر ملوك الهند فى زمانه استأذن الشيخ الدهلوى فى أن يزوره فلم يأذن له الشيخ •

ولما مرض الشيخ الدولة آبادى المفسر (٤) وأشرف على الموت عاده السلطان ابراهيم الشرقى ، ودعا عند رأسه أن يكون هو (اى السلطان) فداءه من الموت •

وكانت زاوية نظام الدين البدايونى (٥) ، أحفل بالقصاد ، وأزخر بالناس من قصر الملك ، وكان سلطانه الروحى أعظم من سلطان الملك المادى •

كان ذلك ياسادة ، لما تجرد هؤلاء العلماء من أثواب المطامع والرغبات، وزهدوا بما فى أيدى الملوك ، فسعى الى أبوابهم الملوك ، ونزعوا حب

---

(١) هو شيخ الاسلام قطب الدين بختيار الأوشى المعروف بالكعكى كان من كبار اولياء الله ، بايع الشيخ معين الدين الجشتى المذكور وفاز بالخلافة وله عشرون سنة ، وقدم دهلى وتوطن بها ، وقام بدعوة الخلق الى الله وانتفع به خلائق ، ومن خلفائه الشيخ فريد الدين كنج شكر الأجودهني (م٦٦٤هـ) توفى رحمه الله سنة ٦٣٣ هـ (٢) كبس يكبس كبسا بابه ضرب على الشيء شدّ عليه وضغط يعنى يغمز رجليه (٣) ذرّف تذريفاً الدمع صبّه (٤) هو ملك العلماء الشيخ أحمد بن عمر شهاب الدين الدولة آبادى ، صاحب الارشاد فى النحو والبحر المواّج فى التفسير ، ولد فى دهلى وتوفى فى جونبور سنة ٨٤٩هـ (٥) هو الشيخ الامام نظام الدين محمد بن احمد البدايونى ، أحد الأولياء المشهورين بأرض الهند ، انتهت اليه الرياسة فى دعاء الخلق الى الله والتسليك فى طريق العبادة والانقطاع عن الدنيا مع التضلع من العلوم الظاهرة، ولد سنة ٦٣٦ هـ ببدايون ، وسافر الى دهلى وقرأ على أساتذتها وسافر الى اجودهن واخذ عن الشيخ الكبير فريد الدين مسعود (كنج شكر) الاجودهنى وصحبه مدة وأجازه الشيخ وانقطع الى الله سبحانه بقلبه وقالبه واشتغل بالدعوة الى الله والتربية ، حتى انتقل الى رحمة الله تعالى سنة ٧٢٥

الدنيا من قلوبهم ، فألقت بنفسها على أقدامهم الدنيا .

وفى عهد السلطان ابراهيم اللودهى سنة ٩٣٣ هـ جاء بابر حفيد تيمور لنك من كابل وكسر جيوش اللودهى وكانت مائة الف ، باثنى عشر الفا من فرسان المغل المسلمين ، وأسس دولة المغل التى كانت أكبر الدول الاسلامية فى الهند وكان من ملوكها ، الملك الصالح اورنك زيب.

ولما مات بابر ، وولى ابنه همايون ، وثب عليه رجل عصامي(١) لم يكن من بيت الملك ولكن كانت له همم الملوك ، فانتزع البلاد منه وأقام دولة كانت نادرة فى الدول ، ونظم الادارة والمالية والجيش تنظيماً لم يسبق الى مثله ، هو السلطان شيرشاه السورى ولما مات عاد الملك الى ابن همايون وهو الامبراطور أكبر وكان من أعاظم الملوك ، حكم الهند كلها الا قليلا ، وطال حكمه فكفر فى آخر أيامه بالله وأكره الناس على الكفر ، وابتدع لهم ديناً جديداً ، وأزال معالم الاسلام ، وأبطل شعائره ، وكان معه الجيش ، وكان معه الأمراء ، وكانت البلاد كلها فى يده ، فمن يقوم فى وجهه ، ومن ينصر الاسلام ، ومن يدافع عن الدين ؟

لقد قام بذلك شيخ ضعيف الجسم ، قليل المال والجاه والأعوان ولكنه قوى الايمان بالله ، كبير النفس والقلب ، قد استصغر الدنيا فهو لا يحفل بكل ما فيها من مال ومناصب ولذائذ ، واستهان بالحياة فهو لا يبالى على أى جنب كان فى الله مصرعه ، هو الشيخ أحمد السرهندى(٢) . ولم يكن يطمع باصلاح الامبراطور ، ولا يجد فيه أملاً ، فجعل يتصل

---

(١) كبير النفس عالى الهمة

(٢) هو الامام الرباني الشيخ احمد بن عبد الأحد الفاروقى السرهندي مجدد الألف الثانى ، ولد فى سرهند (الهند) ورسخ فى العلوم وبايع الشيخ عبد الباقى النقشبندى (م ١٠١٤ هـ) ونال منه الاجازة والخلافة فى الارشاد، وقام بالدعوة الى الدين الصحيح ومحاربة البدع والالحاد ، واحياء السنن ، نفع الله به وبأولاده وخلفائه خلقاً لا يحصون وعادت به الهند الى الاسلام ، توفى سنة ١٠٣٤ هـ

القواد الصغار ، وبالحاشية ، ويعد لانقلاب شامل ، لا لانقلاب عسكرى ثورى ، بل لانقلاب روحى فكرى ، وكان يرسل الرسائل تلتهب بالحماسة الدينية والعاطفة والايمان . ولما مات اكبر وولى ابنـــه جهانكير (١) استطاع الشيخ محمد معصوم السرهندى ابن الشيخ السرهندى أن يشرف على تربية طفل صغير ، هو أحد حفدة جهان كير .

ولم يكن هذا الطفل أكبر اخوته ، ولا كان ولى العهد ، ولم يكن يؤمل له أن يلى الملك ، ولكن الشيخ وضع فى تربيته جهده ، وبذل له رعايته كلها ، فنشأ نشأة طالب فى مدرسة دينية داخليـــة ، بين المشايخ والمدرسين ، فقرأ القرآن وجوّده ، والفقه الحنفى وبرع فيه ، والخط وأتقنه ، وألمّ بعلوم عصره ، وربى مع ذلك على الفروسيّة ، ودرب على القتال . ولما مات جهانكير وولى شاه جهان ، ولى كلاًّ من أبنائه قطراً من اقطار الهند، وكان نصيب هذا الطفل وهو (اورنك زيب(٢) ولاية الدكن .

وكان لشاهجهان زوجة لا نظير لحسنها فى الحسن ، ولا مثيل لحبه اياها فى الحب هى (ممتاز محل) ، فماتت ، فرثاها ولكن لا بقصيدة من الشعر، وخلدها ولكن لا بصورة ولا تمثال، لقد رثاها فخلّدها بقطعة فنية من الرخام ما قال شاعر قصيدة أشعر منها ، ولا لحن موسيقى أغنية أعذب منها ، ولا صور مصور لوحة أروع منها ، فهى شعر ، وهي اغنية ، وهى صورة ، وهى أعظم تحفة فى فن العمران .

هى تاج محل ، هذا البناء العجيب الذى أدهش بجماله الدنيـــا ، وما زال يدهشها ، والذى لان فيه الرخام لهذه الأيدى العبقرية فجعلت منه أجمل بناء شيد على ظهر هذه الارض بلا خلاف ، ونقشته هذا النقش الذى لم يعرف قط نقش فى مثل دقّته وفنه وسحره .

هذا القبر الذى يأتى اليوم السياح ، من أقصى اميركا الى (اكره) قرب دهلى ليشاهدوه ، ويسمعوا قصته وهى أعظم قصص الحب على

---

(١) يعنى فاتح الدنيا ومتملكها (٢) يعنى زينة العرش

الاطلاق . لقد صدّع (١) موت هذه الزوجة الحبيبة الامبراطور العظيم، فزهد فى دنياه لانها كانت هي دنياه ، وحقر ملك الهند لانها كانت أعظم عنده من ملك الهند ، ولم يعد له أرب (٢) بعدها الا ان يملص (٣) من حاضره ، ويوغل (٤) بذكرياته فى مسارب(٥)الماضى ، ليعيش بخياله معها، يستروح (٦) رياها (٧) ، ويستجلى جمالها ، ويسمع خفى نجواهــا ، ويحس حرارة انفاسها ، ثم استحال حبه اياها حباً لهذا القبر الذى شاده لها ، فجن به جنوناً ، وصار يحس فى برودته حرارتها ، وفى جمــوده خطراتها ، وفى صمته حديثها ، وانصرف عن الملك وأهمله فوثب ابنــه الأكبر فولى الملك الا اسمه ، وتصرف بالأمر وحده ، ونازعه اخوته ، وجاء كل من امارته : شجاع من البنغال ، ومراد بخش (٨)من(الكجرات) واورنك زيب هذا من الدكن ، واستطاع ان يغلبهم جميعاً ، وينفرد بالأمر ووضع أباه فى قصر من قصور الملك ، جعل له فيه ما يشتهيه من الفرش والطعام واللباس والحاشية والجوارى ، وجعل له حيال سريره مرآة اقيمت على صناعة عجيبة لا تزال تدهش السياح يرى منها (تاج محل)، على البعد وهو مضطجع فى سريره كأنه امامه ، وكان ذلك كل ما بقى له من لذائذ دنياه !

* * *

وكان جلوسه على سرير الملك سنة١٠٦٨ هـ (قبل ثلثمائة سنة)وكأنى بكم تظنون ان هذا الملك الذى ربى بين كتب الفقه واوراد النقشبندية ، سيدخل خلوته ، ويعمل من قصره مدرسة أو تكية (٩) ، يصلى ويقرأ فى كتب الفقه ، ويسيب أمور الدنيا ويهملها زاهداً فيها ، كلا ياسادة ، وما هذه خلائق الاسلام ، ولا هذى طريقته ، ان العمل لاسعاد الناس ، واقامة العدل ، ورفع الظلم ، وجهاد الكافرين المفسدين فى الأرض ، كل ذلك

---

(١) كسر قلبه وأحزنه (٢) حاجة (٣) امّلص افلت وتخلّص (٤) يمعن ويبعد (٥) منافذه ومذاهبه (٦) استروح الشىء تشمّمه (٧) الريح الطيبة (٨) معناه معطى السؤل والمراد (٩) الزاوية .

صلاة كالصلاة فى المحراب ، بل هو خير من صلاة النفل ، وصوم التطوع ، وعدل ساعة أفضل من عبادة اربعين سنة •

لذلك ترونه لبس لأمة (١) الحرب من أول يوم (وكان يومئذ فى الاربعين) ونهض بنفسه ، يقضى على الخارجين ، ويقمع المتمردين ، ويفتح البلاد ، ويقرر العدالة والأمن فى الأرض ، وما زال ينتقل من معركة يخوضها الى معركة ، ومن بلد يصلحه الى بلد ، حتى امتد سلطانه من سفوح همالية ، الى سيف البحر من جنوب الهند ، وكاد يملك الهند كلها ، حتى قضى شهيداً فى سبيل الله فى أقصى الجنوب بعيداً عن عاصمته بأكثر من ألف وخمسمائة كيل •

من خاض هذه المعارك ، استنفدت وقته كله ، ولم تدع له بقية لاصلاح فى الداخل ، او نظر فى امور الناس ولكن اورنك زيب ، حقق مع ذلك من الاصلاح الداخلي ما لم يحقق مثله الا قليل ، قليل ، من الملوك •

كان ينظر فى شؤون الرعية من أدنى بلاده الى أقصاها ، بمثل عين العقاب ، كما كان يبطش بالمفسدين بمثل كف الأسد ، فأسكن كل نأمة (٢) فساد ، وأقر كل بادرة اضطراب ، ثم أخذ بالاصلاح فأزال ما كان باقياً من الزندقة التى جاء بها (اكبر) أبو جده ، وكانت الضرائب الظالمة ترهق الناس ولا ينال امراء المجوس لفح من نارها ، فأبطل منها ثمانين نوعاً ، وسن للضرائب سنة عادلة ، وأوجبها على الجميع فكان هو أول من أخذها من هؤلاء الامراء ، ولولا هيبته وشدته فى الحق لأبوها عليه ، وأصلح الطرق القديمة ، وشق طرقاً جديدة ، ويكفى لتدركوا طول هذه الطرق ان تعرفوا أن طريقاً واحداً مما كان فتحه شيرشاه السورى ، كان يمشى فيه المسافر ثلاثة أشهر ، وكانت تحف به الأشجار من الجانبين على طوله وتتعاقب فيه المساجد والخانات (٣) !

وبنى المساجد فى أقطار الهند ، وأقام لها الأئمة والمدرسين ، وأسس

(١) الدرع جمعها لأم ولؤَم (٢) النغمة والصوت يقال أسكت الله نأمته اى أماته (٣) جمع خان وهو محلٌ نزول المسافرين ، والكلمة دخيلة .

دوراً للعجزة ، ومارستانات (١) للمجانين ، ومستشفيات للمرضى •

وأقام العدل فى الناس جميعاً ، فلا يكبر أحد عن ان ينفذ فيه حكم القضاء ، وكان أول من جعل للقضاء قانوناً ، فكان يحكم فى القضايا الكبرى بنفسه لا حكماً كيفياً بل حكماً بالمذهب الحنفى معللاً له مدللاً عليه ، ونصب القضاة للناس فى كل بلدة وقرية ، وكان للامبراطور امتيازات فألغاها كلها ، وجعل نفسه تابعاً للمحاكم العادية ، وان من له عليه حق ان يقاضيه به أمام القاضى مع السوقة والسواد من الناس •

كان الرجل عالماً ، فقيهاً بارعاً فى الفقه الحنفى ، فأدنى العلماء ولازمهم ، وجعلهم خاصته ومستشاريه وبنى لهم المدارس ، وجعل الرواتب •

ووفق الى امرين ، لم يسبقه اليهما أحد من ملوك المسلمين •

الاول : انه كان لم يكن يعطى عالماً عطية أو راتباً الا طالبه بالعمل ، بتأليف أو تدريس ، لئلا يأخذ المال ويتكاسل ، فيكون قد جمع بين السيئتين ، أخذ المال بلا حق ، وكتمان العلم ــ فما قول مدرسى الافتاء والأوقاف ؟

والثانى : أنه أول من عمل على تدوين الأحكام الشرعية ، فى كتاب واحد ، يتخذ قانوناً ، فوضعت له وبأمره وباشرافه ونظره الفتاوى التى نسبت اليه فسميت الفتاوى العالمكيرية ، واشتهرت بالفتاوى الهندية ، ويعرفها كل من يقرأ هذا المقال من العلماء لأنها من أشهر كتب الفقه الاسلامى ، وأجودها ترتيباً وتصنيفاً •

وكان ــ بعد ذلك كله ــ يؤلف ، ألّف كتاباً فى الحديث وشرحه وترجمه الى الفارسية ، ويكتب الرسائل البليغة ، التى تعد فى لسانهم من روائع البيان ، ويكتب بخطه المصاحف ويبيعها ليعيش بثمنها لما زهد فى أموال المسلمين وترك الأخذ منها ، وانه حفظ القرآن بعد أن ولى الملك ، وانه كان شاعراً موسيقياً ، ولكنه ترك ذلك ، وكرهه ، وأبطل ما كان للشعراء والموسيقيين من هبات وعطايا ولم يكن يراهم لازمين لأمة لا تزال تبنى فى الأرض صرح مجدها •

(١) جمع مارستان وهو دار المرضى ، والكلمة من الدخيل اصله بيمارستان

وكان يصلي الفرائض في أول وقتها مع الجماعة لا يترك ذلك بحال ، والجمعة في المسجد الكبير ولو كا نغائباً عن المصر لأمر من الأمور ، يأتيه يوم الخميس ليصلي الجمعة ، ثم يذهب حيث شاء ، وكان يصوم رمضان مهما اشتد الحر ، وما أدراكم ما حر الهند ؟ ويحيي الليـــالي بالتراويح ، ويعتكف في العشر الأواخر من رمضان في المسجد ، ويصوم الاثنين والخميس والجمعة ، في كل اسبوع من أسابيع السنة ، ويداوم على الطهارة بالوضوءويحافظ على الأذكار ، ويمد أهل الحرمين بالصـلات المتكررة الدائمة .

وكان مع ذلك آية في الحزم والعزم ، والبراعة في فنون الحرب ، وفي التنظيم الاداري . فكيف استطاع أن يجمع هذا كله ؟

كيف قدر أن يتعبد هذه العبادة ؟ ويقضي بين الناس ؟ ويؤلف في العلم ؟ ويكتب المصاحف ؟ ويحفظ القرآن ؟ ويدير هذه القارة الهائلة ؟ ويخوض هذه المعارك الكثيرة ؟

لقد كان يقسّم بين ذلك أوقاته ، ويعيش حياة مرتبة ، فوقت لنفسه ووقت لأهله ، ووقت لربه ، وللادارة والقتال والقضاء أوقاتها .

حكم الهند كلها خمسين سنة كوامل ، وكان أعظم ملوك الدنيا في عصره وكانت بيده مفاتيح الكنوز ، وكان يعيش عيش الزهد والفقر ، ما مد يده ولا عينه الى حرام ، ولا أدخله بطنه ، ولا كشف له ازاره ، كان يمر عليه رمضان كله لا يأكل الا أرغفة معدودة من خبز الشعير ، من كسب يمينه من كتابة المصحف لا من أموال الدولة .

رحمة الله على روحه الطاهرة (١)

---

(١) مجلة « المسلمون » العدد الخامس من المجلد الرابع .

تنبيـــه

قد يفتقد الأديب المطلع بعض اعلام الأدب العربي في القديم والحديث ولا يرى لهم نصوصاً في هذا الكتاب فليعلم أن معهم موعداً في الجزء الثاني من الكتاب .

الفهرس

(المترجَمون في الكتاب)

منهاج الدراسة

تنوى دار العلوم لنـــدوة العلماء إعداد منهجها الخـاص حسب الحاجات فى البلاد ، و الظروف المتغيرة ، و تغيير المناهج الدراسية فى نظام التعلم الحديث ؛ ونظراً للصعوبات فى استيراد الكتب المدرسية من الخـارج رسمت دار العلوم خطة للاكتفـاء الذاتى فى الكتب المدرسية حسب مقتضيات المنهج الدراسى ، و قد وفقت إلى حد كبير فى هـذا الميدان . و تم إعداد الكتب الآتية بأقلام الندويين :

لتعليم اللغة العربية :

قصص النبيين للأطفال ٣ أجزاء للشيخ أبوالحسن على الندوى

القراءة الراشدة (للثانوية) ٣ » » » »

الأدب العربي و نصوصه :

مختارات من أدب العرب (للعليا) جزئين » » »

منثورات من أدب العرب ١ جزء للأستاذ محمد الرابع الندوى رئيس قسم اللغة العربية .

العقيدة الاسلامية :

العقيـــدة السنيـة للشيخ محمد أويس الندوى أستـاذ قسم التفسير بدارالعلوم لندوة العلماء

النقـــد العربي :

الأدب العربي بين عرض ونقد   للأستاذ محمد الرابع الندوی

الجغـرافيـــا :

جغرافية جزيرة العرب   للأستاذ محمد الرابع الندوی

النحو و الصرف :

تمرين الصرف   للأستاذ محمد معين الندوی

تمرين النحو   للأستاذين محمد مصطفى الندوی وعبد الماجد الندوی

الانشـــاء :

معـلم الانشاء (جزئين)   للأستاذ عبد الماجد الندوی

» » الجزء الثالث   للأستاذ محمد الرابع الندوی

مكتبة دار العلوم ندوة العلماء لكهنؤ

منثورات من أدب العرب

تأليف

الأستاذ محمد الرابع الحسنى الندوى

و رأى فضيلة الأستاذ أبي الحسن على الحسنى الندوى

عنه فى مقدمته للكتاب

. . . . . فانه اقتبس من كتب السيرة و التاريخ و الأدب و الدين قطعا نابضة ، مشرقة الديباجة ، واضحة الفكرة ، إسلامية النزعة ، تغذى الملكة الأدبية والعاطفة الدينية فى وقت واحد وتمثل الأخلاق العربية الفاضلة ، و الحضارة الاسلامية المثلى ، و قد جمع فيه المؤلف بين النثر البليغ ، و الشعر الرقيق ، و الأدب القديم و الأدب الحديث ، فجاء كتابه مجموعة جامعة تغرس فى قلوب الناشئة حب هذه اللغة الكريمة التى يدرسونها ، و حب الأخلاق و الأغراض التى يحملها أدبها ، و حب المجتمع الذى عاشت فيه هذه اللغة و آدابها